أسرار دوام العلاقات

ايمانويل دي بويسون



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

ايمانويل دي بويسون

«مكتبة ♔ النخبة»





شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الجناح، شارع زاهية سلمان

مبنى مجموعة تحسين الخياط

ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان

تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+

email: publishing@all-prints.com

tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الثانية ٢٠٢٠

ISBN: 978-9953-88-066-2 النسخة الورقية

ISBN: 978-6144-58-491-0 النسخة الإلكترونية

Titre "LE SECRET DES COUPLES QUI DURENT"

تصميم الغلاف: إيناس مطاوع

مراجعة: فؤاد زعيتر

الإخراج الفني: بسمة تقي

المحتويات

«الزواج الجميل زينة الحب».

هنري دي مونترلان

«ما نفع الزواج؟ (...) هو عامل دوام الحب».

ويلي باسيني

«عندما يتعلق الأمر بالشخص الأهم في العالم بالنسبة إليك، لا يمكنك أن تتصرف بموضوعية، فقلَّما تُجدي الموضوعية نفعاً في هذه الحالات. بل من الممكن أن تُفسد الأمور. المهم أن تحظى بنوع من المقاومة؛ المقاومة المساعِدة، التي لا يقدمها إليك إلا من تحبّ، فتسنح لك فرصة الاقتراب من السر الذي يجمع بين هذه الكتلة من فوضى الانطباعات والحسابات والاستيهامات، التي نطلق عليها اسم «الشخص». يكمن السر في أن الوحدة المرجوّة تحدث بفعل نظرة الشخص الآخر. لقد ولّدت نظرتك وحدتي. لم أشعر بأنني «واحد» إلا من خلال نظرتك. أظن أن كلاً منا قادر على «خلق» إنسان، أي شخص واحد (وهذا بالكثير أصلاً). خلاصة الموضوع: يحقق الإنسان ذاته من خلال الآخر».

جاك دي بوربون بوسي، Lettre à Laurence

المقدمة

يُعَدّ الثنائي الذي يعمّر طويلاً، استثناءً، بل ظاهرة توشك على الانقراض. فهو، شأنه شأن كل ما يُعتبر نادراً، مصدر غنى. ولا شك في أن ذلك هو السبب الذي يجعلنا نتأثر فيه، ونُسحَر به، ويجعله محطّ اهتمام بالنسبة إلينا. لربما تجمعات المقاومة الأخيرة هذه لعالم متغيّر، تشغل بالنا بعض الشيء؟ فالـ «الحواجز» القديمة تنقل إلينا: الدين والأخلاق والتقاليد والعائلة... وبما أن معدل الحياة يزيد أكثر فأكثر، غالباً ما نعيش العديد من الحالات، سواء أكانت مهنية أم شخصية، كما لو كانت مترابطة بإحكام. اليوم كما الأمس، نتمنى أن نحقق ذواتنا إلى أقصى حد، وأن نعيش رغبات استثنائية. وعلى عكس الأجيال السابقة، تصبح المسؤولية والالتزام، والوفاء وحسّ الجهد في أيامنا هذه، قديمة الطراز. فهل أصبح الزواج الطويل الأمد من قصص التاريخ، أي أنه لم يعد مجارياً لعصرنا الحاضر المحاط بقصص التجديد والحرية والاستقلال.

قبل التعمق أكثر في رهانات الحياة الزوجية، من الضروري طرح سؤال جوهري: هل يدخل الزواج في إطار المنطق الثقافي، أم أنه حاجة طبيعية؟ الأكيد، أن عدد الذين يعيشون وحيدين، في عصرنا الحالي يزداد مع الوقت، سواء أخُيروا في ذلك أم أُجبروا عليه. وإن ازدياد العائلات الأحادية الأبوين ملحوظ. كما لا يؤدي عيش حالة من الغرام بالضرورة إلى رغبة في عيش الحبيبين معاً. وبما أن سنّ الارتباط أصبحت تتأخر أكثر فأكثر، أصبحنا نؤسس حياتنا الزوجية بعد نسج شبكة واسعة من الروابط الاجتماعية، تتمثل في الأصدقاء والمحيط المهني والنشاطات الرياضية والسياسية والحركات الترابطية والحالات العلاجية... لكل منا قصته وحالات من الفشل العاطفي وخشية من فقدان الحرية. أيكون هذا سبب توقّينا الحذرَ من الحياة الزوجية اليومية إلى هذا الحد؟ تبيّن هذه النزعة الغربية، أننا نفضل الوحدة الحرة، كأن الأمر أشبه بإيجار قابل للتجديد. يفضّل الكثيرون الحفاظ على «هامش» لهم، يتيح لهم التفلُّت من أي التزام، أي على إمكانية دائمة لفسخ العلاقة. وبرغم ذلك، عندما نعيش حالة حب، نتمنى لو يدوم هذا الشعور إلى الأبد. إننا نعيش في مجتمع لا تشكل فيه العائلة والحياة المهنية مصدر اطمئنان، وبالتالي فإننا ننتظر الكثير من شريكنا: المتعة والمشاركة والسعادة واللحظات النادرة التي تتطابق فيها أفكارنا عن الحياة وما نعيشه في الواقع. فنحن نبحث عن شخص يوافقنا من دون أن نكفّ عن القلق؛ عن شخص يعكس حقيقتنا وأكثر؛ عن شخص يشهد كل مرحلة من مراحل تقدمنا في الحياة.

أيكون الحلّ في المرور في حالات حب تتكيف وأنماط حيواتنا المختلفة؟ من الناحية البيولوجية، تمت برمجتنا لنتواءم وأربعة أنواع من الوحدة، وأربع حالات حب كمالية، هي: «الحب الذي نكنّه لمرحلة تعلّمنا معنى الحياة الزوجية والنضوج الجنسي؛ والحب الذي يولّد فينا حس الأبوة، ويتبدَّد عندما يكبر الأولاد؛ والحب الذي يسمح لكل من الشريكين بالتمحور أكثر حول تحقيق ذاته؛ وحب مرحلة تحقق المساواة الفعلية والمشاركة الروحية»[1]. وتثبت الأرقام هذه الدرجات المتتالية: يبلغ معدل الفترة التي يعيشها شخصان غير متزوجين ثمانية أعوام، بيد أن معدل هذه الفترة هو ثلاثة عشر عاماً بالنسبة إلى شخصين مرتبطين بالزواج. في باريس، تنتهي كل حالة زواج من أصل حالتين بالطلاق، وفي المحافظات، تلقى كل حالة من أصل ثلاث المصير عينه. وبعد الانفصال، تعيش 60% من النساء مع شريك مجدداً، مقابل 75% بالنسبة إلى الرجال. فإنشاء علاقة مرة أخرى ليس بالأمر السهل، كما أن العلاقات الثانية تكون أقصر من التي سبقتها، وعدد العازبين لا ينفك يزداد. فبحسب تفسيرات جان كلود بولوني[2]، فإن عددهم مرتفع إلى درجة أنهم على وشك تشكيل شريحة كبيرة مستقلة. إذاً، يبدو أن الكثيرين يفضلون بناء علاقات سريعة عابرة وقصيرة الأمد. فهم يبحثون عن المتعة الفورية وحالة الحب السطحية، لا عن الحب الحقيقي، فيستهلكون الشريك كما لو كان «بضاعة» متداولة.

علاوة على ذلك، راح ابتذال حالات الطلاق يفرض على الأجيال الشابة صورة بيانية للوحدة الزوجية. غالباً ما يتصرف أبناء هذا الجيل بتخلقيّة، لذا نفهم أن كل العوامل تردعهم عن الارتباط. كما تغمرهم وسائل الإعلام والكتب والسينما بالانفعالات الجارفة والمأساوية. خلاصة الأمر، بما أن توزيع الأدوار قد تغيّر تماماً، يكمن السؤال الأساسي في معرفة ما نعنيه بكلمة «دام»، ومعرفة متى يمكننا التكلم على وحدة طويلة الأمد. السؤال وثيق الصلة بالموضوع إلى درجة أنه كان ليرسم علامات الرضا على وجوه أجدادنا. هل نصدق فريديريك بيبيدي عندما يقول إن «الحب يدوم ثلاث سنوات»؟ على هذا، لا يجب الإكثار من مشاريع الارتباط! ألا يبقى سوى الرماد حين تنخفت نار الجمر؟ إن كان الجواب نعم، فعلى أي حب نتكلم؟ أيضاً وأيضاً، نكرر السؤال: ما معنى كلمة «دام»؟ أشغل بيرغسون ذهنه طويلاً بهذا السؤال. وعوضاً عن الإجابة مباشرة، أطلق عِبرة، منطقية وشاعرية في الوقت عينه، وهي تنطبق تماماً على الحب البشري، وهي التالية: «إن أردتُ أن أشرب ماءً مع سكر، فعلي الانتظار إلى أن يذوب السكر». بمعنى آخر، لو أراد الشريكان أن يتذوقا حلاوة الحب الدائم، فعلى كل منهما أن يوفر لنفسه الوسائل المناسبة كي يتذوق هذه العذوبة. ويكمن أحد المعطيات الأساسية في هذا الشأن في الصبر، لا على حساب الرغبة، بل أن يكون ممزوجاً معها. فالفرق بين القصة والمغامرة شاسع. يبدو أن سبع سنين من الزواج مدة صادمة، أو قمة الهرم، فينشأ الخوف من أن تزعزع زلازل وكوارث ما، هذه العلاقة. هذا على الأقل ما يمكن استنتاجه من الإحصاءات. وبالتالي، لا تساوي فترة الحب الذي نعيشه أمد حياتنا. بكم سنة من الحب يحق لنا أن نأمل؟ ثلاث أو خمس عشرة سنة أو عشرين أو سبعين عاماً؟ تبدو لنا هذه السنون كأنها إدانة (لا ندري عن أي جريمة)، لا وعوداً بالحرية، ولا عهوداً نود أن نفي بها.

وبرغم ذلك، لا نختار الشريك على أنه سلعة جيدة النوعية. نحن لا نقبل أن نحدد السعر عبر التفكير في المضمون فقط، وفي أن السلعة لن تدوم سوى لبعض الوقت. وبدلاً من أن ننسج رابطاً نجهل مدى متانته، خير لنا أن نكتفي في البداية بأن الشريك موجود. في هذا الصدد، نذكر فلسفتين متعارضتين، هما فلسفة الفورية وفلسفة إعادة الثقة. وتعتبر فلسفة إعادة الثقة ركيزة نظامنا الاقتصادي بأجمعه: لا ثقة، إذاً، لا استثمار! عندما تضطرب البورصة، ينخفض مستوى المعيشة. وغريب أن هذه القاعدة تبدو غائبة، إلى درجة أنها أمست حلم استقرار، بل أصبحت استيهاماً. ومجرد أن نأمل استمرارية أعجوبة اللحظات الأولى من اللقاء الحقيقي، هو وسيلة بحد ذاتها نحرص على دوامها. في النهاية، ماذا يقدم إلينا الحب الذي يدوم؟ ألا تشكل حالات الحب القصيرة مصدر بهجة أكبر؟ يكمن التناقض القائم في عصرنا هذا في الرغبة الصارخة في اللقاء، ورفض تأسيس حياة زوجية. إننا اليوم، أكثر من ذي قبل، متطلّبون جداً في علاقتنا مع الآخر. فنحن نود، أكثر من فكرة الاستمرارية في العلاقة، أن نظل نحس بالمتعة. وبحسب فلافيا مازلين سالفي: «نحن نبحث عن الأمان والإثارة، وعن الدوام والتجديد، وعن الشهوانية والرقة، وعن التشابه والاختلاف. نريد كل شيء، والعكس أيضاً»[3]. وإحدى الإشارات التي تبين هذه الرغبة في إنجاح العلاقة، هي اللجوء المتزايد إلى العلاج، إلى درجة أن المعالجين يواجهون نشاطاً زاخراً من هذه الناحية. يقول روبرت نوبرغر: «يبحث الكثيرون عن فرص للخروج معاً من دون الاستخفاف بعلاقتهم»[4]. ونستنتج أن في أعماق تعارضاتنا، ينبعث نور من الألم، هو دليل بحثنا المستمر عن الحب، وعن الهوية، وعن المعرفة، فيصبح شرطاً ضرورياً لوجودنا، وحتى لتوحدنا مع الآخر.

يكمن التعارض كله في هذا الألم. فالرغبة في تمديد شرارة الهوى الأولى بشكل غير طبيعي، بمثابة وهم، فهذه الشرارة تضمحل. وتأتي خيبة الأمل من حقيقة أننا نشاء الحفاظ على صورة «حلم الثنائي المثالي»، أي الحلم الرومانسي، وحلم التوحد والتكامل، حيث يعيش كل من الشريكين من أجل الآخر. في أيامنا هذه، تتمتع المرأة بحرية مستعادة، وتعيد طرح مسألة الـ «نحن» في العلاقة لتفضل فيها نمط الحياة المستقل. فالمرأة، برغبتها في إبراز ذاتيتها والحفاظ عليها، هي التي بلورت فكرة الشريكين. وبالتحديد، سمح تحرّر المرأة لها باكتشاف ما يثبت تفرّدها، فإمكانية إنجاب الأطفال سمة تتمتع بها المرأة فقط، وتملأها طاقة غير معقولة. واعتبرت إليزابيت بادينتر أن الرجل، وإن كان سيّد القوة الاقتصادية، فالمرأة تتمتع اليوم بالقوة الجنسية الحقيقية: منع الحمل، وحق الإجهاض، وحرية اختيار وقت الأمومة... ونتيجة ذلك، نقلت المرأة هذه القوة إلى الحياة بين الشريكين، فأمدت بها مستقبل العلاقة وسيرورتها. وقد اندلعت هذه الثورة بصمت، إذ إن كلاً من الطرفين راح يرتاح أكثر، ويطوّر مهاراته، محترماً حرية الآخر وخياراته. وترتكز العلاقة الجديدة هذه على إعادة توزيع لـ «الصلاحيات»، بحيث لا تسيء المرأة استعمال امتيازاتها، أي أنها لا تفرض قواعد جنسية جديدة، بل تنقل الطاقة الأساسية التي تميزها. وفي هذا السياق، يميل الشريكان إلى الارتقاء إلى مستوى الرغبة المشتركة في السعادة معاً، شرط تحقيق الذات في الوقت عينه. من هذا المنطلق، يستمر الشريكان معاً بفضل علاقة وتبادلات مثمرة، يحافظ كل منهما فيها على حصته من الغموض. من جهة أخرى، نلاحظ أننا خلال أيامنا التي تطول أكثر فأكثر، لا نتخذ مواقف وفق المصالح عينها: في الواقع، لا يكون للزوجين الفتيين سوى القليل من الخبرة والتجارب وخيبات

الأمل، والكثير من الرغبات والأوهام في المقابل؛ وبالتالي، كل منهما يبدّل بسهولة الشريك، ما إن يقتنع بتغيير حياته. لكنهما غالباً ما ينخدعان. فهما ينقلان المشاكل نفسها عبر تغيير الشريك، لتعذرهما عن إيجاد حلول للضغوطات والتناقضات والتوترات التي كانا يعيشانها. ومع مرور السنين، تتغير الأمور. فالطباع تنضج، كذلك الشخصية. أما الخبرة فتعلمنا على الأقل أننا بحاجة إلى الكثير من القوة والطاقة للانطلاق مجدداً من نقطة البداية.

يحلّ الشريكان المفعمان بالطاقة الخلافات من دون الانتظار أن يُرهَق أحدهما من فكرة ضرورة تسوية الأمور، إلى درجة تفضيل فسخ العلاقة. هو لا يبدد الطاقة التي يزودها به الآخر، فهو يعي وجود هذه الطاقة ويبعثها مجدداً بنفسه. خلاصة الأمر، تسير الطاقة بحرية. وكلما سارت أكثر، ازدادت. يمكننا تشبيه هذه الطاقة بحاجة ما، وشهية ما: كلما أكلنا، زادت رغبتنا في تناول المزيد من الطعام (ليس بالضرورة أي نوع من الطعام!)؛ وكلما مارسنا الحب، زادت رغبتنا في إعادة الكرّة. لسوء الحظ، العكس صحيح أيضاً. بمعنى آخر، كلما أعطينا أقل، تقلّ رغبتنا في العطاء، فنبتعد ونغيب. وفي يوم من الأيام، لا نعود أبداً... إن كان وراء هذا الأمر سر، فهو في تصوّر ما للوقت، وفي حدة ما، وفي قابلية للانفعال لا تنفك تتجدد. من الخارج، يبدو الثنائي كأي ثنائي آخر، بيد أن حياتهما الحميمة والسرية متجددة ومليئة بالمغامرات إلى ما لا نهاية. فالعديدون منهم لا يكتفون بالتعاون، بل يعلّمون بعضهم. فلا تكون محادثتهم ثمرة اجتماع حوارين فرديين، بل حوار حقيقي، لكل فيه حقه. باختصار، يعيش الشريكان المساواة يوماً بيوم، فهما لا يتكاملان بل يتصلان؛ وهما لا يعيشان، بل يتوقعان باستمرار خطر الانفصال الذي لم يحدث بعد. كما أنهما يجهدان كي لا يقعا في خيبة الأمل. وهما لا يفرضان الوفاء على أنه مبدأ صارم؛ وفي النهاية، هما يعيشان طوعاً، وبكامل إرادتيهما، بكل بساطة.

من السهل جداً أن نعطي تحديداً للوفاء بقيمه الحقيقية، لكن كيف لنا أن نرسّخ القيم التي نتشاركها مع الآخر؟ يكمن مفتاح الحل في التفكير مع الآخر في الأمور التي اعتدنا أن نفكر فيها وحدنا. يتعلق الأمر بفهم الفكرة التي يكوّنها الآخر عن الحب، لا الوفاء للفكرة التي نكوّنها بأنفسنا. ومن دون الأخذ والعطاء الدائمين، هذين، لا تتحرك العلاقة وتتضاعف مخاطر عدم الاتفاق والتناسب. في المطلق، ما من أمر يجبر الشريكين اليوم على الاستمرار في رحلة الحياة معاً، والبقاء على العهد رغماً عنهما. أصبح الشريكان محطّ البحث المشترك عن الهوية بامتياز. فيجب أن تدعونا العلاقة بين أي اثنين، إلى مضاعفة قدرة الجاذبية عشرات المرات، وتجديدها وتكييفها على الدوام.

دافع غاستون باشلار عن حق الحلم، على أنه ضرورة. كل شريكين يحلمان بنفسيهما. فهو يعي هشاشة المشاعر وحقيقتها. في الواقع، لا يرغب الحبيبان في البقاء معاً فقط، بل يتطلعان إلى الاستمرار معاً في المستقبل. من يظن أن إتاحة المجال أمام الحلم غير ضروري؟ لا أحد. من هذا المنطلق، يعتبر الحب حقيقة قابلة للتحديد، ومشروعاً قابلاً للإنجاز في آن. وكل من يطمح إلى إنجاح مشروع ما، يدرك أنه سيواجه بطبيعة الحال بعض المشاكل. وفي كل الأحوال، عليه المواجهة والمقاومة من دون زعزعة الثقة بالوصول إلى الهدف. في الواقع، يسمح حلّ المعضلات بطريقة مشتركة لكل من الحبيبين، بأن يتحلى بالقوة ويعطي من قدرته الذاتية شرط أن يدع الآخر يتقدم أيضاً، ويوظف قدرته وذكاءه في إيجاد عامل تماسك مع مرور الوقت، لا عامل إنهاك. ولا يتعلق الأمر بسباق مع الوقت، بل بتقدير للمصاعب ووسائل تخطيها. وبالتالي، يمكن اعتبار هذه القدرة

على تخطي المصاعب بمثابة بحث عن الحرية، وفترة من الفرح يغمرهما تبادل فعال ومتفق عليه. قد يحدث الأسوأ، لكن الأفضل يبقى «نحن».

لست عالمة اجتماعية ولا طبيبة، لكنني عملت مدة خمس عشرة سنة في مجال التدريب على بناء العلاقات الإنسانية. لقد تزوجت منذ ست وعشرين سنة، ولا أرجع إلى الوراء أبداً. عندما تعود بي الذكريات إلى الماضي، لا تصعقني الدهشة، بل أرسم على وجهي ابتسامة، وينبض في داخلي الحنين إلى الحبيبين الشابين اللذين كنّاهما في الماضي، والرفيقين الحاضرين. يخالجني شعور جميل بأنني استفدت من رحلة طويلة لم تصل إلى خط النهاية بعدُ. كانت رحلة عشتها مع رجل لربما لم يكتبه لي القدر. أكان ذلك ضرباً من الحظ؟ بالتأكيد. لم تكن الأمور سهلة، وهذا بديهي؛ لكن عندما أتذكر الماضي أقول: «هذا أفضل!». لقد نجحنا في اقتلاع الأشواك معاً، وفي النهوض من المآزق ليصفو ذهنانا من جديد، ويغمض لنا جفنا الراحة. باختصار، حالات العسر واليسر تتتالى. هي متنوعة إلى درجة أدهشتني. حتى نظرتي إليها كانت تتغير معي. لم أكن أنتظر هذا التنوع، ولا أن يتابع رفيقي الدرب معي من دون كلل أو تعب.

لكل رحلة طريقتها وملذاتها ومشقاتها. وفي كل مرة، علينا أن نمضي قدماً في هذه الدرب معاً. كلما قرأت كتباً عن هذه المسألة، صادقت أزواجاً أكثر، وزادت أسئلتي لهم، وتأكدت من حقيقة واحدة: ما من وصفة سحرية.

خلال بحثي عن سر صمود الأزواج برغم مرور الوقت، اكتشفت أشخاصاً مفعمين بطاقة لا تُستنفَد أبداً، إلى درجة أنهم ينقلونها إلى الغير. لقد قابلت جيداً الأقدار. ليست أسباب كل منا عادةً تلك التي نعتقدها. من خلال مطالعاتي والخبرات التي صادفتها، بدا لي أن تبادل الطاقة بين الشخصين يكفل استقرار العلاقة. هل نعتبر أن العيش معاً لمدة طويلة جداً، انتصار على العدو والعدوان، أم أنه طريقة للاقتناع بضعف الذات وضعف الآخر، والاستفادة من حالة روتينية؟

مهما يكن الأمر، فهذه الحياة أشبه برحلة طويلة محفوفة بالمخاطر. في الواقع، ما الذي يمكننا اعتباره طبيعياً أقل من الحياة بين رجل وامرأة؟ قد يجيب جميع الرجال بأن الأبسط هو العيش مع صديق. سوف نبحث معاً، أنا وأنتم، عن مصدر بحثنا عن الحب المجنون في الأساطير والكتب. هل يكوّن أي شريكين «ناجحين»، فكرةً عن الحب تسمح لهما بالوقوف في وجه العواصف والرياح؟ كتب دجيونو: «الأمر يساوي بالنسبة إلينا أن نستطيع، في حال كانت البحار في مدى أنظارنا، وهطلت الأمطار على مدار الساعة، تحمّلَ المصاعب كافة، وألا نرى سوى العباب يشق طريقه في المياه من كل جانب، وأن نشاء، بشكل خاص، أن نقود، لأن ذلك يؤكد لنا أننا ننبض بالحياة شأن المطر والبحر (...). تُفتح كافة الآفاق ونحن ندخلها؛ نفعل ذلك للهدف الذي كُتب لنا أن نولد من أجله. فنحن نقود للوصول إلى غرض ما»[5].

أود أن أمنح كل واحد فرصة التفكير لبعض الوقت لمراجعة وضعه، ليطرح مسائل أو قضايا ما لم يتناولها من قبل، والتوقف قليلاً للتساؤل عما يربطه بالشريك؛ أي ما يحبه فيه أو ما نسي أن يفصح له عنه، وما يود تغييره في حياته. في الحقيقة، نحن منجرفون في تيار الحياة

اليومية، إلى درجة أننا ننسى منح الآخر بعض الوقت، وأن نعرب له عن أننا نؤمن به. ولو كان البعض خُلقوا ليكونوا معاً، لا يتحمل عدد كبير من الأشخاص العيش وحدهم.

سوف أتخطى التحليل الاجتماعي، بدعوة كل منا إلى استبعاد الارتباطات المستخف بها وحالات الفسخ المبكرة. إنني أحذر أكثر فأكثر النماذج المثالية والنصائح التي تقدمها المجلات. فأنا لا أتردد في رفض الأفكار «المعلّبة». ما يهمني هو معرفة ما يميّز أي شريكين يبقيان على عهد الحب، مفعمين بالطاقة على مدى السنين. هذا النوع من الشريكين، يدرك كيفية المحافظة على نضارة اللحظات الأولى، وتجديد القوة الرهيبة النابعة من الحب الطالع. أنا أؤمن بالتقدم على الصعيد الشخصي. أؤمن بحرية كل واحد في تغيير مهنته وتصرفاته والكون ونمط حياته. أؤمن بإبداعنا وحب الإطلاع فينا وذكائنا وقدرتنا على التكيّف وطرح المسائل مجدداً للبحث فيها. ما من وضع متحجّر، فحيواتنا وفق ما قاله فرانشسكو ألبيروني[6]، «عملية تتغيّر باستمرار». لا شك في أن الجانب الثائر في داخلي يفضّل الخطر على الأمان، والحركة على الخمول. أنا على قناعة مطلقة بأن الشريكين يبقيان في حالة من الحب إن تطوّرا وتحوّلا.

كل علاقة بحاجة، كي تخلق لنفسها قصة تحافظ في داخلها على نوع من الديناميكية، إلى معرفة أي حدّ يمكن خرق هذه الخصوصية التي يحافظ عليها كل من الشريكين؟ لا شك في أن هناك أكثر مما يصرّح به الشريكان: أي البعض من التجارب السرية التي تفصح عنها فقط لغة العاشقين. لكل ثنائي سرّه، وخفاياه الصغيرة... في النهاية، أليس الشخص المختار هو الذي أدخلناه في حياتنا كي يحرّرنا؟ إن كان الوضع كذلك، فقد يستغرق هذا «التحرير» وقتاً.

قبل أن يعيش أي حبيبين معاً، عليهما أن يختبرا تجربة أن يكونا معاً، فيتشابكا الأيدي، ولا يترك أحدهما الآخر. عليهما أن يتعلما المجازفات والمخاطر التي يتخللها هذا الارتباط المتبادَل. لكن، هل يدركان أنهما في رحلة يجهلان مصيرها؟ بسرعة كبيرة، يعيان أن عليهما تغيير طريقة عيشهما، فتُفرض عليهما التزامات جديدة، يحوّلها نظر الآخر إلى اختبار تعليمي. أن يمضيا قدماً في رحلة الزمن، هو أن يتقبلا تخطي خيبات الأمل المحتملة التي من شأنها أن تخفف من حدة لحظات السعادة الصغيرة، وأن يتجها صوب أرض سرية تكشف لهما عن ذاتيهما. من الضروري تبديد الغيوم السوداء لما يبدر من أي سوء تفاهم على الفور وتسوية الخلافات... لكلّ منا تجاربه في الحياة، أكانت كثيرة أم قليلة؛ لكلّ منا قصة وتربية وذكريات وآمال... لكن كل حبيب يستطيع أن ينسج أحلام الآخر.

بعد أن يكون الحبيبان قد عاشا في «جنة عدن» خاصة؛ تلك الجنة المعبّرة عن الانفعالات الأولى، يتسلّقان معاً التلال الصغيرة، ويرغبان في الوصول إلى ما هو أبعد من ذلك. عندما تدق ساعة الخيبات الأولى، يتساءل كل منهما (من دون أن يتشارك في تساؤلاته مع الآخر)، إن كان سيسلك درباً أخرى، أم سيتحلى بشجاعة وطاقة كافيتين كي يمضي قدماً في الدرب عينها. هل سيتمعنان في تحديد وضعهما؟ هل ستكون المشاكل التي يواجهانها متوسطة الصعوبة، أم كبيرة؟ هل سيتحديان المصاعب ويتقبلان خطر السقوط، مع العلم بأن ما إن يسقط أحدهما حتى يسقط الآخر معه؟

هل يبقيان ملتحمين لامباليين بالعالم من حولهما؟ هل يذهب كل في اتجاه ليكتشف ما قد يواجهه من تجارب؟ هل سيتحلى كل منهما بالصبر لانتظار الآخر في حال تأخر؟ هل سيجدان الملاذ المناسب، أم سيؤخذان في تيار السراب؟ هل سيعلمان كيف يسعدان، ويندهشان، ويحبان بعضهما «أكثر مما ينبغي»، أم يتبادلان نظرات من الضجر والكلل؟

ألا ترعبنا مجرد فكرة أن هذه الرحلة قد تنتهي في يوم من الأيام؟

يتوجه هذا الكتاب إلى كل شخص تساوره الشكوك وتشوّش ذهنه الأسئلة أو يشعر بالألم عند التفكير في شريكه؛ وإلى كل شخص حائر ما بين الاستمرار في العلاقة أو الانفصال عن الحبيب؛ وإلى كل شخص يرغب في إنجاح علاقته؛ وإلى ثنائي يعيش تحت سقف واحد من دون الاكتفاء بذلك؛ وإلى كل شخص اختار العيش مع شخص من الجنس عينه؛ وكل والدين؛ وكل من تبنى طفلاً أو أعاد تأسيس عائلة؛ وأخيراً إلى كل من يود أن يطيل حبه للآخر أكثر من سنيّ عمره.

الفصل الأول

رحلة حياتك: مع شريك أو وحيداً؟

لمَ هذه الرغبة في تشكيل ثنائي؟ ألا تكون حياتنا أفضل إن عشنا وحيدين؟ تقول العالمة الاجتماعية باتريسيا دي لاهي: «لم نُخلق لنرغم أنفسنا على فعل أي شيء». وبرغم ذلك، نشعر بحاجة إلى الانخراط في المجتمع من خلال خلية صغيرة جداً، وواضحة وسهلة، كما لو كان الفرد لا يكفي ذاته. فالعيش مع شريك أو من دون شريك، يدخل في إطار مفهومين عن الحب والثنائي، متعارضين جوهرياً. بالنسبة إلى الذين يطمحون إلى حرية شخصية حصرية، يمثّل العيش مع شريك عائقاً في وجه السعادة. وإذا أردنا تحليل هذا المنطق إلى أبعد حد، فهو يفترض أن يكون الحب خديعة، وحتى مزيجاً من التوافقية الكيميائية، واتصالاً في الغرائز، بحيث يكون الذكر هو الخاتل. أما بالنسبة إلى الذين يُبدون في البداية رغبة في مشاركة حياتهم مع شخص آخر، فيكون لفكرة إنجاح الحياة الثنائية معنى، وتكون هذه الفكرة ضرباً من المثالية. هناك فلسفتان: الأولى تقول إن الإنسان قد وُلد ليعيش وحيداً. أما الثانية فتقول، كما ورد، في آية من الإنجيل، «ليس جيداً أن يكون آدم وحده».

الحرية، الحرية العزيزة على القلب العيش مع شريك أمر ثقافي، تعدد الشركاء أمر طبيعي!

يقول فيليب برونو، وهو خبير في علم الإنسان وطبيب نفساني، إن العيش مع شريك لا يتّسم بشيء من الطبيعية، وإن الثنائي مفهوم ثقافي، والإنسان متعدد الشركاء[7]. فتعدد الشركاء هو النظام الغالب لدى الثدييات. الحشرات تمارس الحب الجماعي على شكل حركات في أوقات محددة ورقصات زيجية محفزة. أما حيوانات الشمبانزي، فتنكب على تبادل الشركاء جنسياً؛ وقرود البونوبو، التي تحوي 99% من الصبغيات التي تتألف منها أجسامنا، تتجامع عدة مرات في اليوم مع من تشاء، لتخفف من وطأة الضغط عليها أحياناً. وحيدو الزوج نادرو الوجود في العالم الحيواني، ما عدا الخواتل والسّنّوريات والجوارح. وبرغم ذلك، فالوفاء والحنان المتبادل موجودان لدى العديد من أنواع الطيور والقنافذ واليحامر والذئاب... وتجري عادة تعدد الزوجات (رجل واحد، عدة نساء) في أنحاء قارة أفريقيا السمراء، وتُعتبر نساء الحريم مصدر قوة. وتزداد هذه الممارسة التي تجعلنا أشبه

بالغورلّا، أكثر فأكثر في أيامنا هذه، بشكل مضاعف مرتين أو ثلاثاً، كما تميل ظاهرة تعدد الأزواج (امرأة واحدة، رجلين أو ثلاثة) إلى الازدياد. فهل يرجع سبب ميلنا الطبيعي إلى تعدد الشركاء إلى الاستعجال؟ قد يؤكد الإقرار بالفشل في الحياة الزوجية وتعدد الشركاء، ذلك. فقد تبيّن أن ظاهرة تعدد الشركاء تطورت بشكل لامتساوٍ، لأن الرجال، خلال حيواتهم، يحصلون على ضعف الشركاء الذين تحصل عليهم المرأة. فيكون تعدد الشركاء بذلك وقفاً على الرجال، كما يبرهن سيرج شوميه، الذي يتخذ موقفاً ضد الحب الانصهاري بين الشريكين، حيث يعيش كل منهما مع نصفه الآخر في محيط مغلق ممل، «يسبّحان» الحب الانصهاري. ويقترح الكاتب «مفهوما جديداً: تعدد الشركاء التسلسلي!»[8]، تقضي فكرته بتقديم شخص ثالث - أو بالأحرى أشخاص - لإدخاله في الساحة الزوجية. هذه الظلال من الفروق مع فكرة تعدد الشركاء، كما هي في أفريقيا، اقتراح ذكي: «فالأمر متعلق بفترات من الغرام لا بتسلسل من العلاقات الجنسية فحسب». ومن جهة أخرى، ثمة شرط أساسي في هذه العلاقات، هو وجود صداقة ما بين الرجلين اللذين يتشاركان النساء. لكن، هل تكون هؤلاء النساء راضيات بالفعل؟ سوف نرى ذلك...

من الزواج المدبَّر إلى الفردانية

كان الزواج لزمن طويل أداة سلطة، و«شأناً ذكورياً»، حيث كان المهر والمصالح والمحافظة على التراث ومشروع الزواج، في المرتبة الأولى. ويفسر لنا جاك دي سان فيكتور[9]، أصول العائلة التي بناها في البداية... الرجال: لم تظهر المسائل التي تتمحور حول التفكير في العلاقات فعلياً بين ثنائي، إلا منذ بداية القرن الثاني قبل الميلاد، بفضل الرواقيّين. ففي العصور القديمة، كنا نتكلم على قبيلة، وأشخاص، وعائلة: في الحضارات الغربية القديمة، كان الزواج الأحادي مهيمناً، كما في أثينا أو روما، بيد أن الرجل كان يتصرف على هواه من جهة أخرى. لم يكن الزنى ممنوعاً، باستثناء الحالات الخاصة التي تقحم الوراثة العائلية. من هنا، كانت جنسانية المرأة المتزوجة محدودة جداً. وعند الرومان، كان يتحتم على المرأة أن تبقى وفية، بيد أن الرجل كان يسيء التصرف مع زوجته كما لو كانت مستعبَدة. وكان يونانيو القرن الخامس قبل الميلاد، يفرضون على المرأة العيش في الحريم، في إطار مجتمع من التمييز العنصري، دافع عنه أرسطو، بحيث كان يعتبر المرأة «خطأً من الطبيعة». والأسوأ من ذلك، ما كان يقوله الشاعر هيزوود، واعتباره أن: «النساء عنصر ملعون، ومصيبة حلّت بين الرجال الفانين». أما في ما يتعلق بالرجل الذي يتزوج، فقد قال إنه: «سوف يحمل في داخله كآبة لن تفارق روحه ولا قلبه، ولن يقوى أي علاج على مداواتها»[10]. فقد كان زينوفون ثم أفلاطون، أول من أشاد بالسعادة بين أي ثنائي، من دون أي تحفّظ. وعندما انتشرت المسيحية، فقد استُوحيت القيم الأخلاقية التي نادت بها من التصورات «الذكورية» التي نادى بها أرسطو، ومن الطهرية الرومانية. وعلى مدى قرون، لم يكن لرأي الفتاة أي قيمة أو اعتبار عند اختيار الزوج، أما بعض النساء فكان مصيرهن الترهّب. ففي هذه العلاقات المبنية من دون أساس الحب، يعيش كل من الشريكين كما لو أنه حالة مستقلة عاطفياً. كما

أن نابليون، عدو المرأة اللدود، لم يمنح النساء أي صلاحية قانونية أو مالية في القانون المدني. ولم تحصل المرأة على حق التصويت إلا في العام 1946. وفي العام 1970 مُنحت حق فتح حساب مصرفي من دون إذن زوجها. وبدا الزواج على مر التاريخ، ترتيباً بين عائلتين في ما يصب في مصلحة إرثهما. وقد كان الحب في هذه المؤسسة الأبوية، أقل شأناً من الأصل. فحرية اختيار الشريك ظاهرة حديثة. ألم تكن المرأة في تلك العصور تتزوج بـ «شاب موعود به»، غالباً ما يكون من محيطها، يقدمه الأهل متذرّعين «بالنوايا الحميدة»؟ وفي هذا الوضع، حيث كان الطلاق لا يزال محرّماً، أو موضوعاً لا جدل فيه، كان الحب أحياناً يصبح حليف المتزوجين. كانت العلاقات تدوم حتماً. في الواقع، لا الآداب ولا القانون المشيد بمزايا الزواج، كانت تسمح لهما بالعيش على نحو مغاير. وفي هذا السياق، يمكننا أن نستشهد بكتاب Le paysan parvenu لماريفو، أو بروايات دكلو للتكلم على الأزواج الذين يعون لانفساخية الزواج، والذين يسمح لهم انتماؤهم إلى الطبقة الأرستقراطية بالعيش «بحرية». وبهذه الطريقة بُني المسكن المولوي: جناح للسيدة؛ جناح للسيد؛ جسد واحد. يجدر هنا، إيراد روايتين تبينان تطوّر العقليات الرهيب. قدّم مركيز أسكوت زوجته إلى ملك إنكلترا جورج الثالث قائلاً: «مركيزة أسكوت، عشيقة اللورد بيرون السابقة». لم يُذهل صاحب الجلالة البتة. لنتخيل تلك اللحظة: فمجرد التفكير فيها اليوم غير معقول. يُظهر لنا هذا المثل، كم أن الوفاء بين المتزوجين كان أمراً غير ضروري! ويُحكى أن الملكة لطالما واست زوجها اليائس، لويس الخامس عشر، عندما توفيت عشيقته الرسمية، مركيزة بومبادور. وراح يردد، وهو يتأمل النعش يسير تحت زخات المطر: «لن تحظى المركيزة بنهاية سعيدة». لقد عجّ القرن الثامن عشر في أوروبا بحكايات مماثلة. فالأزواج يتنادمون مع عشاق زوجاتهم، وقد يكون الزوج أشهر مخدوع في فرنسا من دون أن يشعر بالعيب... من البديهي أن يحظى الزواج بكافة مؤهلات الدوام، إن لم تُفرض فكرة الوفاء على الشريكين. ففي العديد من البلدان، لا يزال الوالدان يختاران الشريك لسوء الحظ! فالزيجات المدبّرة «عملة رائجة» في معظم البلدان الإسلامية.

ظهر إحساس الحب أولاً خارج إطار العلاقة الزوجية، بعد أن شكّل هذا الشعور خطراً على النظام الاجتماعي لزمن طويل. وانطلاقاً من رواج هذه الظاهرة، راحت رغبة التوفيق بين الزواج والحب تبرز. وبرغم ذلك، ولمرحلة طويلة من الوقت، خصوصاً في ظل عصر البرجوازية وخلال القرن التاسع عشر، رُبط الحب بفكرة امتلاك الشريك، ما ولّد فكرة «الواجب الزوجي» الكارثي. تساءل بالزاك، في كتاب Physiologie du mariage، عن الشهوانية بين الشريكين. فمن خلال «مبدأ السرير»، يصف بالزاك الضغوطات التي يحوم حولها طيف الزنى. في كتاب Une chambre à soi، جعلت فيرجينيا وولف من نفسها ناطقة باسم النساء اللواتي يطالبن بالاستقلال الذاتي، وقد يكون ذلك بالنوم في غرفة منفردة، وبعيداً عن جسد زوجها! كانت هذه بداية ثورة جنسية طويلة قلبت النمط الزوجي التقليدي رأساً على عقب، وتسارعت بعد الطفرة النفطية الأولى في السبعينيات من خلال انخفاض عدد الزيجات.

قد يسمح تغيير الشريك بتجنب خيبات الأمل عند العيش مع شريك ما. يتساءل جاك دي سان فيكتور بسخرية، إن كانت أزمة العلاقة بين أي ثنائي، ترتبط أكثر فأكثر بأزمة نمط عيشنا: نتمنى بشكل عام أن نعيش مع شريك. لكن، ماذا لو أخذنا في الاعتبار التطورات في العواصم الكبرى، والنقص في الشقق الذي يزيد أكثر فأكثر، والرغبة الجامحة في التغيير. وماذا لو عدنا وتساءلنا عن نتائج الحياة بين أي ثنائي! يجب إيلاء هذه الأمور غير المعنوية أهمية، حتى ولو لم تكن قاطعة، كأي عناصر خارجية أخرى. فخلال الأزمات الاقتصادية، تُعتبر العائلة حماية اجتماعية فعالة: فأول من يختبر الفقر هم العازبون. وفي المجتمعات الغربية، حيث الدولة لا تزال تؤمّن الحماية، تُعتبر العائلة أقل ضرورة، لكن في الأزمات الشديدة، تشكل العائلة مصدر قوة. لكن وجود خطر حقيقي ضروري لذلك. لقد كانت الحياة الزوجية في أيام الحرب، أكثر استقراراً. أما في أيامنا هذه، حتى ولو كانت الحياة صعبة، فإننا نفضل الانفصال ما إن تسوء الأحوال، وأن نعيش وحدنا بدلاً من أن نعيش حياة زوجية قد نحس مع الوقت بأنها لا تفرق شيئاً عن «الجحيم». وإن اتجهت العائلة نحو فترات أكثر صعوبة، فقد تحظى أيضاً بأيام سعيدة أمامها. وقد يكون الأمر مختلفاً إن تابعنا العيش بعيداً عن «مؤسسة الزواج»!.

الإشادة بالعزوبية

إن حياة العزوبية، التي لطالما بوركت، قد مُجدت في الدين المسيحي من خلال الكهّان. وورد في إحدى رسائل القديس بولس: «يَحسُنُ بِالرَّجُلِ أَن لا يَمَسَّ المَرأة». كان، لزمن طويل، من العيب أن تبقى المرأة عانساً؛ أما الرجل الذي يبقى عازباً فكان يُنعت بالـ «منفّر». وفي أوروبا حالياً، وفي الضواحي بالتحديد، لا ينفك عدد العازبين والعائلات الأحادية الأبوين يزداد. لقد بلغ عدد العائلات الأحادية 1,5 مليون تقريباً، وتمثّل بذلك 17% من العائلات[11]. هذا، ويزداد عدد النساء المجبرات على تربية أولادهن وحدهنّ، ويعود ذلك أحياناً إلى فسخ العلاقة الزوجية. لقد «ساهمت اندفاعة الفردانية في ترسيخ فكرة العائلة الأحادية الأبوين ضمن عادات المجتمع»[12]. وحتى لو وجدنا بين العازبين كثيرين أُكرهوا على العيش وحيدين كونهم لم يلتقوا بالشخص المناسب، فحياة العزوبية تبقى بنسبة كبيرة حالة أرادها العازب. فأفضل لنا أن نعيش وحيدين! فبذلك نحافظ على حريتنا ونعيش مغامرات «من دون الخوف من المستقبل». إلا أن ما يُقلق العازبين، هو شبح الخوف من فقدان الاستقلال الذاتي، وتحمل المسؤولية، والتخلي عن أنفسهم، وخشية أن يحل الآخر مكانهم. هم «يفضلون قلق الحب المبهم على قَسَم اليمين وضمانات العقد»[13]. فالحياة مع شريك بمثابة سجن بالنسبة إليهم. وهم، إذ خاب أملهم في بعض الأحيان بسبب الفشل في الحب، يودون أن يبقوا أسياد مصيرهم، فيحموا أنفسهم برفض الارتباط.

لا شك في أن للعيش من دون شريك العديد من الحسنات. فالعازب يعتاد على نمط معيّن من العيش من دون الخضوع لضغوطات أخرى غير التي يخلقها بنفسه. والعازب يحب العيش في محيط من تصوره، ويمكنه زيارة أصدقائه متى يحلو له... يمكن القول إن أصول حياة العازب، تكمن في إدارة مزاجه. أما عدد النساء العاملات اللواتي يفضّلن حياتهن المهنية، فيزداد شيئاً فشيئاً.

فهن متطلبات، ويبحثن عن رجل خالٍ من العيوب، وبالتالي لا يلقين سوى خيبة الظن. في أغلبية الأحيان، تعيش هؤلاء النساء المتحررات فشلاً عاطفياً. فهن يرغبن في اختبار العلاقات العاطفية من دون الاستقرار مع رجل. وفي حين أن خطوة الزواج اليوم تتأتى من قرار مدروس بتعمّق، فإن ارتفاع حالات الطلاق يتسبب في أثر ردعي. فهل يكون الزواج مجرد شَرَك؟ أما كان أفضل لنا أن نبقى عازبين ونتمتع بالثمار التي نقطفها على طول الدرب؟ فالحب غاية للمتعة واللهو والمبادلة و«الانحرافات الخفيفة» التي يتطرق إليها ويلي باسيني[14].

لا تُحصى الشخصيات الأدبية التي عاشت وحيدة، ومرّت في حالات من الحب والمآسي، وشكّلت مواضيع روائية بامتياز. تتمتع هذه الشخصيات بقاسم مشترك يكمن في هذه الرغبة، أو في وهم انعدام الذاكرة، والعودة إلى أيام المراهقة، والتناسي وتجميع الروابط لاستعادة الوقت الضائع. لنأخذ على سبيل المثال شخصية دون جوان التي تجسّد شخصية زير النساء الفاتن، الذي اعتبر الشهوة وأسر القلوب فنَّ الحياة والمتعة، واستغلال آلاف الفرص المتاحة لإقامة علاقات عاطفية. في كتاب L’amour[15]، يبلور كوستانتين برونر، فكرة أن الحب ينشأ على الدوام من الحاجة واللذة الأنانية. أما مونتيرلان، في بحثه المعنون، Sur les femmes، فيدافع عن الفرضية التي تعتبر البحث عن المتع أفضل ما يمكن فعله. وهو يُدين الوفاء لسبب بسيط، فيقول: لسنا مجبرين على أن نقضي حيواتنا في أكل التفاح لمجرد أن طعمه يطيب لنا، فـ «أن نعرف أن الملذات متوفرة، وألا نشاء إلا التمتع بواحدة فقط، ليس بالأمر الطبيعي ولا المعقول»؛ و«الرجل لا يرغب في المرأة لأنه يجدها جميلة، بل يرغب في أن تكون جميلة ليعلّل رغبته»؛ و«الثنائي الخالد يخرج من مأساة ليستغرق في الخبل»[16]. وفي كتاب Philosophie de l’amour، كتب جورج سيميل: «القول إن ثمة إحساساً بالحب ينبع من العلاقة الجنسية، هو بالتأكيد نتيجة لشعور مُغال في النبل، ولجهد مثالي بغية منح مكامن اللذة فينا شرفاً مضاعفاً، لكن في ذلك ضلالاً كاملاً. لا تنبع الحياة من الحب، بل العكس. لذلك، ما إن يستقل الحب حتى يصبح عاقراً. هو عاجز عن بلوغ الحياة بنفسه، بل يجب أن تكون الحياة متغلغلة فيه دفعة واحدة»[17]. كان المفهوم الذي يوليه بروست للحب شبه مرضٍ، إذ كان يعتبر أن المحبوب وهمٌ تخلقه الحاجة والمخيلة لدى الإنسانة، وهو يعكس للإنسان صورته الشخصية. يقول بول فاليري: «الحب وسيلة كي يحب الإنسان ذاته تماماً»[18]. ويرفض جان بول سارتر الارتباط، فذلك بمثابة قيد لحرية الحب. فهو لم يتزوج بسيمون دي بوفوار، فعاشا كثنائي «انقسامي» مع حرية جنسية كاملة. وفي كتاب L’invitée، تروي سيمون دي بوفوار، قصة علاقة دامت ثلاث سنين مع جاك لوران بوست. وهي لا تُخفي المنافسات والغيرة في هذا الحب السري. في القصص الأدبية، لا تكون العلاقة الثلاثية على وفاق إلا في بعض الحالات الاستثنائية، كما في رواية إليزابيت باريليه، Un couple modèle، حيث تقدم البطلة لفلاد «عشيقة على طبق من فضة، قبل أن يمارس الحب معها. وضمن مجموعة الباحثين بنهم عن المتعة الجنسية، يقول فريديريك بيغبيدير عن نفسه في L’égoïste romantique:، «كيف لي أن أعيش قصة حب في

عالم من الحرية والتجارب؟ (...) أنا ابن لوالدين مطلقين، وبالتالي عليّ بالتأكيد أن أولي الزواج أهمية كبيرة»[19].

الرجل والمرأة: اتجاهات جديدة

من بين الأسباب التي تفسر أن الزواج التقليدي لم يعد معتمداً لدى الرجال والنساء، هناك الاتجاهات الجديدة، أي عمل المرأة. فاتجاه المرأة إلى الانخراط أكثر فأكثر في الحياة المهنية، غيّر توزيع الأدوار. فالمرأة أصبحت عنصراً منتجاً في المجتمع، تحصل على الشهادات وتعمل بجهد وتطمح إلى منافسة الرجل، وتشغل المناصب كافة التي تتطلب مسؤولية في مختلف المجالات عندما تحظى بفرصة الوصول إليها. فالمستخدمون يتوددون إلى النساء لما يبدر منهن من جدية ومستوى عالٍ من الكفاءة، وقدرة على نسج العلاقات، خصوصاً عندما يكنّ عازبات. فهنّ معروفات بأدائهن العالي، ولا شيء يردعهن من اختيار مهنة للمستقبل. وبما أن العمل يملأ وقت المرأة أحياناً، يتجه الشريك أكثر فأكثر نحو الاعتناء بالأولاد والاهتمام بالشؤون المنزلية. فعندما تعمل المرأة اثنتي عشرة ساعة في اليوم، وتسافر وتدخل مجال الأعمال، قد ينتهي بها الأمر في الانجذاب إلى أي من زملائها...

سمح تطوّر المجتمع للمرأة بأن تثبت وجودها أكثر على مهل. فهي الآن تقوم بتنازلات أقل. بمعنى آخر، تحصل المرأة اليوم على الطلاق سريعاً، وتعيش أحياناً قصصاً عديدة خلال حياتها المضطربة. نذكر تغييراً كبيراً آخر، هو انتهاء المقولبات الجنسية وانقلاب الأدوار. فالرجال يتمتعون بأنوثة أكبر، والعكس صحيح بالنسبة إلى النساء. يكفي أن نتصفح Vogue Hommes, Têtu، أو أن نشاهد عرض أزياء لجون غاليانو أو جان بول غوتييه، لنكتشف وجه الرجل الجديد، أو على أي حال: الوجه الذي يحلم به مصممو الأزياء. نرى الرجل اليوم في دعايات مستحضرات التجميل ونوادي اللياقة البدنية، أكثر نرجسية، وأكثر جاذبية وحساسية وهشاشة. أما في ما يتعلق بالمرأة، فهي تهتم لأولادها، وتتحمل مسؤوليتهم وتربيهم، وتختار عشاقها وتتركهم. الصورة غريبة! هل أصبح الرجل الذكوري العنيف والذكوري والحازم والكامل وذو القلب المنفتح، نادراً، وقيد الانقراض؟ تترك المرأة المحبّة والحنونة والعاشقة منذ الولادة، والمتمتعة بحس الأمومة، والباحثة عن الثقة والمودة والأمان، مكانها لجيل جديد من النساء الشابات المتحررات، والأكثر حرية في مشاعرهن وأجسادهن ومصيرهن، والذكيات والرياضيات والمغويات. وهن، إذ يُصد من بالرجال الخاملين والمتقلّبين والخانعين والباحثين عن «الرقة»، يقلقن بشأن عدم الالتقاء برجل حقيقي. وقد كتب كلود ساروت: «خلت الدنيا من الرجال». فالرجل والمرأة، يتقابلان في وضعيهما كعازبين، ويسلكان أحياناً جزءاً من الدرب معاً، بيد أنهما يشكلان أكثر فأكثر كيانين منفصلين، لكل منهما رموزه ولغته وسلوكه. تنحصر اللقاءات التي يجب أن تسهّلها هذه التحوّلات، بالزمالة والصداقة والمغامرات العابرة، حيث يبحث كل واحد بيأس عن «الشخص الكامل المواصفات». وفي سياق هذه الخنثية المعمّمة، هل يمكن أن يستمر «هذا التشوّش بين الجنسين»[20]، وهذه الشهوانية المتّسمة بالغموض؟ فلكثرة المماثلة بالإخوة والأخوات، والأمهات والأبناء، يفقد هؤلاء الشركاء المخنثون

بالطبع من ناحية الجاذبية والذكورة، ما ربحته النساء من جهة الحرية الجنسية. هن يتجرأن ويخترن ويسيطرن ويفسخن كما يحلو لهن، لكن هل يدركن كيف يُطلن أمد الحب ويتعلمن كيف يتحلين بالصبر والتضحية، وهما كلمتان مباركتان ونادرتان في أيامنا هذه؟ بالتأكيد، من الأفضل أن يكون كل واحد وحده، من دون منافسة أو ضغوطات أو ارتباط! ويبقى السؤال التالي موضوعاً راهناً في هذه الأيام: هل للثنائي أي مستقبل؟

هذه التغيّرات إيجابية أيضاً لأنها تسمح لأي شريكين بخلق حياة جنسية جديدة مجردة من الأصول الذكورية، من «النشوة (...) المكرّرة بطريقة آلية»[21]، لحساب الحنان والإغواء. يقول سيرج شوميه الذي يفرح لـ «التبادل في الأدوار»، الذي يؤدي إلى أنماط حياة أكثر استقلالاً، بحيث «لا يكون الفرد ثابتاً على الدوام على هوية، بل يستطيع تغييرها واللعب بها (...): «ليس الإنجاب قصد الاتحاد، بل اتصال الحب والشهوانية هو المهم»[22]. أليست العزوبية الاختيارية، التي تتطور في المجتمعات المعاصرة، إشارة إلى هذه البداوة المعاصرة؟[23]». الأكيد في الأمر، أننا، على مر السنين، نبحث عن الهوية، وعن دوام العلاقة، عندما يعي الشريكان هذه التعريفات الجديدة، وهذه التحولات الأبدية.

يمكننا أيضاً أن نتساءل حول أسباب رفض الارتباط لدى الشبان. فهم، عندما يخيب ظنهم بسبب النماذج التي يعيشونها مع آبائهم وأمهاتهم، لا يؤمنون بالعلاقة المعمّرة، فيفضلون العلاقات القصيرة الأمد. لا شك في أن لبساً ما يخيّم بين الحياة الجنسية والمشاعر. ألا يكون في هذه الخشية من العيش مع شريك، خوف أكبر وخيبة أمل أكبر من الاعتقادات الراسخة الحقيقية؟ حتى أن العازب الذي يعيش حياته كما يشتهي، ومن دون ضوابط، يبوح في النهاية بأنه لم يجد الجوهرة النادرة في حياته. كما أن المرأة، عند بلوغها سن الأربعين، فإنها تشعر بنقص في حياتها، وعاطفتها، مهما تكن جذابة، عندما تعي أنها لم ترزق بطفل.

بشكل عام، يمكننا الجزم أن المجتمع الاستهلاكي والدعم الدعائي له، ولّدا هذه «الأنواع» من الرجل والمرأة المثاليين اللذين لا يمكننا إيجادهما في الحقيقة. فقوة الجذب التي تخلقها هذه الصور مدمّرة للمراهقين (الذين يحاولون من دون جدوى التمثّل في هذه الصور) والشريكين معاً. فاللجوء إلى المخيلة عند العلاقات العاطفية، يقتل الرغبة. يقول سيرج شوميه في هذا الصدد: «كلما أعجبنا أكثر بأجساد وأجناس، نلمسها أقلّ (...). ما لا نعشه ونحن في حالة حب، نتصوره في مخيّلتنا (...). تسمح لنا الصورة الشهوانية بالحفاظ على رغبة غير مشبعة. ما كان المجتمع الاستهلاكي ليجد حجة دعائية أفضل من إضفاء الطابع الشهواني على السلع لزيادة الطلب عليها. خلاصة الأمر، هي تخدعنا وتستبعد جنسنا وتدفعنا إلى الاستهلاك. وبالتالي، أصبحت السلع الجيدة آخر ما يطلبه المستهلك!

الزنى عادة قديمة جداً، واليوم، لا يمكن أحداً أن يقسم على البقاء وفياً طوال حياته. وبرغم ذلك، من المهم أن نبتعد عن مفهوم للحب يقول بتعددية الشركاء والذكورية التامة للعودة إلى أساس الزواج الأحادي.

وُلدنا لنكون معاً:

من الزواج عن حب إلى الوحدات الارتباطية

ترتكز العديد من الحضارات على أساطير، شأن قصة آدم وحواء، التي ترمز إلى «الوحدة الملقاة». يعلّل الكتاب المقدس وجود حواء - إذ «ليس جيداً أن يكون آدم وحده» - لأن آدم بحاجة إلى «معين نظيره». تأتي فكرة أن الرجل والمرأة وُلدا للعيش معاً من التقليد الأفلاطوني - حيث الحب وحدة نصفين غير كاملين -، وأيضاً من الإرث المسيحي والإنساني، الذي يعتبر أن الزوجين يشكلان جسداً واحداً. لقد ألغت المسيحية النموذج القديم الذي كان يُعتبر غير منصف وغير عادل. إن ما بشر به السيد المسيح يعكس الحب والعدالة، بعكس ما جاء في المجتمع الوثني العنيف والقمعي بالنسبة إلى المرأة. فقد قال المسيح: «أنتم متساوون جميعاً أمام اللّه»، وأعطى المرأة حقوق الرجل نفسها. إن كان الدين المسيحي، قد حكم في البداية، بالهلاك الأبدي على من يزني من الجنسين - (قال القديس بولس: «فإذا لم يُطيقوا العَفاف فلْيَتَزَوَّجوا») - كان الرهبان أول من طوّر نظريات الحب. من حب الرب، ننتقل إلى حب القريب، الذي يُعتبر تمجيداً للغموض، ودعوة كي نجد في دواخلنا جانباً من الألوهية. في كتاب L'amour humain، ورد على لسان غيتون في ما يتعلق بالنية التي تسكن قلوبنا عندما نحب: «مجرد أن الحب موجه إلى جسم تسكنه الروح، أو بالأحرى روح قد أصبحت شاعرية، فهو بالتالي يصطحب معه باقة من الفرح والألم، فيكون من الصعب تشارك هذا المجهود لكسر قيود الوحدة والاتحاد، وتذوق هذه اللذة الحساسة، وهذه الحاجة إلى فيض العواطف، وهذا الحب الذي يرتهن الجسد والروح والنفس والحرية التي توفق بينها (...). الشخص المحبوب لا يوجد إلا كي يُتجاوز باستمرار»[24]. ووفق هذه الفلسفة، يدخل الحب في إطار الزمن، على صورة جهد كبير للانفتاح على الآخر، ولإيلاء الانتباه، وللتضحية، بحسب منظور فكري مسيحي يرى الوحدة على صورة الحب الذي يمنحه اللّه إياه. وفي حين أن عادة الزواج لطالما بقيت مرتبطة «بالعائلة والاستمرارية والاستقرار والملاذ وأساس المجتمع»[25]، أصبحت الآن تتجه نحو الحب، وهو أساس نجاح وحدة شريكين متفقين بحرية. وقد حلّل المؤرخ موريس دوماس مراحل التطوّر الطويلة الأمد للرابط الزوجي التي انتهت مع نهاية القرن الثامن عشر بـ «ثورة عاطفية» قد خصّت الوفاء بين الزوجين والسعادة النابعة من قلب العائلة ودور الطفل الرئيسي.

وبفعل التحريض المفارق على الفردانية في حقبة القرن الثامن عشر، فقد الحب المبني على منطق تأثيره. في الواقع، راح التبادل في الحب وتشارك تقلبات القلب، يحددان علاقة فعالية في الرومانسية. فمن كان وراء هذا التغيير الجذري؟ يجيب جاك دي سان فيكتور عن السؤال، جازماً:

جان جاك روسو. قبله، كان الحب، بحسب نظرية علماء اللاهوت، وخصوصاً قصص الغزل، موجوداً خارج إطار الشريكين. هذا لأن المصالح السلالية أو الاقتصادية كانت تهيمن على العلاقات الزوجية. لقد نفعت الثورة التي أطلقها روسو، والتي حازت شعبية كبيرة بفضل كتابيه الرئيسيين L'Emile وLa Nouvelle Héloïse، في تحديد السعادة من خلال اجتماع الشريكين والحب. في هذا الوقت، حدث انقطاع فعلي في كافة أنحاء القارة. وكانت بداية المرحلة الرومانسية. أظن أن هذا التوتر الدائم بين المثالية التي ينادي بها الجميع، والزواج المبني على الحب، والحقيقة التي عشناها في القرن التاسع عشر، يفسّر جزئياً أدب القرن التاسع عشر الروائي...

لم يشمل الحب، بصفته أساساً للزواج، كافة الفئات الاجتماعية في البلدان الغربية، سوى خلال القرن العشرين. فهو تأتّى أولاً من الطبقات الشعبية لأن تواجده فيها كان أسهل، لأن الرهانات كانت أقل! وبرغم ذلك، بدأنا منذ القرن الثامن عشر، نلاحظ هذه الرغبة في لقاء الشريك، تغطي كافة فئات المجتمع. وقد قابلت مدام دي جانليس الزنادقة بالـ «المجموعة العاطفية» التي سادت العام 1789. وبعد هذه الثورة، بدأ العالم يحتفل بعيد الزواج، إذ إن روسو أطلق فكرة الجمع بين السعادة والوحدة المتجانسة. لذلك، راح فن أدبي شامل يتعلق بالطلاق، ككتابات لانغيه بشكل خاص، يتبلور في العام 1792، تماشياً مع إقرار القانون الأول التحرري حول الطلاق، يوم إعلان الجمهورية الأولى. وبسبب التجاوزات، لم يلغِ بونابارت قانون الطلاق، لكنه حدده ببعض الحالات المعيّنة: يُسمح بالطلاق في حال... وبعد إعادة النظام إلى ما كان عليه، حيث أُلغي بموجبه الطلاق العام 1816 (قانون بونالد) ولغاية قانون العام 1884 الذي أقر الطلاق، أُثير الجدل الفعلي حول الحياة الزوجية في الفئة البرجوازية بشكل رئيسي، حيث يبلغ الضغط الاقتصادي والمعنوي أعلى درجاته. وخير مثال على ذلك، حالة الضيف التي وسمت حياة مدام بوفاري، بحسب ما يفسر لنا جاك دي سان فيكتور.

«كان الغرب فقط، وبالتحديد أوروبا، مَن حاول فرض مبدأ الزواج الأحادي، وجعل منه مثالاً»[26]. ليس ذلك كي نتحدى الطبيعة، بل لأننا «نود أن نُرزق بطفل من الشخص الذي يكون في نظرنا الشخص الأفضل، والذي فضلناه على الجميع، والذي نواجه بقية العالم من أجله بكافة قوانا»[27]. يوافق كيركيغار هذا الرأي، ويدافع عن شرعية الزواج الجمالية.

يقول جاك دي سان فيكتور إن الزواج يبقى أحياناً ورقة يانصيب، بالمعنى الساخر الذي اعتبره فورييه: إننا نلتقي أولاً بمن نستطيع! ويكتفي الكثيرون بجائزة الترضية. إن بقي هناك من زيجات مصلحية، فهي محجوبة، لكننا نجد أحياناً زيجات مبنية على المنطق، تحصل في معظم الأحيان بعد الفشل في زواج أو اثنين. في الزواج الثالث، غالباً ما يعيش الشريكان معاً إن كانا يتفقان معاً في المرتبة الأولى. أما الحب فيصبح ثانوياً. وعلى الرغم من كافة العوامل، فقد حافظ الجميع، وخصوصاً محيط الزواج الاقتصادي، على هذه المثالية التي نادى بها روسو، والتي بلغت ذروتها في الخمسينيات مع الثنائي الانصهاري. وثمة عدد كبير من النساء يرغبن في إيجاد نصفهن الآخر، ومشاركته العيش، ولقاء فارس الأحلام ورجل حياتهن الذي يفيض عليهن بحبه. وعلى الرغم من

التحرر في السبعينيات، بقيت أحياناً بين النساء، حتى المستقلات، من يرفضن التنازل عن حلمهن؛ حلم انتظار رجل حياتهن. وقد تبلورت هذه الفكرة مع كتابي Barbe bleue وLa Belle au bois dormant، وأظهرت مثال المرأة المستسلمة؛ المرأة التي تنتظر لقاءً جميلاً وتبادل عواطف عميقة وتجانساً رائعاً. لهذا الحلم ثمن (وقد يكون باهظاً)، لكنها مستعدة للدفع حتى بالدين. وهذا النوع من النساء على استعداد لمسامحة الحبيب على كافة أخطائه، ويتحملن الألم، ويأملن تغيير هذا الرجل، ويقبلن التضحية بأنفسهن في سبيل الحب. وفي نطاق هذا المفهوم المثالي، يعطي الحب معنى للحياة. لكن معظم النساء يجدن صعوبة في إيصال أفكارهن، وإيجاد من يستجيب لتوقعاتهن. ويفسر جان بول كوفمان، أن هؤلاء النساء، إذ يخيب ظنهن في أغلبية الأحيان، يقررن عدم الارتباط مجدداً[28]. فالوحدة، خصوصاً في المدن الكبرى، وصعوبة المزج بين متطلبات الحياة المهنية والحياة الخاصة، في مجتمع من النساء المتحررات، تجعلان من المرأة أسيرة أنماط الفكر التقليدي، فتمسي أدوارها وصورتها ومكانتها في المجتمع، غير واضحة. ونحن نواجه، في هذه الحالة، تناقضاً: إن الرجل الذي يبحث دائماً عن امرأة تحميه، لا يجد سوى فتيات يرفضن، بحسب ما هو شائع، هذه الحماية. وعلى الرغم من قانون التساوي، لا تزال الذهنيات تتطور ببطء. ويبدو أن الرجل يود البقاء على امتيازاته، كما لو كانت أي امرأة ذات نفوذ، خاصية نفسية بالضرورة.

وفي حين أن النساء يجعلن من الحب مثالاً، لا يتحملن هنّ برغم ذلك فكرة الرجل الذكوري، ويُردن فرض شخصيتهن، ويرفضن شكل الثنائي الانصهاري حيث يتحد كل شريك في الآخر. هن مصرّات على المحافظة على ذواتهن، وهويتهن، وشخصياتهن، ونمط حياتهن المختلف عن نمط الشريك. هن يؤمنّ بالحياة الثنائية، لكن الحياة المتحررة من الضغوط، والمنفتحة والمفعمة بالطاقة، على عكس فكرة الانصهار المتصلبة. هل هن لهذا السبب، مستعدات للعيش ضمن ثنائي «انقسامي» يفسح المجال أمام مشاركة شخص آخر في العلاقة؟ يبدو أن الدفاع عن فكرة تعددية الأزواج، بحجة الانفتاح والرغبة في التوفيق بين العزوبية والحياة الزوجية، هو عكس الأفكار النسوية التي كانت أحياناً رائدة وصائبة. والجدير ذكره في هذا السياق، هو بروز الحركة النسوية التي ترى في التحرر الجنسي وسيلة «استعباد» للمرأة، وتعطي قيمة لمفهومي الوفاء والارتباط. وتعتبر هذه الحركة النسوية الجديدة، أن الحرية لا تتواجد من دون مسؤولية أو وفاء، على ألا يكون الوفاء فرض واجب. ويقول، في هذا السياق، جاك دي سان فيكتور: الوفاء مسألة عادت لتتسم بأهمية كبيرة في الفكر الفلسفي. تعي النساء أنهن يضعن في الثورة الجنسية، فهن يردن أن يذكّرن الرجال باحترام المرأة، فيعارضن المبادلة، وهي سلوك ذكوري يعتبر أن المرأة تخضع لإرضاء زوجها. ويرفضن قطعاً الإباحية، ويرين فيها صورة منحطة عن المرأة. ويتطرقن في مواضيعهن إلى الشرف الإنساني أكثر من الأخلاقية.

إن استمرت المثالية التي نادى بها روسو، لكان كل ثنائي الآن يطمح إلى علاقة أكثر عمقاً وإدراكاً. فمن وعى والديه مطلقين، «وضع استراتيجية في حياته لتفادي الفشل في الحب، الذي يشكل أكبر مصدر خشية بالنسبة إليه، واقتنع بأن الثنائي الثابت والأحادي، وهو عامل أمان، جزء لا يتجزأ من النجاح»[29]. وبذلك، يتكاتف والشريك، ويتحد معه لمواجهة المحن، ويشكل معه ثنائياً

ترابطياً، وعلاقة «تشرنق» مبنية على الوفاء أكثر ممن يكبره سناً. وبالتالي يبني هذا الثنائي «محمية» له، ويعيش ضمن مجموعات صغيرة، حيث وُجد كل منهما لذاته، من دون أي رهانات. وهذا رد فعل للاستمرار في العيش في عالم خال من الإنسانية. وقد نادى بروكنر وفنكلكروت بهذا الاتجاه. فكلما كان المجتمع أكثر عدائية، كانت الحياة الثنائية أكثر ضرورية للأفراد: فهذه العلاقة تتعزز باستمرار الروابط ولا تتفكك بسهولة. وما يميّز «الآخر» كشريك، هو أنه لا يتاجر بوجود الحبيب، بل ينتظره، ويكون حاضراً معه، ويعمل على إطالة العلاقة (...). لا يعني تدهور الحياة بين أي ثنائي نهاية للعلاقة، ولا تبديلاً لها بما هو أفضل، بل هو منبع لأشكال وسيطة عديدة، بحيث يلجأ الشريكان إلى شتى الحيل لحل مشاكلهما. فهما لا يريدان تشكيل كتلة واحدة، ولا أن ينصهر أحدهما في الآخر، ولا أن يعيشا هذه النشوة المتحجرة الطويلة الأمد في الحب المجنون»[30]. لذلك، كي يحظى أي ثنائي بفرص لإطالة العلاقة، يأتي بأشكال جديدة من الوحدة ويرفض مبدأ عدم استقلالية الشريكين: فالمنزل المنفصل، والغرفة الخاصة، وتجديد «الإغواء»، هي تغييرات دقيقة تجعل الشريكين يلمسان رغبة حب جديدة[31]، ويبدو أن مشروع إنجاح الحياة مع الشريك بكافة شوائبها، يلقى كل إيجابية عند ابتكار أشكال تهدف إلى إطالة قصة الحب. فبدلاً من الارتباط الأبدي، يكون الحل في تجديد «الإيجار» على أشكال «ميزانيات» منتظمة تسمح بتعديل الأهداف أو إعادة بلورتها. ففكرة ألا يشعر الشريك بأنه مقيد بخطة بعيدة الأمد، تؤثر إيجاباً في شكل العلاقة.

تولّد هاتان الفلسفتان، اللتان تقضي أُولاهما بالحياة الفردانية التي اعتنقها المتعيون المؤمنون بالإغواء من جهة، وفلسفة العلاقة بين اثنين التي يغمرها الحب والوفاء من جهة أخرى، خيارات مختلفة ومتباينة. فالمتعيون يتبعون رغباتهم، ويدخرون، ويتناسون، وينهكون، ومن ثم يرحلون وفي جعبتهم لحظات قصيرة من السعادة، متعطشين إلى الحب والجمال المباشر واللذات السهلة. وهم يصلون إلى نهاية الدرب وحيدين ويتحملون بصعوبة الفشل، بيد أنهم في بعض الأحيان ينجحون في إنجاز تحف فنية، إن كانوا يتمتعون بالموهبة. نذكر في هذا السياق بروست وفلوبير. وبالنسبة إلى مؤيدي الفلسفة الأولى، فإن خيارات العيش هي التي تفصل بين الدروب. أما الآخرون، الذين يؤمنون بمبدأ الوفاء، فيكتفون بتأسيس عائلة، ويسيرون في درب طويلة محددة الاتجاه لا يقطعها سوى الموت.

وبحسب جان كيليرهالز، وهو مختص في علم الاجتماع ويدرس في جامعة جنيف، ومعروف بأبحاثه حول الثنائي والعائلة: «عندما يعيش الإنسان وحيداً، يشعر بالذنب وبعدم الاستقرار أكثر، وتغيب عن ذاكرته أوقات المتعة التي عاشها»[32]. إننا نبني هويتنا من خلال علاقة واحدة، كما لو كان الارتباط يشكل أصلاً جزءاً من طبيعتنا، وكما لو أننا أحياناً نتصارع ما بين «الدوام والتغيير، والاستقلالية الذاتية والانصهار، والسلطة والمساواة، والحياة المثالية والحياة اليومية... وخبايا الحياة الزوجية والسعادة»[33]. أوَليس الوعد الذي نقطعه شرطاً للحرية؟

في الأعماق، لطالما وُجدت هذه الرغبة في الحب، لكن ما يتغيّر هو الصورة التي نغلّف بها هذا الشعور، وهذه الجاذبية، وهذا الاتصال بين جسدين: فمن الممكن وصفها بأشنع الأوصاف،

أو العكس، بإعطائها الكثير من القيمة، أو اعتبارها داخل العلاقة أو خارجها. إننا في نهاية هذا التيار الذي نحاول من خلاله التوفيق بين الحب والثنائي. لقد أدى تقييم الحب في أيامنا الحالية إلى ردود فعل أهمّ شأناً من تلك التي شهدناها في الستينيات حين كان الرجل أو المرأة يكتفيان بزواج يتم نتيجة انجذاب بين اثنين ليس إلّا: فمن كان يزني، كان يشعر بالذنب، ويرغب في فسخ العلاقة، بيد أن المرأة كانت تترك الرجل الذي يخونها مقتنعة بأنه لم يعد يحبها. فرهان العلاقة الزوجية التي تدوم في أيامنا الحاضرة أصعب بكثير من السابق. هل هو رهان خاسر؟ هل ما زال الحب مسألة تسوية، أم تحكيم، أم أصبح حلاً وسطاً لا يُرضي أحداً؟ ألا تكمن المرحلة الأولى في إبعاد فكرة الثنائي الكامل؟ يعي كل شريكين شابين أكثر فأكثر، أن الحب الذي ينشأ في أول العلاقة ليس شرطاً أساسياً لنجاح الثنائي، وأن الشريكين اللذين لا يعيشان حالة حب قوية منذ البداية قد ينجحان أكثر في المستقبل. لربما علينا طرح المشكلة بشكل مختلف: إن كان للحب طاقة لا مثيل لها، أليس علينا أن نفضل عليها الطاقة التي تولد من رابط المشاركة الحقيقي؟ وفي حين أن الخيار الأول قد يواجه حالات من الضعف، يرتكز الخيار الثاني على تبادل يشمل الجسد والروح. لا شك في أنه من الممكن الحد من إضعاف شرارة الحب هذه، ومحاولة تجديدها: المسألة مسألة مخيلة! يفترض رابط المشاركة مشاركة الشخص بأكمله، وتحوّلاً ذكياً بين الأطباع. ويعتمد الأمر على ما نبحث عنه: سواء أكان شعلة الحب الكبيرة والقصيرة، أم نار الحب التي لا تخمد.

الفصل الثاني

هذا الآخر الذي انتظرناه لننطلق

«والتقت نظراتهما...»[34].

عندما تبدأ العلاقة، ثمة دائماً لقاء حب، تجربة فريدة من نوعها؛ جنون سماوي[35]. يفتّح عيوننا. فإيجاد الشريك أشبه بإبداع، كما لو أن هذا الآخر كان ينتظر شخصاً يكشفه لنفسه. فيصبح اللقاء «وثبة نحو الغد»، «تحرراً، وشفاءً». يمد الحب الشريكين بطاقة قوية إلى درجة تمكّنهما من نسيان الماضي وعيش حياة جديدة. يكتنز الحب في مفهومه الحديث، كافة مكونات خلود العلاقة (...). تكفي استعادة البدايات لإيقاظ شعلة الحب»[36]. مهم لنا أن نتوقف عند لحظات السعادة هذه. ففي خلالها كل شيء ممكن. ما يحدث بفعلها أشبه بـ «ثورة»، بمعنى أن حياتنا تنقلب، فننتقل من عالم ماضٍ غير مُرضٍ إلى عالم جديد نُحسَد عليه. لذلك، نقع في الحب عندما لا يعود نمط حياتنا يناسبنا، عندما نتطلع «بالسر» إلى تغيير مهنتنا أو محيطنا أو بلدنا أو سلوكنا... يعيد إلينا الآخر الثقة، كما يصبح تجسيداً لثمة وعد. وبحسب ألبيروني: «هو يساعدنا في تطوّرنا... في سلوك اتجاه يلبي متطلباتنا الداخلية (...). تسرّع حالات الحب الكبيرة عملية التغيّر والتقدّم»[37]. فهذه الوثبة وهذه الثورة إشارتان إلى حريتنا، وإلى قدرتنا على المخاطرة. هما تقنعاننا بأن السعادة هبة وليست واجباً. فتقول لي نظرة الآخر: «أنت فريد من نوعك».

يتم اللقاء من دون علمنا. قد تحدث مصادفة الحب أحياناً بعد خيبة أمل عاطفية، في فترة ضعف، ونستشهد في هذا الصدد بما كتبته صوفي فونتانيل: «يُقال إن الحب يولد عند الإنسان عندما لا يكون هذا الأخير راضياً بقدره. فعلينا أن نشعر بنقص ما كي نخاطر في رغبة الامتلاك»[38]. إن شعورنا بعدم الرضا عن طريقة حياتنا، وعدم التيقن بما يكفي بقيمنا، الخاصة، يهيئنا للحب. فجأة، قد يظهر شخص غريب ويرمقك بنظرة توقظ فيك شعوراً يهزّ كيانك. فهذا الشخص لا ينظر إليك فحسب، بل تخترق نظراته داخلك. وبدلاً من أن يضعك في صورة محدودة، يحاول أن يكتشف من أنت. هذه الطريقة التي يراك بها الآخر، هي أكثر ما يسمح لك بمعرفة الكثير منه. قد يولد ذلك من

شخص غريب أو من قريب. في الواقع، يمكننا أن نحب شخصاً نظن أننا نعرفه، ثم نكتشف فجأة أن نظرته إلينا تغيّرت. إن حالات الحب من أول نظرة موجودة، ولو كانت نادرة. كما يجب التمتع بما يكفي من الفطنة للتمييز ما بين الانجذاب المفاجئ، والرغبة المتعذر كبتها التي تولد من الظروف الخارجية. لربما كان الحب من النظرة الأولى أصعب من العلاقة التي تبدأ بإحساس أخف حدة. اللقاء الحقيقي هو هذه الإشارة الدلالية، وهذا الوضوح المفعم بالطاقة التي تملأنا ونتتشي بها. لنستعِنْ بمثال حيّ على ذلك: بعد سنة منهكة، ما الذي تفضّله من العمل: الجلوس تحت حرارة الشمس الملهبة، أم التمدد في ظل شجرة ندية؟ التعرض للفحة شمس لاهبة، أم الاسترخاء في الفيء؟ لا نعود، عند نشوء هذه «الطاقة الجديدة»، كما نحن، كذلك تروح خفايا قلوبنا تنكشف. فبعد فترة من التردد والعجب، نحرص أولاً على عدم خسارة أي جزء من هذه الحالة الغريبة والحفاظ على النعمة التي تغلفها. نود أن نُرضي رغباتنا إلى درجة أننا نتطور بحسب نظرة الآخر، وفي الوقت عينه، لا نكون ما كنا عليه. وتصبح أماكن لقاءاتنا الأولى مقدسة. الحب الذي يبصر النور حديثاً حالة تنقلنا من مكان إلى آخر: هو تجربة انصهار مجازية وتشارك مفعمة بطاقة شبه سماوية.

من الناحية العصبية البيولوجية، يعتبر الطبيب لوسي فانسان أن الحب من النظرة الأولى ينتج من تصادم مجموعتين من الجزئيات، من «هذا الجنون الظاهر الذي يسكن العقل (...). فنحن نبحث أولاً، بكل بساطة، عن التناسل»[39]. ويفسر ميشال ليبويتز، وهو طبيب نفساني أميركي درس تفاعل «كيمياء» الحب، تنشيط الهرمونات الدماغية. بالنسبة إلى بول كلوديل، اللقاء مع الحبيب بمثابة فيض من النعم في حيواتنا. وهنا أيضاً، نجد عالمين متعارضين. ومن دون أن ننكر الطابع الكيميائي عند اقتراب جسدين، يبقى أن نحسّ، عند اتحادنا، بهذا «الدوار»، بأن شيئاً ما يفوقنا. في كتاب Passion fixe، كتب فيليب سولرز: «يأتي هذا الشخص من بعيد، من حيث لا نعلم، من خلال آلاف حالات الفشل وشرارات الحب القصيرة. الحب فن موسيقي، تماماً مثل الخيمياء»[40]. ويتفق المفهومان على نقطة، هي أن اللقاء مصدر طاقة ومبعث لها.

إننا نتعرف إلى هذا الآخر، هذا المحرّر، كما لو أننا لطالما انتظرناه. فنحن، إذ نتجرد من أنفسنا، نفهم ذواتنا من دون أن نكلم أنفسنا بالضرورة: نعيش في تستر كامل، لا سابق له، وتكون حواسنا الخمس متيقظة. فبادئ ذي بدء، يجري تبادل المشاعر من خلال تبادل النظرات: كتب فلوبير في L'Education sentimentale: «والتقت نظرتهما». كما كتب فيليب لابرو في L′étudiant étranger: «عجزت عن تحويل نظري عن إشعاع عينيها النادرتين، وهذه البسمة التي تبعث بعديد من الرسائل في آن»[41]. تلامست اليدان: «أخذت يدي ووضعتها على وركها فأحسست تحت راحة كفي بحرارة، ثم انزلقت يدي ببطء قليلاً على طول حوضها، من دون أن تفارق نظرتي عينيها...[42]. يتسارع التنفس وينسجم. نرتجف، ونحيط الآخر بكلماتنا المعسولة فتصبح الملاطفة لغتنا. ومن خلال هذه الإشارت كلها، نبحث عن فك ألغاز براهين الحب. ونرغب في إعلان مشاعرنا. فكلمة «أحبك» تأتي كتحرر، فتختلط العاطفة والرعب.

يبدو كل شيء مشوشاً، ويمسي لكل شيء معنى جديد، ونكون مستعدين لفعل المستحيل كي نتبع هذا الآخر. إن بدايات الحب تثيرنا وتمدنا بطاقة غير طبيعية، فتقشعر أجسادنا لمجرد إحساسنا بأننا نعيش لشخص آخر، وفي عيني هذا الشخص. ونتجه نحو وعد نتردد في قطعه. وتمتزج في دواخلنا رغبات لا يمكن تمييزها، بل هي متعاكسة. نشعر بأننا نريد معرفة كل ما في عالم هذا الآخر، وأن نتقصى عن حياته، وأن نحمّل ما يدور في ذهنه من أفكار. وقد عبّر فلوبير عن هذه الرغبة قائلاً: «تمنى أن يرى أثاث غرفتها، وكافة الفساتين التي ارتدتها، والناس الذين صادقتهم. كانت رغبة الامتلاك الجسدي تختفي بفعل رغبة أعمق، وفضول لا حدود له»[43]. اللمسات الأولى والقبلة الأولى، تولد فينا إحساساً مثيراً من التخلي والاتفاق. يصبح المستحيل ممكناً، وفق ما قاله جان كريستوف روفان عندما التقى بطله، جان باتيست، الآنسة دي مابيه: «وضعت الرحلة الرائعة التي اقتُرحت عليه يدها على أحلامه مجدداً. وظهور الآنسة دي مابيه، الذي أحزنه في الأمس، زاد من فرحته هذه المرة. أصبح المستحيل ممكناً مرة أخرى، أحس بأنه حر ومن دون قيود، كما في البندقية، أو بارما. هذه الفكرة الوحيدة جعلته يتخيل الحب. لم يطلب أكثر من ذلك»[44].

من أين تأتي هذه البهجة، وهذه «الثورة»، لمجرد التفكير في حب غزا حياتنا؟ هل لأن هذا الآخر يعكس طموحاتنا؟ هل لأنه «بلد» من دون مفاجآت، مألوف وجميل؟ هل لأنه نسخة عني؟ يقول رولان بارت: «هناك ما يأتي ليتوافق تماماً ورغبتي (...). تارةً في الآخر، وهو توافقية نموذج ثقافي كبير يشكل بهجة بالنسبة إلي (...)؛ وطوراً، بالعكس، فإن طلاقة الغياب الأكيدة هي التي تفتّح جروحي (...)، فنحن في البداية نحب لوحة (...)، قد نحب جملة قيلت لنا (...) تبقى فينا كذكرى»[45]. بالتالي، هناك في هذه البدايات تواؤم بين ما نأخذه من الحبيب ورغبتنا. فنحن، شأننا شأن الهنود الذين يأكلون قلب العدو، نود التشبث بهذه القوة التي تسحرنا، وتكون غريبة بالنسبة إلينا.

لمَ هذا الانجذاب كله؟ هل يتعلق الأمر بالتماثلية أو التكاملية؟ أحياناً، يكون الشريكان من محيطين متجاورين، هذا إن لم يكونا من المنطقة نفسها. أما عدد اللقاءات التي تتم في المحيط المهني نفسه فتزداد، حيث تنسج الاهتمامات والاختصاصات والعلاقات روابط المشاركة المؤاتية. لا شك في أن هذا هو السبب الرئيسي الذي يفسر طريقة الكلام عينها عند الشريكين، والتصرفات التي تتكرر نفسها. أكان الشريكان ذوي مراتب مهنية عالية، أم عاملين عاديين، أم مزارعين، يميل الناس إلى القول: هذان الشريكان يتلاءمان. والعكس صحيح، إن كانت العلاقة خارجة عن المألوف. فقد أظهرت العديد من الدراسات أننا نختار في أغلبية الأحيان شريكاً ينتمي إلى بيئة اجتماعية قريبة إلى بيئتنا[46]. و«بهذا المعنى، يكون ما هو شخصي عاماً»[47].

حتى ولو كانت الروابط السرية موجودة، ما يحتل الصدارة في اللقاء، هو أولاً هذه «الوثبة» نحو وجود جديد. إننا نبحث في الآخر عن الحلم الذي تعذَّر علينا تحقيقه، وعن النجاح الذي حُرمنا منه، وعن الأحاسيس التي نعجز أحياناً عن التعبير عنها. فمثلاً، من الممكن أن تُعجب امرأة ترعرعت في عائلة حيث التعبير عن الغضب والامتعاض ممنوع، برجل سريع الغضب. كما

قد ينجذب رجل عادي ومتحفظ، إلى امرأة غير عادية ومتحررة. بالتالي، هذا الآخر الذي يسحرنا يفتح لنا آفاقاً جديدة. فمجرد وجوده يكفي ليبرهن لنا أن استمرار الإحساس بالحب ممكن. هذا هو الوضع بالنسبة إلى امرأة تحلم بأن تصبح فنانة وتعيش مع رسام، أو حالة رجل لم يبدع في حياته مقطعاً شعرياً، أو قطعة نثرية، ويقع في حب كاتبة. وقد أفصح جان ماري روار بنفسه، عن أنه أُغرم أحياناً بنساء ذوات نفوذ. وأفضل مثال على ثنائي من بيئتين مختلفتين ومتناقضتين: نادين وإدمون روثشايلد. هو رجل أعمال ثري من الطبقة الأرستقراطية وقع بجنون في حب نجمة سينمائية مبتدئة تنتمي إلى عامة الشعب. كان الانجذاب متبادلاً، وجهد إدمون لجعل نادين «بارونة» بكل معنى الكلمة، إلى درجة أنها أصبحت تعطي دروساً في التصرفات الخاصة بالطبقة الأرستقراطية. أما الأدوار فقلبت بالنسبة إلى دانيال دوكرييه، حارس الأميرة غريمالدي الشخصي، لكن القصة كانت نفسها. وكل منا يعرف التكملة. على أي حال، يجب التوفيق بين البيئات المختلطة ببراعة.

الخيوط السرية

لا نجد فقط عند هذا الشخص الذي يسحرنا، والذي يكشف لنا خبايا أنفسنا، كل ما هو جديد، بل هناك صدى في أعماقنا يدفعنا إلى تحليل ذواتنا، ليس بغية جعل العلاقة تنحسر، كما يفعل المحللون النفسانيون، بل من أجل تفادي الانصهار، وقبول الآخر بعيوبه، وغموضه، وخياله، والتحرر من هذه الروابط التي تقيدنا كي نعيش حباً ناضجاً. يتضمن اللقاء جزءاً من اللاوعي. ثمة خيوط سرية تربطنا بالآخر، كما لو لم يكن الانجذاب الأولي ثمرة الصدفة، بل ثمرة استعداد سري، وكأن ثمة جنياً (ربما مؤذياً) قد وجهنا نحو الشخص المقدّر لنا، لكنه يجعل دروبنا تتشابك وتعترضها محطات صعبة، حتى يبدو أنه يصر أحياناً فيضع في دربنا مجدداً المصاعب التي لم ننتبه إليها.

ومن أجل تفريق هذه الخيوط السرية الموجودة مسبقاً، والتي ينسج بعضها بعضاً، علينا أن نستعيد مراحل الطفولة، والعودة إلى قصص الساحرات، وإلى المغامرات التي عشنا في كنفها. حبنا الأول (وبالتأكيد الأكبر وحتى الوحيد) هو للشخص الذي ربانا وأحاطنا وغذّانا: أمنا. إننا جميعاً نحنّ إلى هذا الانصهار الأولي الذي نطمح إلى أن نعيشه مجدداً. فلذّة الملاطفات الأولى ونغم كلمات الحب والعلاقة مع الأم، سواء أكانت قوية، أم حانقة، أم غائبة، تسكننا. وبطبيعة عواطفنا، نقلّد هذه العلاقة منذ التبادلات الأولى، بسعادة أكبر أو أقل، بحسب الحب، إن كان زائداً أو ناقصاً. إننا نحاول إيجاد الإشارات التي ساهمت في بناء شخصيتنا. في الواقع، نحن نمنح الحب أو نتلقاه بالسهولة عينها التي تلقيناه بها. وغريب أن الآخر، حتى الرجل، قد يكون بمثابة أمنا الجيدة أو السيئة في العقل الباطن. وبالتالي، يحدث أن تعجب ابنة امرأة مسيطرة برجل يسيطر عليها مثل والدتها. وقد برهنت العالمة الاجتماعية، باتريسيا دي لاهي، كاتبة Ces amours qui nous font mal[48]، أن العديد من النساء المتزوجات وغير السعيدات، يعترفن بأنهن اقترنَّ بـ «صورة عن أمهاتهن»[49]، أو بالأحرى يرغبن في التركيبة النفسية غير المرضية عينها. لنتخيّل أن امرأة ما حظيت بأم لامبالية. من الممكن لهذه المرأة أن تختار رجلاً بالمواصفات نفسها، فتسترجع الرهان الذي عاشته في

طفولتها: أن يحبها شخص قلبه قاسٍ على أمل أن تستميل قلبه هذه المرة. في بعض الأحيان، تنجح في ذلك، ويزهر جهدها قصة حب رائعة. لكن، أحياناً أخرى، تفشل، لأن اللامبالاة تكون متجذرة في الآخر إلى درجة يتعذر استئصالها، فتغرق في قصة حب مؤذية. نذكر رهاناً آخر ممكناً من الطفولة: أن يفضل أب ابنة على أخرى. هذه الفتاة المفضَّلة، إذ اعتادت على هذه الفكرة، قد تحب رجلاً غير وفي، فتعيش حالة خيانة زوجية، وتنافساً مع العشيقة أو العشيقات، وتحس بسرور (لاشعوري وثانوي) كونها المفضلة. ومثال على ذلك، ما نقرأه بين سطور كتاب فرانسواز شاندرناغور La Première épouse: نعم، قد يكون الوهم الذي تبنى على أساسه العلاقة هو فكرة أنه سوف يحبها أكثر على الرغم من وجود نساء أخريات...

نظن أننا أحرار، لكننا أحياناً، نشبه هؤلاء الأطفال الذين يسيرون في درب يختار وجهتها أهاليهم. لا يمكننا أن نحب إلا حين يطمئننا حب آبائنا وأمهاتنا. بالنسبة إلى النساء، يبقى الوالد هو المرجع. لقد أحببناه كما كان، سواء أكان بطلاً أم جباناً أم عنيفاً أم خاضعاً أم حنوناً أم ضعيفاً، وحاولنا أن نكبر بما يمنحه لنا. هل وضع لنا حدوداً؟ هل كان حاضراً دائماً، أم أنه على العكس، كان دائماً بعيداً؟ يصعب أحياناً على الفتاة البكر إيجاد رجل في مستوى صورة والدها في عقلها الباطن. قال روبير نوبرغر: في بعض الأحيان، لا يفهم الرجال ما معنى الثنائي. فهم يخلطون بين الثنائي والعلاقة العائلية. وهذا ما يؤدي إلى الفشل، إذ يصبح الثنائي علاقة تآخٍ وعلاقة أهلية. تولد قصص الحب في الطفولة، مع نماذج قد اكتشفنا عيوبها، بيد أنها، برغم ذلكً، علّمتنا الكثير. عند التقاء شخصين، يتشابك اللاوعي عندهما: مثالك الذكري، ومثالي الأنثوي... تنشأ من هذا التطلع المزدوج حالات من سوء التفاهم أحياناً، علاقة خاطئة منذ البداية. أن نصبح راشدين، هو أن نتعلّم التخلص من هذه العوائق كي نجهد لربح آفاقٍ من الحرية. لا يمكننا أن ننطلق لاكتشاف الآخر إلا عندما نؤمن بأنفسنا. فمن دون تجانس، ومن دون تحمّل عيوبنا، لا يمكننا تحمّل عيوب الآخر. أن نحب شخصاً كما هو، هو أن نجد أولاً السلام الداخلي، وأن نحب ذواتنا، وأن نعرف أنفسنا كي نحاول اختيار القيم التي توافقنا. أن نذهب إلى لقاء الآخر، هو أن نحوّل اتجاهنا، أي أن نغيّر الدرب، وأن ننقلب على ذواتنا، أي أن نقوم بـ «ثورة».

في الوقت الحاضر، ما زلنا في بداية الدرب. ما من شيء آخر مهم. فنحن مغرومون، ولا نرى العالم من حولنا. نود لو نوقف الوقت، كما قالت جولييت لروميو عند طلوع النهار: «هذا ليس النهار، هذه القنبرة فقط...». تذكر القنبرة الحبيبين بأن أجيج شرارات الحب الأولى لا تدوم إلى الأبد. في قلب هذا الانجذاب الغامض، يولد هذا الوعد السري بتمديد هذه اللحظات من السعادة التي نعلم أنها عابرة، وبخلق حالة البداية هذه باستمرار. كيف نعبر إلى مرحلة الحب؟ «الوقوع في الحب هو إدراك لسلسلة من الاختبارات»[50]... الاختبارات التي نفرضها على أنفسنا، وتلك التي يفرضها الآخر علينا. يبدأ كل واحد بالانفصال، خشية نقص في التبادل. فنحن نختبر الآخر، ونأمل الحصول على براهين عن حبه. لمَ لا يظهر هذا الحب بالقدر الذي أشاءه أنا؟ لمَ لا يغيّر نمط حياته وفق نمط حياتي؟ يبدأ التطلّع، ومعه بداية قلقنا الكبير. من أجل أن نستأنس هذا الشخص المفعم بالحياة والحرّ وغير المتوقع، الذي يجذبنا بالتحديد «لأنه حرّ»، نفرض عليه «العديد من التضحيات بغية جعله ليّن

العريكة وملكنا ومسالماً»[51]. نريد أن نغيّره، وأن نجعل صورته توافق الصورة المثالية التي نرسمها عن الحبيب، وأن نضع فيه حسنات والدينا، وأن نجعله يشبهنا... فننتهي بأن نفقد فيه ما كان يجذبنا. إذاً، عقبتا الحب هما الرغبة الانصهارية والتوجه ببطء نحو كل ما هو يومي وخيبة الأمل. يحوّل الحب الحصري والتملكي حلاوة اللحظات الأولى إلى مرارة: فيشعر الشخص الحر الذي اخترناه بأنه مسجون في سجن من المتطلبات الكثيرة والغيرة المفرطة. ويكمن تأمين وسائل دوام الحب أولاً في عدم أسر الطاقة التي يمنحنا إياها الآخر عبر ادخارها لنا وحدنا. يجب تبادل الطاقة والحرية لأنهما من الطبيعة نفسها. ومن المقلق أن نأخذ في الاعتبار هذا الازدراء الذي لطالما عاملنا «الحب الحر» به من دون أن نلاحظ أن في الأعماق، تردد هاتان الكلمتان الشيء نفسه: الحب هو الحرية، والحرية هي الحب. يبدو أن أنماط الفكر في المجتمع ما بعد الحديث، تفضّل «الحب المقيّد» من دون الإفصاح عن ذلك.

الحب من النظرة الأولى الذي شعر به لوران تجاه آن: كان يوم الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر 1992، يوم أحد ممطراً. لم أرغب في الخروج من المنزل. لكنني أقنعت نفسي أخيراً بأن أشارك في جلسة موسيقية بعد الظهر. رأيتها على الفور ولاحظت أنها أيضاً رأتني. كانت الصدمة قوية إلى درجة أنني لم أتحدث إليها فعلياً إلا في مساء اليوم عينه عندما وجدت نفسي برفقتها في مطعم صغير مع بعض الأصدقاء. أظهرت من خلال تصرفاتها أنها كانت منزعجة. ما أعجبني فيها كان هذا المزيج من اللطافة والتماسك. كان فيها شيء لم أستطع فهمه: كانت حاضرة بكل معنى الكلمة. عجزت عن الكلام، واضطربت، وانعقد لساني إلى درجة أنني لم أجد ما أتكلم حوله. كنت على وشك أن أصبح أبله. أحسست بأن كل ما تفوهت به كان بلا معنى. وهي كانت غامضة. كانت عيناها تتكلم نيابة عنها.

الحب من النظرة الأولى الذي وقعت فيه غلوريا: لم أكن أرغب كثيراً في الذهاب إلى حفل زفاف أحد أصدقائي القديمين في نورمنديا للقاء مجموعة من الأصدقاء القديمين. بدأت العمل في مكان آخر. راحت أمي تتصل بي يومياً مصرّة على أن أذهب. وبما انني لم أكن مشغولة في نهاية الأسبوع، قررت حضور الحفل. استعرت سيارة صديق، وانطلقت برفقة صديقة لي. كان العشاء في قصر رائع. جلست بالقرب من طيّار أزعجني بكثرة كلامه. فضّلت لو بقيت في باريس جالسة في شقتي. أحاديث، رقص... كنت أستمتع بوقتي، وأشعر بالحر، ثم اقتربت من البار. رأيت رجلاً متكئاً يرتدي قميصاً أبيض مفتوحاً بعض الشيء يبتسم لي. كان حباً من النظرة الأولى. كان الرجل الذي لطالما انتظرته. عرفت فوراً أنه رجل حياتي. في سياق السهرة، تبادلنا بعض النظرات لكننا لم نتفوه بأي كلمة. وحوالى الساعة الرابعة فجراً، رأيت الرجل يخرج من القصر وتحت ذراعه أمتعة نوم. فقلت في نفسي: «تباً! سوف يخلد إلى النوم هذا الأبله! لن أدعه يذهب». تجرأت وركضت صوبه. كانت السماء تمطر بغزارة. قلت له: «عذراً!»، فالتفت نحوي. «لا يمكنك أن ترحل هكذا!». أجابني: «لماذا؟». قلت له: «لأنني لم أعطك رقم هاتفي بعد!». تحدّثنا لنصف ساعة، ثم مرر لي أمتعة نومه. وعند الساعة السادسة صباحاً، أعدتها إليه. بات لا يفهم شيئاً. قلت في سري: «لن ينجح الأمر». أحسست بأنني لم أعد مهتمة كثيراً لعينيه. قال ليو: «هلا أعطيتني عنوانك. تلقيت يوم الأربعاء التالي، رسالة غرام منه أيقظت فيَّ شعلة الحب، فاتصلت به ودعوته إلى العشاء. سكن

معي. وحتى الآن، رزقنا بطفلين. أعلم أن فكرتنا عن التربية ليست بالضرورة نفسها، لكنني أعلم أيضاً أن ليو كان الرجل الذي استحوذ على قلبي. لن أجد أفضل منه أبداً.

تذكّروا: عيشوا مجدداً الحب من النظرة الأولى الذي وقعتم فيه، وأخبرونا عنه...

يسمح الرجوع إلى هذه اللحظات «المباركة» بالعودة إلى بداية القصة والتزود بقوة معنوية. عندما تسوء الأمور، أغمضوا عيونكم، وتخيّلوا نظرة الآخر، وكلماته، وانفعالكم حينها... تذكروا حرية هذا الشخص الذي قلب كيانكم، وحاولوا اكتشاف ما أدى في حياتكم إلى تقييدها. السجين لا يشعر سوى برغبة واحدة: الفرار. لا تصبحوا هذا السجّان الذي يبحث الشريك عن الفرار منه مهما كان الثمن، من دون أن تعلموا ذلك. وبما أنكم تحبون هذا الآخر، لن يكون الوقت متأخراً أبداً لاستعادة «هذه الطاقة الخارقة التي يولّدها الحب في بداياته، والتي تمد الحبيبين بقوة عجائبية تسمح لهما بمواجهة المجهول والتغلّب معاً على المصاعب. خلال رحلة ما، أو في مغامرة ما... يكتشفان في أعماقهما القوة والتضامن» (ألبيروني). قد تغلّف شرارات الحب الأولى تساؤلات ومشاكل ومصاعب ترخي ظلالاً عليها؛ أن نحب هو أن نكشح الغيوم السوداء باستمرار، تلك التي تغطي هذه الشرارات الأولى. لمَ لا نعامل حبنا على أنه تحفة فنية تتطلب شروطاً خاصة لحفظها؟ لم يكن ليوناردو دا فينتشي ليتخيل أن لوحة موناليزا ستوضع في غرفة صممت خصيصاً لها لحمايتها من العوامل الخارجية المضرّة، خصوصاً عندما نفكر في أن فرانسوا الأول قد علّقها في حمامه. ما الذي كان ليحلّ بها لولا أن نظرتنا إليها حمتها نوعاً ما...؟

أن نرغب في إطالة الحب، هو أن نؤمن بالسعادة. الأمر بمثابة خيار. وإرادة. هو بمثابة إرادة تمديد طاقة الحياة التي يخرجها الآخر منا، وتجديدها. خلال حياتنا مع الآخر، يمكننا إيقاظ هذه الطاقة، حيث يكمن قرار عيش حب كبير في مفهوم مفعم بالتفاؤل حول الوجود.

الفصل الثالث

رحلة إلى الشغف

في خضم تحفظاتنا، وتجارب الفشل، ورفضنا أن نعيش حباً يدوم، نجد هذه الفكرة الراسخة في دواخلنا منذ قرون، والتي تقول إن الحب السعيد لا يعمّر طويلاً. يبدو لنا أن الحب المرافق للحياة الزوجية مرادف للملل والروتين والواجب والتسوية... ما يحمّسنا هو لذة الحواس، واللهو، والتجديد. فنحن نشعر بنبض الحياة يجري في عروقنا عندما نتأثر، وعندما نحلم، وعندما نقع في الحب، ويتملك إحساس ما قلوبنا، وعندما نستميل قلب الآخر، وعندما نفرح. المخاطرة تحمّسنا، وانتهاك الممنوع يزيد من رغبتنا. وعندما يصطدم الحب بعوائق، يصبح شغفياً. لذا، يتخذ الشغف أحياناً شكل الزنى. يعني مصطلح «شغف»، المشتق من المصدر اللاتيني passio: «الألم» و«التعاسة». كيف لنا أن نفهم هذه القوة التي تدفعنا إلى إقحام أنفسنا في أمور مستحيلة إلى أن ندمر أنفسنا؟ وإلى متابعة البحث عن الجمال والحب والتعاسة والإرهاق؟ لمَ نبحث عن التعاسة والفشل والوحدة أكثر من الحب نفسه؟ «هذه الجملة الكبيرة من الآلام والجراح والقلق والضيق والغيظ واليأس والخجل، التي كنت ضحيتها الحية»[52].

يعود بنا دونيس دي روجمون إلى أسطورة تريستان وإيزولت، وهي رمز مفهوم قديم عن الحب المشبع بالوثنية. انتشر هذا المفهوم في الأدب على مدى قرون، ليعود ويبرز الآن، بيد أنه هذه المرة مختلف، وأقل تأثيراً، لكنه أقوى وأكثر رسوخاً في مجتمع يمجد النرجسية والحواس والعاطفة والكتمان على حساب حب الغير والمنطق والقيم الدينية. سوف نحلل ظاهرة الشغف، لنرى كيف نشفى منها، ونبني علاقة تشعل جذوة الحب في قلوبنا.

الحب الجسدي أو الحب الروحاني؟

أسطورة تريستان وإيزولت

يشدد دونيس دي روجمون على هذا التناقض: «لماذا نفضل ما يجرحنا ويثيرنا، على ما يُشبع مثالية حياتنا المتجانسة؟»[53]. ما هي أسباب أزمات العلاقات وارتفاع عدد حالات الزنى، خصوصاً عند النساء، وحالات الطلاق؟ هل إننا أسرى فكرة عن الحب، تجعل من الرابط الدائم أمراً غير محتمل؟ من أين تأتي التعاسة؟ بحسب روجمون، هي تتأصل في أسطورة الزنى الأوروبية الكبيرة le Roman de Tristan et Iseult، حيث الشغف يحجب الرغبة في الموت.

قتل تريستان اليتيم مارداً أيرلنديًّا، لكنه أصيب بطعنة سيف مسمّة. اعتنت به إيزولت وداوته، لكن كان على تريستان اصطحابها عند الملك مارك، زوجها الموعود. خلال الرحلة، احتسيا شراب المحبة ومارسا الحب. عرف الملك بهذه الغلطة ونفى تريستان، الذي واجه العديد من الحيل والعوائق إلى أن حرّر إيزولت. وبعد أن عاشا ثلاث سنين في الغابة، فاجأهما الملك مارك وهما نائمان، وطعنهما بالسيف. رأى فيه علامة عفة وبدّل سيف تريستان بسيفه. اختفى أثر شراب المحبة: عادت إيزولت إلى القصر، بيد أن الحبيبين استمرّا في اللقاء سراً إلى أن تزوج تريستان بإيزولت أخرى وتركها عذراء. وعندما أشرف تريستان على الموت، سارعت إيزولت إلى تقبيله وماتت. هذه القصة التي تشيد بالزنى من دون مراعاة النظام الاجتماعي، تخفي لعبتها وراء سلسلة من العوائق والرموز. يؤدي البحث عما هو مثالي إلى تعاسة الحبيبين. لم يكن الحب ما شجّعهما بل «حب الحب». «من دون أن يعيا، لم يشاءا سوى الموت»[54]. كان شراب المحبة «الحجة» التي سمحت لهما بعدم الشعور بالمسؤولية حيال هذا «القدر المميت». «ذهب تريستان أبعد من سعادتنا وآلامنا. انطلق نحو الوقت السامي حين يكمن الفرح الكامل في الغرق»[55].

«لمَ نفضل من بين كافة الروايات، روايات الحب المستحيل؟ لأننا نحب أن يحرقنا لهيب الحب وشعور ما يشتعل دواخلنا (...). فالحنين والذكرى، وليس وجود الآخر، ما يحرك أحاسيسنا»[56]. أحبّ تريستان وإيزولت الآخر «من خلال نفسيهما لا من خلال الآخر. نبعت تعاستهما من تبادل خاطئ، قناع نرجسيتين (...). كان الاقتراب من الموت محرّك اللّذات الجسدية». بحثا عن الحب الجسدي الذي لا يُشبع رغباتنا إلا ليضحّي بها. كشف دونيس دي روجمون النقاب عن أعماق الوثنية التي ارتكزت عليها الأسطورة. بالمقابل، في المسيحية، «ليس الموت النهاية، بل (...) بداية حياة جديدة»[57]. يحقق الإنسان ذاته من خلال حب القريب: «يصبح الحب عملية إيجابية، عملية تحوّل... وتخلّ عن الأناني (...). بهذا الحب... نحب الآخر كما هو (...) في شدّته وفي رجائه (...). وفضلاً عن ذلك، يكون هذا الحب سعيداً»[58]. هذا الحب هو الحب الروحاني Agapè.

يفسر دونيس دي روجمون أن «الزواج المسيحي، عندما يصبح سراً مقدساً، يفرض مبدأ وفاء لا يتحمله الإنسان الطبيعي (...). ظهر الحب المبني على الشغف في الغرب في النفوس التي لا تزال الوثنية الطبيعية والموروثة تسكنها، كأحد ردود الفعل للمسيحية»[59]. وعلى عكس المسيحية، أتت نظريات التروبادوريين التي استوحيت منها أسطورة تريستان وإيزولت من المانوية. هذه

البدعة المسيحية تشيد بالطهارة وتدين الزواج والجنسانية. «ليس الحب الشغفي في أيامنا هذه الذي تبسّطه الروايات والأفلام سوى ارتداد وظهور فوضوي في حيواتنا لبدعة روحانية قد أضعنا مفتاحها. فما يؤدي أصلاً إلى الأزمات الزوجية، هو النزاع بين تقليدين دينيين»[60]. إن كانت هذه البدعة ترمي إلى زيادة حدة الإحساس والإشادة بالنرجسية وتصل إلى الموت، فالدين المسيحي يشيد بالحب من دون مقابل.

أسطورة تعبر الزمن

بالنسبة إلى دونيس دي روجمون، «كافة الفنون الأدبية (...) عبارة عن مجموعة المحاولات اليائسة التي يقوم بها الحب الجسدي Eros لاستبدال السموّ الروحاني بقوة انفعالية»[61]. أحيا «روميو وجولييت» أسطورة تريستان. أخضع راسين شخصياته لمصير رهيب حيث «الموت شهادة تجلّ»[62]. يقول دون جوان: «إنه جشع متكبّر لشباب يتجدد في كل لقاء، هو ضعف سري لمن لا يستطيع الامتلاك، لأنه ليس أهلاً لذلك»[63]. وبالنسبة إلى ساد، اللذة والألم شعوران متوافقان. أعاد روسو إحياء أسطورة تريستان، محجوبة «بدموع شجاعة». وبحسب الرومانسيين، تفتقر الأسطورة إلى القدسية لأنها لا تحتفظ سوى «بتدمير ذاتي شهواني للـ «أنا». وفي كتاب Lys dans la vallée à Adolphe تختفي القدسية، لكن الأوهام وفشل الحب تصمد. ويعتبر ستاندال أن العالم الذي يعيش فيه «يُدين» الشغف وهو يعلّله في بحثه De l'amour، ويعظّم النفسي. في كتب Tristan لواغنر، وMadame Bovary، وThérèse Raquin، وLa Porte étroite، وUn amour de Swann، نجد ثوابت مدمّرة للأسطورة Anna Karénine، وخير مثال على الحب المبني على الشغف الذي يؤدي إلى الموت. في الروايات التي توقفنا عندها، الشغف «علّة الغريزة، هو مرض نادراً ما يقتل، لكنه مسمٌّ ومحزنٌ باستمرار»[64]. يُحكى في أسطورة تريستان عن الخيانة الزوجية والعاطفية والتبرجز، شأن هذه الأفلام الأميركية التي تكون نهايتها سعيدة. لقد فخّم لورنس وكالدويل وميلر، وهم روائيون أنكلوسكسونيون عاشوا ما بين الحربين، «حيل الغريزة الحيوانية، واستيلاء الشهوانية الجنسية بالكامل على الروح»[65]. ويشير دونيس دي روجمون عند الروائيين المعاصرين إلى «هذا التحليل الحمئي لشكوكنا وفراغنا»[66]. وقد كانت هذه الحيرة في الأحاسيس التي، على الرغم من ذلك، ركيزة لفن أدبي جميل.

رهان الوفاء

ما زلنا نعيش تحت تأثير نموذجين: بدعة القرون الوسطى التي تعارض الزواج وتتبع مفهوم الحب الجسدي، والمعتقد. فالنموذج الأول يدفعنا إلى الاعتقاد أنه لا طعم للحياة من دون الشغف، والآخر يقول إن الارتباط هو المبتغى. وبالنسبة إلى دونيس دي روجمون، لا ترتبط السعادة بالتملك والاستئثار، بل بميزة معينة من الوجود. «تلغم» أحلامنا بالشغف نجاح وحدتنا. «الشغف

شكل من التسميم، هو مرض يصيب النفس (...). إن الزوج الذي يتألم جراء الجمال الذي يصادفه عند نساء أخريات، والحاظي بجمال خاص، لا يعرف كيف يمتلك أو يحب ما لديه في الحقيقة. ويكون بذلك قد فقد أهم شيء: معنى الوفاء. (يملك الحبيب) وجوداً منفصلاً لا مثيل له، هو وجود لحب فعّال»[67].

لا يقترح دونيس دي روجمون أي حلّ، بيد أنه يقترح «خياراً يحدد الوجود»[68]. الزواج هو أولاً رهان يُدخل فيه حياة بأكملها. وفي ما يتعلق بالوفاء الذي سنتطرق إليه لاحقاً، هو «أقل فضيلة فطرية (...)، ومجهود يفوق القدرة البشرية (...)، بعكس قيم اليوم»، كما يرى فيه دي ريجمون «اللاامتثالية الأعمق»[69].

الانطلاق نحو النيرفانا: الأمور تسير بسرعة فائقة

في زمن الرسائل الخلوية والإنترنت وأشكال اللقاء الجديدة التي يعدّدها ويلي باسيني - المواعدة السريعة والمحادثات عبر الإنترنت واللقاءات الجنسية العشوائية المرتّبة والممارسات الجنسية العامة[70] - هل فقدت الجاذبية سحرها؟ يحتاج الحب إلى الوقت، وإلى مراحل ضرورية للتعارف، والصبر، وهو من دونها لا يحظى بوقت كي يظهر. ولكثرة البحث عن الأحاسيس القوية فقط، يعتزل القلب الغرام. في المقابل، تبيّن وفرة وسائل التواصل غياباً للحوار، والإفراط في الممارسات الجنسية، وانطواءً على الذات. لمَ هذا الإفراط؟ لا شكّ في أن مردّ ذلك أولاً إلى تدنّي نسبة العوائق، فالموانع الاجتماعية والدينية أصبحت أقل. هذا أيضاً لأن التجربة لا تُفسر الآن على أنها خطيئة، ونحن نراها في زاوية كل شارع، وفي المجلات، وعلى شاشات التلفزة. ويميل هذا الإفراط في الصور إلى جعل الآخر مجرد جسد، أو مجرد غرض استهلاك متداول. فضلاً عن ذلك، يعتبر بعض الباحثين أن الرغبة هي عبارة عن تفاعل كيميائي داخلي بشكل رئيسي. نعلم جميعنا أن الإنسان، خلال مراحل تطوره، هو من الثدييات التي تستخدم مجموعة واسعة من الإشارات لإعجاب الآخر وإثارة رغبته. وهذه الإشارات من كل الأنواع، إلى درجة أنه ما من أحد استطاع حتى الآن وضع لائحة شاملة بها. ترافق الروائح عدة عناصر أخرى: المظهر والبيئة والكلمة وحسّ الفكاهة... وتختلف الإشارات باختلاف الفئات الاجتماعية والثقافات... إلخ. وهي، عندما تمتزج جيداً، لا تهدف سوى إلى إثارة الرغبة. ويفسر هذا المحفّز، هذا الإفراز للفينيل إتيلامين، خصوصاً عند المرأة التي تفرز أوسيتوسين أكثر، بشكل جزئي أن الرغبة تقلّ عندما تتقلص الإفرازات. لكن، لا يمكننا أن نجعل من ممارسة الحب درس فيزياء أو كيمياء. وحده الحب يحوّلنا، أكثر بكثير مما تقوم به غرائزنا. ويؤدي الحب الوهمي والسريع والغريزي في أغلبية الأحيان إلى آلام متتالية وانطواء على الذات وتدمير ذاتي...

عندما نتحمّس للفكرة

في بداية الحب، لا نرى الخطر الذي قد يواجهنا. نسير بحسب الرياح من دون أن نقلق بشأن الصخور التي قد تعترض مركبنا. هل سننجو في اللحظة الأخيرة أم سنغرق؟ تتهيأ كافة حواسنا لملذات التخلي، ينادي جسدنا الآخر، فهناك فيض من الطاقة يربطنا به. هذه الهمسات وهذه الكلمات ذات الرموز والكلمات الشائعة والجريئة، وهذه الرسائل الهاتفية، تشد من أزر روابط قد نظنها لا تتغيّر. تنكشف الأجساد «بشراهة» بحثاً عن اللذة ضمن انصهار كامل، حيث يكون «الواحد هو الآخر»، بحسب إليزابيت بادينتر. في الشغف الجسدي، تكون اللذة قوية إلى درجة تبدو أنها مسروقة. ويبيّن هذا الجنون بين الجسدين شهوة لا ريب فيها. قد نكون متجمدين أو يعوقنا عائق، فنصبح فجأة قادرين على اتخاذ كافة المبادرات، ونتجرأ على القيام بأي أمر. الحيوان، الحيوان... ليست اللذة الجنسية محاطة بأي إطار، هي تسخر من الارتباطات: كل شيء يجري من دون عائق، يستجيب لأوامر اللاوعي المتواصلة: «استمتع!»، الشغف شعور متمرد ونزوي وخاطف السرعة، لا يتبع أي قاعدة. بطبيعته، يحمل فيه «جرثومة» نهايته.

يتأرجح الحب في الشغف عندما يصبح الاشتياق لا يُحتمل. ووفق مارسيل شنايدر: «نشتاق إلى الآخر حتى في وجوده»[71]. الشغف مرض يصيب الحب. هو إشارة انزعاج. لا يكون الآخر هو الموضوع بقدر ما هو الغرض. ويُفترض به أن يؤمّن لي كل ما أحتاج إليه، فأجعل منه مثالاً لي، وأُنزل من قيمتي وأنتظره. «يفرض عليّ قلق الانتظار هذا، بصفائه، أن أجلس بالقرب من الهاتف من دون أن أفعل أي شيء»[72]. يزيد القلق مع ازدياد غياب الحبيب. هل أكشف له عن حبي؟ أم أخفي اضطرابي؟ توقظ خشية التخلي الخوف الطفولي من النبذ. يفترض بالآخر أن يسدّ نقصنا. ونحن نبحث في وجهه عن صورتنا الخاصة، وصورة أمنا المثالية. يولّد هذا التطلّع الخيالي اللاتناسق. كلما تحمّس أحد الشريكين ولحق بالآخر، ابتعد هذا الآخر أكثر. ونحن، إذ نخضع وننحصر بوجود هذا الآخر الذي يشغل أفكارنا، ننسى الكون بما فيه، ونفقد السيطرة. نفعل المستحيل للفت انتباهه والحصول على لحظات حب، كما لو أننا نريد أن نتعذب أكثر.

حلّل مارك فايور[73] «تعلّقنا وقصورنا العاطفي وقصورنا الجنسي واللعبي»[74]. يفسر أن «بعض النساء يقعن ضحية لما يجعلهن ضحية». هنّ النساء اللواتي يبالغن في الحب، واللواتي يصفهن روبن نونوود جيداً في كتابه Ces femmes qui aiment trop[75]. النساء اللواتي يسامحن أي شيء، حتى العنف؛ النساء اللواتي يتوقعن أن يتغير الشريك فيكنّ سجينات للتعلق العاطفي[76].

كلما سلبنا الآخرُ شخصيتنا وحرمنا مما نحن عليه أكثر، أصبحنا أكثر تحت تأثيره. عرفت فيدر هذا القلق الشديد الذي جعلها هيبوليت تحس به: «رأيته، وفي هذه اللحظة احمررت، واصفررت». وتروي آني إيرنو قصة حبها في كتاب Passion simple: «منذ شهر أيلول/ سبتمبر من السنة المنصرمة، لم أفعل شيئاً سوى انتظار رجل: أن يتصل بي وأن يأتي إليّ»[77]. وخلال هذا التفحص الدقيق لحبها، تتطرق إلى «توترها المؤلم»، وإلى أرقها، وإلى حاجتها الدائمة إلى «تذكر كل شيء»: السرير والغرفة والتواريخ... إلى درجة الرغبة في «الرجوع في الزمن إلى

الوراء». كان كتاب La fin d’une passion أشبه بحداد. قد يوصلنا الحب الشغفي إلى حالات قصوى كما في Liaison fatale، أو حتى إلى ارتكاب جريمة وفق ما يظنه بيرتران كانتا. تظهر الشهوة التي تدمر الذات على أنها فخ: «يصبح الآخر الدواء الوحيد للألم الذي يتسبب فيه»[78] (مارسيل شنايدر). عندما لا نتحمل المزيد من العذاب، نبحث عن ملاذ للفرار من هذا السجن: الضوَر، الانهيار العصبي، السفر، الإبداع، العلاج، الانتحار... وبحسب رولان بارت: «إنه استيهام دور آخر: دور من يود التخلص من حالة الألم»[79].

قصة شغف

التقت ناتالي، وهي امرأة متزوجة ولديها ولدان، بجويل، عند بعض الأصدقاء. وهو، إذ كان متأهلاً أيضاً، يحمل في داخله عالماً ثقافياً أكثر تشويقاً من عالمها كمترجمة. كان حباً من النظرة الأولى، فراحا يلتقيان في الفنادق... ما إن يرنّ الهاتف، حتى أقفز من مكاني. كنت أحتفظ بهاتفي المحمول بالقرب مني، حتى عند دخولي الحمام. عندما لا يتصل، كنت أبكي؛ وعندما أنتظر لسماع صوته، كنت أرتجف. ثم أصبح من الصعب الوصول إليه. ودّعني قائلاً: «قررت أن أصبح عاقلاً». دخلت حينها في دوّامة لامتناهية من الانتظار. كنت أكتب له وأحلم بلقائنا وبحياتنا المستقبلية معاً. كنت أرتدي ثياباً مثيرة وأقف أمام مكتبه. وفي مرة من المرات، نجحت في جلبه معي إلى الفندق مجدداً، ودفعت مسبقاً كي لا يبدّل رأيه. تنازلت كثيراً. الفظاعة تحدث يوم نعي أننا لا نحتمل من كنا نراه مثالاً لنا. في يوم من الأيام، التقيت به صدفة على الرصيف، فتظاهر بأنه لا يعرفني. حتى أنه راح يتهرّب كي لا يراني. في الواقع، لم تأت قط في رأسه فكرة هجر زوجته من أجلي. تسكنني جملة صغيرة قالها لي عندما اتصلت به: «رجّحت كفة ميزاني إلى الجهة الأخرى». شعرت بأنني بائسة. وددت في أعماقي لو أكون في منزلة زوجته. كان حبه لها ما جذبني. أظن أيضاً أنه يذكّرني بوالدي[80]».

العودة نحو المستقبل الخروج من المضلّة

الشغف، أو بكل بساطة «خطأ الشباب»، هو انطلاقة خاطئة قد توجد توازناً، وولادة جديدة، ورحلة أفضل، وأنضج... وبرغم ذلك، أليس عيش حالة من الحب الشغفي الطريقة الأفضل للتعقّل؟ كتبت إيزابيل يويل: «إن لم يكن بديهياً دائماً تحويل الشريك الجنسي المثالي إلى شريك الحياة، لربما يجب أن ندرك كيف نستمتع بفرصة الحب الجسدي الذي يمنحنا فرصة الغوص أكثر في أعماقنا لاكتشاف مساحات كانت لتكون مجهولة»[81]. الوقت والعلاج حليفان مناسبان للشفاء من حالة حب شغفي. إذاً، يتعلق الأمر باستعادة الثقة بالنفس على مهل، بأن نتعلّم كيف نحب أنفسنا من جديد، بأن نعي رغباتنا كي نستقل عن الآخر. باختصار، أن نتوازن وأن نملأ جعبتنا من جديد قبل الانطلاق في مغامرة ما كي لا نقع في المستقبل.

يعلّمنا الحب الشغفي الكثير عن أنفسنا

يساعدنا الحب الشغفي على تخطي حدودنا. هو يساعدنا على قراءة ما يكمن في داخلنا. فبدلاً من أن نتّهم من خاننا وتخلّى عنا، أليس أفضل أن نسأل عما يجذبنا إليه: هل هو مهنته أم نجاحه؟ وماذا لو نستولي على القليل من قوته عوضاً عن التجرد من قوتنا؟ فلنستغرق وقتاً لنبني ذواتنا من جديد، ولنضع مسافة بين المأساة وبيننا نحن. وماذا لو أخذنا بنصيحة معلّم جيد: «عامل نفسك كما تحب أن يعاملك غيرك»[82]؟ فلنتوقف عن ندب مصيرنا ولنهتم لأنفسنا، ولندعم ذواتنا بالثقة والاعتبار اللذين لم يمنحنا إياهما الآخر. إننا نتجرد من قيمنا بسرعة؛ ونحكم بقسوة على أنفسنا، في حين أن علينا أن نجد في دواخلنا «الأم الجيدة» التي تعطينا اعتباراً وتؤمن بنا، وليس «الأب الصارم» والقاسي. إننا نستحق أحياناً أكثر بكثير مما نظنّه. فأول شخص علينا أن نحبه «بعناية وتقمص عاطفي» هو «نحن». إن لم نكن متيقظين إلى ذواتنا، فكيف للآخر أن يكون كذلك؟ تعني عبارة «أحبَّ قريبك كما تحب نفسك»: «أحبَّ نفسك أولاً، واقبل عواطفك وقيمك لتتمكن من الشغف بغيرك حقاً».

قبل أن ننطلق في مغامرة جديدة ممكنة، علينا أن ندرس الوضع جيداً كي نجعل الآخر يرغب فينا. تظن كارولين ن. بوشونغ أن «معظم الرجال لا يعيرون قيمة لما يقدَّم إليهم على طبق من فضة... فممارسة الحب قبل الأوان تجعل علاقة الشريكين هشة»[83]، كما تنصح بعدم ممارسة الحب إلا عند بلوغ مرحلة التوظيف العاطفي. فلنحافظ على حريتنا ونستمر في الخروج مع أصدقائنا ورؤية عائلتنا من دون أن «نزخرف» شيئاً. فلنقبل احتمال وقوعنا في الحب قبل إدراك غرض رغبتنا. فلنبتعد عن فكرة الخوف من خيبة أمل جديدة. لنُبقِ في ذهننا إمكانية الفشل، علماً بأن المهم في الأمر هو ألا نتجرد من شخصيتنا. كيف لنا أن نتنبأ بمستقبل علاقة ما إن لم نستثمر أنفسنا. «إن لم نعطِ هذه العلاقة كافة الفرص كي تتطور؟ (...) لمَ العيش مع شريك أمر أكثر تعقيداً من العيش من دون شريك»؟[84] (فلافيا مازلين سالفي). الحياة بحد ذاتها مصدر اكتشافات كثيرة. «لدينا خيار ما بين البقاء إلى جانب حياتنا أو الغرف فيها من كافة نواحيها (...). هذا الخيار متوفر لنا أيضاً في حياتنا مع الشريك»[85]. أن نقول «نعم» للحياة، هو أن نقول «نعم» للحب، بالبساطة عينها والحرية نفسها اللتين تكمنان في التخلص من مفهوم الارتباط الأبدي وتفضيل لذة الاكتشاف يوماً بيوم. في بعض الأحيان، قد تكون حالة حب عابرة ذات قيمة أهم من أي عهود كبيرة.

من يحوّلون الشغف إلى حب...

إننا نجعل الآخر مثالياً إلى درجة تخمد شرارة الشغف، فنادرون هم من يحوّلونها إلى حب. «كيف لنا أن نسيطر على لجام حصان مجنون؟ (...) إن كان البحر هائجاً، نَخَفْ على حيواتنا فتتضاعف قوانا»[86]. عندما ننجح في تخطي الإعصار، نكون قد نجونا. وبحسب ويلي باسيني: «العبور في العلاقة إلى مرحلة الحب غير معقول من دون تخطي مرحلة المثالية، ما يعني اختيار

الآخر مرة جديدة، لما فيه من عيوب وميزات معاً»[87]. فالانتقال من الحب المجنون إلى الحب الحقيقي، «من الحب الحرّاق إلى الحب الدافئ»[88]، بمثابة فن عيش يفترض ميزة التخلي والقبول وميزة تقبل تخطي الصعوبات. وتتلخص مسألة الثنائي في ما يلي: هل الرابط الزوجي الذي يحلّ مكان الحب الشغفي ذو قيمة أدنى؟ لا يتمتع بالحدة الساطعة نفسها، قد يقترب من الصداقة والودّ - أفضّل التقمص العاطفي - لكنه قد يدوم شرط الحفاظ على هذا الجزء من الغموض والحرية واللعب والخيال. خلاصة الأمر، يجب الاستيلاء على كامل الطاقة الكامنة في هذه المعطيات للاستفادة أكثر من الحياة الزوجية. غموضك، حريتي، لعبتنا. ليس علينا أن نُباغَت بأي أمر، أو ندع الروتين يسيطر منذ البداية.

أحسّ أوليفييه بحب كبير تجاه لورا. بعد خمس عشرة سنة، بقي هذا الحب على ما هو عليه. كيف نفسر هذا الأمر؟ تكمن إحدى الوسائل المتوفرة لنا للعبور من سكرة الحب الأولى إلى الحب الدائم، في تنظيم مراحل الإعراب عن الحب: القيام بتبادل شهواني وجنسي يرتكز على أساس من الحب يخصّ هذين الحبيبين فقط؛ فهما قبلا إدخال حبّهما عبر الزمن. نكشف بعضنا، أنا وزوجتي، من دون أن ندع شهواتنا الجنسية تسيطر علينا. ليس الجانب الحيواني خاضعاً للاستعجال، نحن نحترم بعضنا، ونكتشف بعضنا، ونحسّ لحظة يرغب الآخر في ممارسة الحب. الرغبة تبقى دائماً موجودة بعنف وقوية جداً. إنها المرأة نفسها على الدوام والمختلفة على الدوام. نحن لا نكفّ عن امتلاك جسد الآخر في كل مرة من خلال ألعاب ما. تنشّط روح الدعابة في الرابط بين أي ثنائي، الرغبة. تختفي المخاطر وتصبح السعادة خبزنا اليومي.

قد يكون الحب صلة اختيارية. يكون الوقوع في الحب أقل شدّة من الشغف، ويكون بشكل خاص ذا أثر تدميري أخف، وهو يحدث بطريقة غير متوقعة، «فيصبح معرفة حقيقية لا مجرد حلم»[89]. كي نجعل الحب يدوم، علينا تدعيمه بميزات الصداقة، ألا وهي العطاء من دون مقابل والثقة المتبادلة والتقدير، بالإضافة إلى قوة الابتكار والمفاجأة، وخصوصاً روح الفكاهة والحماسة

الفصل الرابع

القصة التأسيسية

كيف نعبر من حالة الحب إلى مرحلة الحب المعمّر؟ إننا نمر في عدد من الاختبارات التلقينية. قد يحدث، جراء النضوج غير الكافي، أن نشعر بأننا غير مستقلين كفاية، وغير مهيئين للأمر. يخيّب الشريك ظننا. هو أيضاً ليس جاهزاً للنظر إلينا بطريقة مختلفة. منذ الضغوطات الأولى، والانزعاجات الأولى، يتعب أحد الشريكين ويجرجر قدميه وينفر وينتقد ويضع حاجزاً. وبعد أن تعييه الحيلة، ينتهي به الأمر برفض العلاقة، فنتساءل: «هل الخطأ خطؤنا؟». وكي نواسي أنفسنا، نتّهم الآخر قائلين: لا بد من أنه كان عبئاً، ومصدر ألم. تحجب هذه الأعذار عدم القدرة على الارتباط، أو أيضاً شعوراً بالذنب يزعجنا. وعلى الرغم من ذلك كله، يسكننا انطباع بأن أمراً ما ليس على ما يرام فينا، خصوصاً إن كانت حالات الفسخ تتالى. لمَ لا ينجح الأمر؟ نأمل أخيراً أن نجد من «يلبي تطلعاتنا». فبدلاً من أن نضجر، علينا أن نبني ذواتنا، وأن نضع مشاريع. لن تحظى العلاقة بفرص التحوّل إلى قصة جميلة إلا إذا بدأنا بجعل أنفسنا سعداء. تتساءل إيزابيل يويل عن الميزات الضرورية للعبور من مرحلة التيهان إلى مرحلة الثبات، وتجيب قائلة: «على الأرجح، هي الثقة والحزم في الاقتناعات»[90]. في الواقع، يعتمد قرار العيش مع شريك على قدرتنا على مقاومة الخوف من الحب، وعلى معنى السعادة بالنسبة إلينا. إننا نختبر أنفسنا من خلال اختبارات من الواقع. وفي وقت من الأوقات، علينا أن نتوقف عن الشك، وعن طرح الكثير من الأسئلة على ذواتنا، وعن فرض الشروط، وذلك كي نؤمن بالآخر وبذواتنا. فلن يكون أي مشروع مشترك ممكناً إلا إن كان مشروع كل شريك يتوافق مع مشروع الآخر.

نقع أحياناً في الحب خلال فترة ما من التغيير، أو الانفصال عن روابط قديمة، كما لو كان الأمر صدفة؛ وعندما نتحرر من الوصاية الأبوية، وندخل الجامعة، ثم نخوض ميدان العمل، ونغيّر عملنا أو مكاننا. قد يكون هذا الآخر زميلاً لنا، أو صديقاً لأحد أصدقائنا... في معظم الأحيان، يكون اللقاء بمثابة تطوّر لنا، هو يوقظه ويعززه ويسرّعه... نشعر تجاه هذا الآخر بمزيج من الودّ والألفة. نشعر بارتياح معه، ونتكلم معاً على مشاريعنا، ونكتشف في بعضنا البعض نقاطاً مشتركة. يحصل كل شيء كما لو أننا لطالما شاركنا في ذلك من دون أن نعرف ذواتنا. نحس بأن المسألة ليست مجرد

مغامرة عابرة. يحمل أي ثنائي جديد في داخله، ديناميكية خلق عالم خاص به من جديد، وطريقة عيش توافقه، بعيدة عن تلك التي يعيشها كل واحد في العائلة. هذا الشعور بالابتكار والعيش بطريقة مختلفة، يعجبنا، ويسمح لنا بأن نؤمن بأن من حقنا أخيراً أن نعيش بكل معنى الكلمة. يمرّ شهر، ثم ثلاثة، ونتفاجأ بأننا على وفاق يتزايد أكثر فأكثر مع الآخر.

هل أنتم مستعدون للإبحار؟ كالرغبة في السفر...

قبل اتخاذ قرار العيش مع الشريك، تبرز الفكرة على مهل، خصوصاً عند النساء، فنعرف أنفسنا أكثر. هناك تلميحات صغيرة. هي طريقة لنتعانق، نتبادل النظرات... والوعود. أما «ذخائر» بعض أعضاء العائلة فتوطّد العلاقات. تُطلب اليد للزواج بطريقة ظريفة، أو بإعلان رومانسي. على كل واحد إذاً، أن يحصّن نفسه بالوسائل الضرورية التي تطيل سحر الأشهر الأولى، فتنغرز في الزمن.

الوحدات الجديدة

لقد حسمنا أمرنا، واتخذنا قرارنا: سوف نعيش معاً. يزداد عدد الأشخاص الذين يختارون «المساكنة الصبوية»، و«الزواج التجريبي»، والمساكنة، حيث الوحدة حرة من دون «خاتم». لمَ الزواج إذاً إن كنا نستطيع أن نعيش معاً من دون شكليات أو احتفالات؟ يحافظ هذا الخيار على الاستقلالية مع القليل من الموانع. غالباً ما يكون الطفل سبباً لإعلان هذه الوحدة رسمياً. لنتطرق إلى ظاهرة جديدة، هي «الثنائي الصغير»، وهو ثنائي انصهاري نوعاً ما، يتألف من شبان يتحدون موقتاً، إن بفعل تأثير عائلتهم، أو بحثاً عن الأمان في مجتمع لا يلبث أن يقوّض الاستقرار. يرى العلماء الاجتماعيون في تعميم الوحدات الحرة ظهوراً لهمّ «الخصخصة»، أي إرادة الزوجين بالانتظام كما يريانه مناسباً، من دون أن تهيمن عليهما المؤسسة الزوجية. مدهشٌ أن من يرفضون الزواج يعيشون علاقة أطول من أي ثنائي يزعم الثبات. غريب أن هشاشة أي ثنائي (التي تُترجم عادةً بفسخ للعلاقة سابق لأوانه)، ترتبط بفكرة أن الحب أزلي.

يزداد عدد الشركاء الذين يختارون العيش في مساكن منفصلة، أو الذين يلجأون إلى حلول مختلطة: المساكنة المتقطعة أو المتناوبة: «إننا معاً، لكنَّ كلاً منا يعيش على حدة!». تكمن حسنة الأمر في أن نمط الحياة والعادات والعلاقات لا تتغيّر البتة، كما أننا نتفادى بذلك الخلافات والتشويش وتضليل الذات مجدداً. إنه نمط حياة معادٍ للبرجوازية، وهو قد أصبح ممكناً منذ أن بدأت النساء يعملن. هو حلٌّ موقت قد يمتد لأعوام: إنه يسمح بتفادي جزء كبير من العقبات اليومية ويسهّل التلاقي من جديد. لكلّ مساحته ومنظمته. هذا التغيير رد فعل سليم بالنسبة إلى مؤسسة الثنائي الانصهاري. ويبرز همٌّ وحيد هو مضاعفة كل شيء: الأدوات المنزلية، الفواتير... مع مسكنين، تبقى هذه الوسيلة ترفاً! كان سان إكزوبيري يعيش في شقة كبيرة فارغة لا يملأها سوى بطاقات جوية. أما زوجته، كونسويلو، فقطنت في طبقة أخرى، في شقة باروكيّة تعجّ بالأثاث. ميشال مورغان وجيرار أوري، بيار أرديتي وإفلين بويكس، فرانسوا آردي وجاك دوترون، خير أمثلة عن الثنائي المتحد، حيث عاش كل من الشريكين وحده. يفترض مجيء الأطفال إلى العالم تشاركاً في

المهمات، القليلة التوازن أحياناً. تعيش ماري وحدها مع أولادها من زواجها الأول، ولا ترى شريكها سوى يومين في الأسبوع. هي تعاني من واجب «تحمّل كافة المسؤوليات»، وتشتكي من أن حبيبها لا يشاركها همومها المهنية، كأنها على وشك لومه على أنانيته.

هذه الطرق الموقتة التي تؤدي إلى تشتّت العائلة (الأحادية الأبوين أو المعاد تشكيلها)، تنطبق على خيار يُتداول أكثر فأكثر: هو فصل أدوار الأبوين والحبيب. يزداد عدد النساء اللواتي يربين وحدهن أولادهن من بعد الانفصال عن أزواجهن، واللواتي يحظين بحبيب. فلا يعيش الأولاد ضمن ثنائي، ولا سيما أن أي ثنائي يجد صعوبة في تحديد قواعد اللعب خارج الزواج. في الواقع، في حين أن 20% من العلاقات الحرة تنتهي بالزواج، يكون مصير البقية إما الانفصال وإما المساكنة.

يفرض العيش في الشقة عينها، حيث كل من الشريكين يساهم في النفقات، تشارُكَ المسائل والتسوّق أحياناً وتقبّل ضغوطات العيش مع الآخر. بحسب العالم الاجتماعي جان بول كوفمان، يُعتبر الثنائي قائماً بحد ذاته عند شراء غسالة. وهذه الحياة الثنائية التجريبية، لفترة إيجار أو لفترتين، وسيلة ممتازة لاختبار قدرات المقاومة، وهي طريقة ذكية للتعرف إلى الشريك أكثر، وخصوصاً لمواجهة آلاف الحوادث اليومية. هي أشبه بارتباط أولي، لكن من دون إرادة تخطي العوائق، تتجه أحياناً نحو الفشل. فضلاً عن ذلك، ما إن تنشأ رغبة الإيمان بقصة ثنائية، حتى تمتد العلاقة... أحياناً إلى حياة بأكملها. اليوم، وبفضل الحسنات الضريبية، تزداد هذه الحالات. هذه الطريقة هي في الحقيقة حل وسط، وتسوية بين المساكنة والزواج. يطالب مثليّو الجنس أكثر فأكثر بحق الزواج، ما يشير إلى أن الشكل التقليدي لم يفقد صلاحيته.

الزواج: تذكرة ذهاب من دون إياب

يبقى الزواج، باعتباره مرحلة انتقالية، ارتباطاً رسمياً، وخيار وحدةٍ تسعى إلى الدوام. وفي مجتمع، وحده الحب فيه هو المثال، ما معنى هذه المؤسسة؟ هل هي ضمانة للحفاظ على علاقة حصرية، وطريقة للاستقرار، والحصول على تأمين على الحياة، وارتقاء في المجتمع، ومصدر استقرار، ووقاية من مرض الأيدز، وسرّ مقدس، والتزام قانوني؟ يلزمنا الزواج، وهو عقد اجتماعي وعقد حبي، بنظر العالم ونظر من نحب. ليس للمؤسسة معنى إلا في حال كانت «حارسة عهد البداية ووريثته»[91]، بحسب ألبيروني. هل يتعلق الأمر برهان، أم بطيش، أم بمخاطرة؟ قد يكون الزواج آخر مغامرة إنسانية تدخل في إطار الزمن. هو جزء من هذه القيم المناقضة التي تتحدى عدم خلود الأشياء. وسواء أكان مدنياً أم دينياً، فهو يعرب عن مشيئة الاتحاد بنظر القانون. إنه يرتكز على الثقة التي نوليها للعهد، ويرمز إلى شكل «علماني» لما هو مقدّس؛ هو يجبر ويتطلب «عوناً ومساعدة ووفاءً» ممن يقترنون به. الأمر مختلف تماماً بالنسبة إلى ميول القلب الذي صرّح به مارات لزوجته. عوضاً عن الزواج، فتح نافذة غرفته قائلاً: «ها نحن قد تزوجنا!». قام إفصاح بسيط من فمه مقام عقد مشترك. وبرغم أن المتطلبات الاجتماعية والقانونية وغيرها التي يفرضها

الزواج، مقبولة بحريّة، فهي تبقى حملاً. وفي الواقع، إن أخلّ أحد الشريكين بها، فعليه تحمّل مسؤولية «مخالفته» أمام القانون.

وبالنسبة إلى العديد من الشبان، الزواج مجرد إخراج، وتقليد، وانتقال من الرابط العائلي إلى رابط آخر يمنحهم لقب «الراشدين». هو طريقة لتوطيد رابط تتآكله الهشاشة أكثر فأكثر. قد يحدث أحياناً أن يتزوجوا كي يستطيعوا فسخ العلاقة على نحو أفضل. فسن الطلاق تنخفض مع الوقت، وأحياناً عقب بضعة أشهر من الارتباط! وحينها لا يبقى أي من الشريكين ابن فلان، أو ابنة فلان فقط، بل زوج فلانة أو زوجة فلان السابقة. الزواج بالنسبة إليهم جواز سفر لحياة راشدة، ومقفزٌ يثبون منه على انفراد.

في أيامنا هذه، لا يرى أي ثنائي شاب ضرورة لتنظيم المستقبل. في عالم من المنافسة، يرتبط عالم الزواج أحياناً باللامبالاة. من هنا، تنشأ خشية واجب التكرّس في حين أننا نطمح إلى أن نكون أكثر أنانية. إننا نود أن نعيش هذه اللحظات وأن نواجه أقل قدر ممكن من المخاطر. ولكثرة ما يعوم الثنائي على سطح المصاعب، ينتهي به الأمر إلى الغرق. وفي وقت ليس فيه للدين والعائلة والمهنة سمات ثابتة كما في السابق، يبقى الثنائي من أواخر البنى الثابتة ومغامرة تسمح لنا بأن نلمس حس المسؤولية، شرط أن نعي جيداً أن هذه البنية لا تزال قائمة، وأن نحرص على عدم تقليص الطاقة الضرورية لها.

الثنائي: شخصان يتحاكيان قصة لتأسيس وحدة جديدة

من خلال ارتباطنا بشخص من غير عائلتنا، نكون قد فسخنا النواة الأصلية. وتكمن فكرة روبير نوبرغر الرئيسية، في أن الثنائي ليس فقط مسألة حب، بل تغيير انتماء أيضاً. ويأتي لقاء الشريك والرغبة في تأسيس وحدة جديدة معه أحياناً في فترة من حياتنا نكون فيها قد انفصلنا عن العائلة، حيث نشعر بحاجة إلى بناء عائلة أخرى. تكون الوحدة حملاً علينا فنبحث عن روابط جديدة.

في السابق، كان المرء يتزوج للهرب من العائلة. أما اليوم، فحياة العزوبية تطول، والمرأة تفضل النجاح في مهنتها قبل العيش مع شريك. وثمة انتماءات أخرى غير العائلة: محيط العمل، الأصدقاء، الجمعيات... يشدد سيرج شوميه على «انتماءاتنا المتعددة» التي تخلط أوراق هوياتنا. في الواقع، إننا نتغير من خلال هذه الشبكات التي نشبكها من دون الارتباط بها. تكون هذه الروابط أحياناً قوية إلى درجة أن فكرة العيش مع شريك تصبح ثانوية. ويعتبر مارك محيطه المهني بمثابة عائلته الجديدة. أما إليز فانخرطت في المشاريع الإنسانية فباتت لا تستطيع الاستغناء عن سفراتها إلى أفريقيا... لكن في أعماق كل واحد، تبقى هذه الرغبة في عيش علاقة حميمة وحصرية.

إن الوحدة الجديدة، كي تتواجد فعلاً، بحاجة إلى الارتكاز على قصة تأسيسية، وإيجاد مصادفات تجعل من اللقاء مقدّراً. كتب روبير نوبرغر: كل شريكين بحاجة إلى التكلم معاً على أن وحدتهما فريدة من نوعها، وإلى الاعتقاد أن هذا اللقاء ليس صدفة. القصة التأسيسية عبارة عن حكاية يرويها كل شريكين لبعضهما البعض. ومن أجل تأسيس مجموعة ما، علينا أن نتمحور وننشئ مراكز جديدة، وإلا فسوف يبوء الأمر بالفشل. نجد القصص التأسيسية في كل المؤسسات:

القصة التأسيسية الخاصة بروما على سبيل المثال. في البداية، يحصل حدث أولي، والثنائي الذي لا يحظى بقصة تأسيسية لا يعمّر طويلاً.

في المقابل، كلما تعززت الروابط مع محيطنا العائلي، استطعنا أكثر الانفكاك عنها. وكلما قدرنا أكثر على بناء هويتنا، أصبحنا أكثر قدرة على بناء وحدة صغيرة مفعمة بالطاقة مجدداً. وإن حظينا بنموذج للوالدين المتحدين، يسهل علينا بناء قصة الثنائي المتين. وفي حال عانينا نقصاً في العاطفة، يصعب علينا الارتباط أكثر. لاحقاً، قد تنبعث من جديد مخاوفنا الطفولية، وتضرّ بحياتنا مع الحبيب. الجواب الحقيقي على نجاح الثنائي رابض في داخلنا: لا يمكننا أن نرفض الانصهار والمثالية والتطابق إلا إن وجدنا فينا الوحدة والتوازن. في الواقع، يدفعنا الآخر إلى التحرك، فتتطور علاقاتنا مع مجموعاتنا الانتمائية. علينا التخلّي عن بعضها والتضحية بروابط قديمة لنسج أخرى جديدة.

المُقلق في الأمر، هو أن هذا الانتقال يحدث بطريقة غير منطقية: «اللامنطق التأسيسي». القصة تجمع بين شخصين لم يربطهما أي رابط معيّن من قبل. «لحظة اتخاذ القرار (...) هي الكلمة الأولى من رمز خاص ذي استعمال داخلي بحت تكمن وظيفته في فصل الثنائي الذي يبصر النور عن بقية العالم (...). بالتالي، الثنائي عبارة عن شخصين يخبران بعضهما البعض أنهما يشكلان ثنائياً ويخلقان لهما حياة خاصة (...)، فينتهيان بالاعتقاد أن لقاءهما لم يكن مفاجئاً...»[92]. القصة التأسيسية هي، إذاً، المصير الذي ننسب لقاءنا إليه. «هو اختراع ضروري يعمّق العلاقة بين الشريكين. نجد أنفسنا في هذه الحالة في عالم اللامنطق، والفكر السحري، والشعر. هو خيال يجمع اثنين، نلتصق به من دون تراجع. نؤمن بهذا الاعتقاد الذي لا نعتبره اعتقاداً في وعينا، وإلا لما كنا آمنا به! على سبيل المثال: «يا للعجب، لعبنا في متنزه بوت - شومون طوال فترة طفولتنا ولم نكن نعرف بعضنا»؛ أو: «إننا من محبي نظام الاثني عشر صوتاً وأفلام درييز...»؛ «غريب أنني لم أكن آتياً هذا المساء، وفي النهاية جئت. شيء ما حثّني على المجيء. كنت أعلم أننا سنلتقي، كُتب لنا ذلك». تبقى هذه القصة حجر الأساس في كل ثنائي»[93]. تحكي كليمانتين قصة لقائها بفيكتور ضمن رواية، فتقول: كنت في الخامسة والعشرين من عمري، أحاول الخروج من قصة صعبة دامت خمس سنين. بدأت العمل كمصممة أزياء، وقررت التخلي عن هذا الرجل. كانت فترة انتقالية، فترة مليئة بالمغامرات التعيسة. كنت في شقتي، أشاهد التلفاز. رنّ الهاتف: كانت صديقتي، اتصلت بي لتعرض علي الذهاب إلى حفلة في إحدى الضواحي. رفضت، إذ كنت أرتدي ثياب النوم وكان الثلج يتساقط. بعد ساعة، وصلت صديقتي ولم يكن لي خيار آخر سوى مرافقتها. أخرجت لي ثيابي الجلدية والتنورة القصيرة... لحقت بها غاضبة. وصلنا إلى مكان في الضاحية تم تجهيزه للسهرة. لم أكن أعرف أحداً. جلست في إحدى الزوايا. في غضون ساعة، جاءت صديقتي إلي. أرادت أن تقدم لي «شاباً رائعاً». قلت لها: «لنرجع!». اغتظت، وعدتني حينها بأنني لن أندم، فجذبتني نحوه وأجلستني على كنبة بالقرب منه. وأنا، كنت مستخفة بالموضوع، فلم أنظر إليه، لكنه راح يخبرني أشياء غريبة، فوجدت نفسي أضحك وأنظر إليه. ظننت أنه قصير القامة، لكن حاجبيه ووجهه أثارت اهتمامي. تلوّيت من الضحك. أديت الدور واثقة من نفسي. قلت في سرّي: استرخي يا فتاة. كان

والداي يعرفان عمّه... ربطتنا صلات. أعجبتني فيه روح النكتة. لم يكن يغازلني، لكنه هدّأني بضحكته. أراد أن يقدّم إلي كأساً. قلت في نفسي: سوف تقع الكارثة، سيصل بطوله إلى كتفي! فأنا طويلة القامة ولا أحب قصيري القامة. وقفنا، وحينها رأيت مارداً: طوله متر واثنان وتسعون! كان نحيفاً ويتقن الكلام. جعلني أرتبك. رحنا ندخل أكثر في الخصوصيات في محادثتنا، تحدثنا عن حالات فشلنا العاطفي. فجأة، وصلت فتاة شقراء رائعة الجمال ولفّت ذراعاها حول عنقه! عندما رأى رد فعلي، ضحك وقال: «إنها أختي!». عندما أرادت صديقي الرحيل، طلب رقم هاتفي. غادرت... حالمة! لم أكن أفكر سوى فيه في المنزل. طوال أسبوع، لم تردني أي أخبار منه. ولكثرة ما اكتأبت، طلبت رقم فيكتور من عمّه، وتركت له رسالة. أوصل له عمّه الرسالة. بعد ذلك، دعاني فيكتور إلى مطعم. عرفت أن أحاسيس جياشة كانت تمور في داخلي. عرض عليّ الذهاب إلى منزله؛ أمضينا الليل بطوله نتحدّث ونمارس الحب. شعرت بأنني أجد ذاتي، لم أتوقف، كنت أمضي لياليّ كلها عنده. بعد أسبوعين، سكنت في منزله. قال لي: سوف نتزوج. أعلنّا الخبر أمام أفراد العائلة، الذين عرفوا أنني حامل! تذكرت كليمانتين وحبيبها طويلاً في تلك اللحظات السحرية، تلك الليلة من كانون الأول/ديسمبر. اكتشفا أن برجيهما متكاملان.

قد تكون القصة مضرة عندما لا ترتكز على أي أساس. يعطي روبير نوبرغر مثل المرأة المؤمنة التي كانت ترافق خطيبها إلى الجلسات الربانية، ثم من بعد الزواج، أفصح لها أنه غير مؤمن. أخبرها أيضاً عن ثنائي مسلم انتهت علاقته بالفسخ لأن الرجل كان أصولياً.

إننا نبحث عن شخص يذهلنا ويجذبنا، وفي الوقت عينه، إننا بحاجة إلى أن نجد فيه إشارات معروفة وطاقات إيجابية تضيء أركان ظلماتنا: الثقافة، نمط الغذاء، الدين، طريقة العيش... إننا نقع في حب شخص لا يكون غريباً تماماً بالنسبة إلينا. لماذا؟ لأننا لا نعلم كيف نتعلق بمن لا يشبه البتة عالمنا العائلي. وهذا مبدأ الاستمرار في اللااستمرار. «بالطبع، يجب أن تكون هناك نقاط تشابه، لكن أيضاً، وبشكل خاص، نقاط اختلاف... يتلخّص التوافق مع الآخر أحياناً «بنقاط التشابه»[94]. وتتفكك نقاط التشابه هذه، لكنها تجمعنا وتجذبنا وتذكّرنا بشيء ما، وتغيّرنا من دون أن تشوّشنا كثيراً، فنتقدم، لكن ليس في المجهول المطلق. نحمل في داخلنا «نظاماً عائلياً يتألف من مجموعة من القواعد المدمجة في سياق رحلتنا في الحياة، وتكون معظمها غير مطلقة ولاواعية. يحوي هذا النظام الفكرة التي نكوّنها عن مكانة الرجل والمرأة في الثنائي، وتلك المرتبطة بالأطفال... وعندما يكون نظاما شخصين ما، غير متوافقين، لا يمكن تفادي الخلافات»[95]. (بحسب تفسيرات العالم النفساني سالومون ناسييلسكي). ويعتبر علماء الاجتماع أن الوحدات، على الرغم من الحركية الجغرافية، تتشكل ضمن النطاق نفسه والمحيطات الاجتماعية نفسها إلى درجة أنه من شبه المستحيل الالتقاء بشخص يبعد سبع «درجات» عن محيطنا. التعرف إلى شخص في الجامعة يتزوج بفلانة، تكون والدته تنظم سهرات نلتقي فيها بأصدقاء مستقبليين: نكون حينها عند أربع درجات. وبرغم ذلك، يجب أن يكون غرض رغبتنا قادراً على نقلنا كفاية لفصلنا عن روابطنا القديمة. لناتالي أمٌّ تصيب بالاكتئاب. عندما تزوجت بإيفان في ربيعها العشرين، حسبت أنه

سيساعدها كي تستقل بحياتها، بيد أنه أراد منافسة والدتها، وموازنتها. في يوم من الأيام، انتقدتها أمها، إلا أن إيفان وضع لحماته حدّاً، حينها انسحبت وتعلّم الزوجان تدبّر أمورهما بنفسيهما من دون توقّع أن يلبي والداهما حاجاتهما. تتذكر ناتالي الفترات الأولى: عندما كان إيفان يبيت خارج المنزل، كانت العائلة بأسرها تقلق! بسرعة، أحسسنا برغبة في الزواج. كان الأمر أشبه بكابوس عندما عرف والداي أنني حامل! كانت علاقتي بأمي سيئة، فهي امرأة قاسية جداً. اقترح عليّ والد إيفان الإجهاض! كان يرى أن ابنه صغير جداً على الزواج. لم تتشوش أفكارنا. أصبحنا والدين ونحن طالبان.

العيش مع شريك يدعم كلاً من الشريكين بشيء من «الأمان» (ولو كان نسبياً!)، يسمح له بالاستفادة من معرفة عائلية واجتماعية. «الثنائي وحدة حياة. هو خلية صغيرة، أو مجموعة حصرية. يمتلك مساحة مؤسسية تميّزه عن العلاقة (...). هذا الثنائي، عند تشكّله، يجعل من نفسه مؤسسة (...). بهذا المعنى، يكون الثنائي اختراعاً...»[96]. يبيّن ألبيروني أصل هذه الوحدة الجديدة: «الثنائي الجديد مدعّم بطاقة لا تخمد، وبحماسة فائضة. هو يولّد مفهوماً جديداً عن الحياة، ويعيد اعتبار علاقاته الخاصة والاجتماعية، ويبني له محيطاً بيئوياً جديداً (...). بالانتقال من المؤسسة إلى الحالة الجديدة، يحدث تحوّل للبنية (...)، وتُترجَم الطاقة مجدداً ضمن بنية: منزل جديد، أصدقاء جدد، مفهوم جديد عن العالم (...). يكون الحبيب هو المحور الذي تتشكل من حوله عملية إعادة البناء هذه»[97].

اجتماع المفضلين

عندما تدفعنا قوة الحب، نظن أننا أحرار، بيد أن العديد من الصعوبات الجديدة تنشأ فنعجز عن التخلّص من النفوذ النفسي العائلي. قد تزعزع المنافسة بين مجموعتي الانتماء هاتين، القصة التأسيسية الخاصة بالخلية الحية الصغيرة. تبرز معظم الضغوطات بين الرجل والمرأة عندما تهيمن أفكار الوالد أو مبادئ الوالدة. قد يحدث أيضاً أن تختار بعض الفتيات الشابات الشريك بالارتكاز على معايير والديهن. تتذكر المعالجة آليين ديفارنوا، نادين التي قدمت إلى والدها حبيبها. نظر الوالد إلى أسفل وقال: «ما من فائدة!». هو مسيطر! لم تره مجدداً منذ ذلك الحين. لم تكن مستعدة لمخالفة والديها! لن يكون أي شاب بمستوى والدها!

إن ساعدَنا الشريك على الانفصال رمزياً عن والدينا، يسمح لنا بنسج صلات مختلفة معهما. تستجيب علاقتنا مع شخص مميز لبحثنا عن الصدق والكمال والهوية. إذاً، الثنائي أكثر من مجرد انجذاب بين شخصين: هو لا يعمّر فقط من خلال الحب، بل أيضاً من خلال مشروع ما، من خلال خلق مجموعة جديدة من المصالح، وإرادة وحيدة للتقدم المشترك. في حين أن الحب علاقة استثناء. الثنائي يتخطى هذه الفكرة، ويفتح آفاقها ويخلّدها. هو يتمحور حول قيم مشتركة، ويسمح بمقاومة الصعوبات وحالات الإحباط، أياً يكن نوعها. أن نكون مع شريك هو أن نتدعّم بقوة أكبر، ونتحصّن بطاقة أوفر!

فن اختيار الشريك المناسب

هل نختار الشريك؟ ليس حقاً. في معظم الأوقات، يحصل اللقاء كالسحر. «يتلخص الخيار بلقاء يحدث صدفة... ثم يصبح قصة، ويدخل في إطار القدر (...). كل منا ينخدع (...). وذلك يُبقي الثنائي، بغض النظر عن شكل العلاقة، غامضاً جداً. إن هذه الإشارات الصغيرة والرموز السرية والعهود الغريبة والتقاربات والمصادفات، هي التي لا تخدع سوى من يخلقها»[98].

قد يلجأ البعض إلى الإنترنت للتعرف إلى شريك، أو حتى إلى وكالات متخصصة في هذا الشأن، أو كافة أنواع النوادي... تولّد تعددية اللقاءات الممكنة حالة من القلق والتردد الدائمين، وهي في بعض الأحيان تدوم. نتساءل باستمرار إن كان هذا الشريك هو المناسب، فنحاول بناء علاقة من دون أن نكون راضين فعلاً. تقول إلودي، وهي فتاة عازبة في السادسة والعشرين من عمرها، «نحظى بالعديد من الإمكانات والعديد من المجموعات في مدينة كبيرة، إلى درجة أننا ما إن نلتقي بأحدهم، حتى نكتشف سريعاً عيوبه ونغض النظر عنه معتبرين أننا سنلتقي بمن هو أفضل منه. في المواعدات السريعة، نعرّف عن أنفسنا بسبع دقائق، كما لو كنا في مقابلة توظيف. بالتالي، فإننا نلتقي بالكثير من الأشخاص في قليل من الوقت! يجب أن تسير الأمور على ما يرام على الفور! من لحظة إدراكنا ما نبحث عنه في شخص ما، نتوجه نحو مجموعة من الأصدقاء تنطبق عليهم المواصفات عينها. تتجيش الأحاسيس بسرعة، لكن كيف لنا أن نعلم إن كان هذا الشخص المناسب؟ هل يجب أن نضيف إلى الوصفة شيئاً من المنطق؟ يُطلب الكثير من فتيات اليوم: النجاح في المجال المهني، والحصول على العديد من الأصدقاء، وإيجاد الشخص المناسب. نحن الفتيات، نربح حيواتنا، ونرفض ألا نُحترم. نريد رابط مساواة. لقد أصبحنا متطلبات أكثر».

للتخلص من الشكوك، من المهم أن نعي أن الشريك المثالي غير موجود. يبحث عنه البعض طوال حياتهم، فينتقلون من قصة إلى أخرى. وبدلاً من الاسترسال في بحث جنوني، يجب علينا بكل بساطة أن نبقى جاهزين: أي أن نفتح قلوبنا لأي لقاء.

تقول نادين غرادجان، وهي مستشارة في مسائل الحياة الزوجية في عيادة رافاييل: في حين أن الشبان يقومون بدراسات دقيقة أكثر فأكثر، لا توجد أي دورات تدريبية حول العيش ضمن ثنائي. أما متابعة الموضوع فلا تستمر، بل تقلّ... لا تشدد تحضيرات الزواج التي تنظمها الكنيسة سوى على المساحة الروحية، ونادراً ما تشدد على الناحية النفسية. يتدخل الوالدان قليلاً أو بشكل سيئ: فهما غالباً ما يكونان غارقين في مشاكلهما الخاصة. وبالتالي: يبحث أي ثنائي عن الانفصال عنهما: لأنهما يشكلان حملاً بالنسبة إلى أي شريكين ولا يزالان يعيشان في داخلهما. كيف يعرف أي شريكين إن كانا مستقلين كفاية كي «يتركوهما» رمزياً؟ هل تطور كل واحد خلال اللقاء متباعدٌ عن تطور الآخر؟ ما هي القيم المشتركة بينكما؟ يتحدث العلماء الاجتماعيون عن خمسة عوامل مرتبطة بنجاح أي ثنائي: «نوعية الموارد الاقتصادية، وجود النماذج الأبوية، الظروف الجيدة لتعلّم أصول العلاقة، المراجع المشتركة، التشديد على الأيديولوجية الجماعية»[99]. نادرون هم من يجمعون بين هذه النقاط كلها، لكن هذه المعايير تحسّن نوعية العلاقة. لا يتعلق الأمر بالقيام ببحث ما، بل بتفادي

العجلة. الفائدة الأولى بسيطة: الصدق مع النفس، الصراحة، عدم الركض وراء وهم لاختيار شخص نقدره إلى درجة الاعتقاد أن الحياة معه ممكنة.

قبل الدخول في رهان النجاح، علينا التعرف إلى أنفسنا ومعرفة عيوبنا وميزاتنا. يسمح لكم بيان صغير بتفادي التسرع في اتخاذ القرار، والتفكير في رغباتكم وحاجاتكم وإمكانية سعادتكم في العيش مع الشريك. يقول سالومون ناسييلسكي: «البعض قادر على ذلك في الخامسة والعشرين، آخرون لا يستطيعون ذلك قبل بلوغ الخمسين، وخوض تجارب عديدة مع عدة شركاء. ليس الحق في السعادة حقاً مكتسباً بالنسبة إلى الجميع»[100]. أن نستعد لنكون سعداء، هو أن نعترف بما يولّد فينا فشلاً وصعوبات في العلاقة، ونقصاً في الطاقة. إننا نتحد أحياناً، ولا نتجرأ على المضي قدماً إلى الأمام: لماذا؟ ما هو هذا القلق وهذه المخاوف التي تهاجمنا وتجعلنا نخرّب مشاريعنا؟ وعوضاً عن طردها، فلنتقبلها ونبرز أنفسنا كما نحن. لا نستطيع أن نكون متساهلين مع الآخر إلا إن كنا متساهلين مع أنفسنا. لن يكون هذا الآخر مثالاً، بل إنسان، بكل بساطة. يقول جيرار لولو، وهو طبيب وعالم جنسي ومتخصص في مشاكل الثنائي: «إن أنكرت ظلّي، فلن أستطيع أن أكشف عن قلبي تماماً للآخر، ولا أن أستسلم لحياة حميمة حقيقية»[101]. إننا بحاجة ماسة كي نُحَب إلى درجة أننا لا نريد رؤية إشارات التحذير. لا نأخذ برأي أحد، ونأمل أن يخلصنا الحبيب المختار من جميع صعوباتنا. وبحسب سيرج إيفيز، وهو طبيب ومحلّل نفساني، ومتخصص في معالجة مسائل الثنائي والعائلة: «يرتكز اختيار الشريك بشكل رئيسي على قاعدة اللاوعي، وهذا الانجذاب الأولي هو الذي سيؤدي لاحقاً إلى الأزمة حين لا يُحترم هذا العقد المستحيل»[102]. إننا نحاول كشف عيوب الآخر، ومَن من الاثنين سوف يتحكم في زمام الأمور، لكننا نبقى مقرّبين، من دون أي تراجع، سائرين نحو الانصهار. تجري الأمور كما لو كنا لا نرى، كما لو كنا ننتظر أن يتكفل بنا هذا الآخر. هو ليس معنا لهذا الغرض، بل كي يجمع طاقاتنا فيحييها من جديد. إن أفضل طريقة لتحسين هذه الطاقات، أن نبدأ بحب ذاتنا كي لا نضطر إلى اللجوء إلى الوسائل والحلول الكامنة أصلاً فينا. خلاصة الأمر، ما هي الجوانب المخفية فينا، ورغباتنا الشخصية؟ هل نحن قادرون على إرضاء رغباتنا؟ هل نتقبل حسنات الوحدة؟ ما هي فكرتنا عن التعلّق بأحدهم؟ تحثنا «إعادة تركيز الأمور» هذه، على العودة إلى الآخر من دون تقليص الطاقة التي تدور، فنجد في الوقت نفسه شيئاً من السكون. تقول فلافيا مازلين سالفي: «عندما نعود إلى ذواتنا، نعود الشخص الذي هو نحن. (من المناسب) أن نطرد كل هذه الأفكار السوداء التي تشوش القلب والروح (...)، ونراجع بالكامل أفكارنا... تلك الناجمة عن تجارب ماضية أو مستقبلية، متفائلة أو متشائمة»[103]. إن أردت أن تعرف الشريك الجديد جيداً، فاذهبا معاً، في رحلة إلى جبال هملايا مثلاً، أو في نزهة إلى جبال الألب... حينها ينكشف كلٌّ منكما على طبيعته... كما هو في الحقيقة.

بيان مختصر تقديري

- هل ما زلنا مرتبطين بوالدينا؟ إن كان الجواب نعم، فبأي طريقة؟ هل يتكلم شريكنا أحياناً باسم والديه؟ هل يرجع دائماً إليهما على أنهما نموذج يُقتدى به؟

- هل نثق حقاً بأنفسنا؟ وإلى أي حدّ؟

- هل اقتنعنا حقاً بأن الشريك المثالي غير موجود؟ ومن يقف أمامنا ليس تمثالاً مقولباً بل إنسان.

- هل نحب الشريك أكثر لما يمثله، أو لما هو عليه؟

- هل نتقبل احترام حرية الآخر من دون أن نشعر بالانزعاج؟

- ما هي القيم والاتجاهات والمشاريع المشتركة بيننا؟

- ما الذي قد نقوم به لتوسيع نطاق نقاط التشابه والنقاط المشتركة؟

- هل يهمنا ما مرّ به الآخر في حياته من دون أن نشعر بالغيرة من ماضيه؟

- هل نملك الرغبة عينها في التقدم معاً، وليس كل من جهته، محترمين هذه الطاقة التي تغذّينا باستمرار؟

قلّما تهمّ الإجابات عن هذه التساؤلات، فهي لا تثمر حقاً إلا عندما تناقشونها مع الشريك. على أي حال، يتعلق الأمر بأن نكون صادقين، و«أن نتكلم بصدق»، وأن نتعلم هذه المناقشات التي تضيف نكهة إلى الحياة مع الشريك. الشريك الجيد هو من يصغي إلى الآخر: فمن دون أن يتوفر الشريك لحبيبه، يصعب بناء علاقة الثقة بين الاثنين. التفاؤل والليونة والتحمّل وفرح العيش والسخاء: تلك هي الميزات الراسخة التي يمكنكم التعويل عليها. إن تعذّر علينا أن نضمن خروجنا من أي فشل، فمن المهم أن نبقى حادّي الذهن ومتيقظين، وأن نتخذ قراراتنا بعد التعبير عما يكمن في دواخلنا، وعن مخاوفنا. «الفروقات الكبيرة في القيم والأولويات ومفهوم اللذة... تحديات يجب التطرق إليها»[104]. القرارات الجيدة ليست أحياناً سوى وعودٍ باطلة. إننا نتجذّر في قصتنا، وفي حال شعرنا بأن حبنا قوي، وأننا مستعدون للدخول في اللعبة وعبور الأنهار، نحمل معنا أحياناً أكياساً مليئة بالحجارة...

أكياس مليئة بالحجارة

ما إن نتخذ القرار، أياً تكن الطريقة لذلك، يحزم كل منا أمتعته. ماذا نحمل معنا؟ حتى لو انطلق البعض مع «أقل» حمل ممكن، وملأ البعض الآخر الحقائب بالثياب، نجرجر كلّنا وراءنا أكياساً ثقيلة جداً. ما الذي تحويه هذه الأكياس؟

فكرة متراصة عن الحب

في البداية، تنحفر في أذهاننا صورة الثنائي التي يرسمها والدانا. وسواء انجمعا أم انفصلا، فهما يورثاننا نمط علاقتهما. يلزمنا وقت كي نبتكر نمطنا الخاص ونعيش بحسب معاييرنا. حتى إننا نحسب أننا راشدين. «لكن في الحقيقة، العكس صحيح. لا يصبح أي رجل وامرأة راشدين بالكامل أو سيدي مصيرهما (...). نتطابق بسهولة مع الآخر في بداية قصة الحب (...). كل رابط يولّد هذا الوهم...»[105]. أن نتعلّم معاً هو أن نقتلع أنفسنا من روابطنا الوراثية. تفسح خطوة الحرية والتحرر هذه المجال أمام تحقيق الذات إن اقتنع الشريك المستقبلي بأنه في إمكانه استبدال والده أو والدته. بهذا المعنى، يكون الآخر اكتشافاً فعلياً، قارة جديدة تجذبنا، ولا سيما أنها لا تشبه ما نعرفه، وتضعنا في بداية الدرب. أن نحب الآخر، هو أن نقرّر القيام بأمر مختلف؛ أن نتعلم كيف نقبل الفرق؛ أن نتقبل هذا الآخر لما هو عليه، لأن الآخر بكل بساطة... مصدر طاقة مجهولة!

أفلام وروايات إلى ما لا نهاية

نعرف جميعنا نماذج عن ثنائي تعيس. عبر التاريخ: الثنائي أبيلار - إيلوييس، هانريش وهانرييت كليست، الثنائي زويغ، الثنائي بالزاك - هانسكا، الثنائي المستحيل: فرانز كافكا وفيليس بوير؛ في الأدب: ويرذر وشارلوت غوت Goethe، سيرانو وروكسان (إدمون روستاند) Edmond Rostand؛ في السينما: الثنائي الذي تخبّط به المصير كما في Love Story وUn automne à New York.... يبدو أن هذه الأمثلة الفنية أو التاريخية وحدها الصحيحة تقريباً. ليس مدهشاً إذاً إن اعتبرنا، مستشهدين بشعر أراغون، أنه ما من حب سعيد. أن نتجرأ، ونظن العكس، هو دليل جرأة غير معقولة، والتوجه بعكس تيار الواقع. في هذه الحالات، قد نندهش لفكرة أن العديد من الأجيال الشابة لا تزال تؤمن بالحب البشري. منذ حوالى عشرين سنة، عُرض برنامج على التلفاز تحت عنوان: Les gens heureux ont une histoire («للأشخاص السعداء قصة»). لربما هذه علامة إعادة ثقة، إذ إن أغلبية الأفلام والروايات الساحقة كانت تبين أن الأشخاص التعساء وحدهم لهم قصة. لقد ولّد هذا المفهوم في أعماق أرواحنا، نوعاً من الشكّ، كما لو كان كل ثنائي سعيد متهوراً، أو حتى مجنوناً. ولكثرة ما شاهدنا برامج تلفزيونية، وقرأنا روايات مصوّرة، بتنا نتبع الفكرة السحرية التي تقول إن الحب يقع من السماء، وإنه يكفي ذاته، وإنه ما من جهد مطلوب منا. ننسى أهمية «العمل على تطوير العلاقة» الضروري لدوام الثنائي. يلاحظ كاتبو Mesure et démesure du couple أن الروايات المصوّرة لا تبيّن أبداً الثنائي وهو يجهد لإنجاح العلاقة: «فكرة التعلّم غائبة: يوفر إحساس الحب مجموعة كاملة من الرموز، والإشارات، والحالات، التي يتعرف من خلالها الشريكان إلى بعضهما البعض، من دون غموض أو خلاف. غالباً ما يحدث الانتقال من الحالات المحبطة أو المأساوية إلى النهاية السعيدة بفضل سببية سحرية»[106]. هذه القصص الصغيرة المجرّدة من المشاريع والضغوطات الاجتماعية، تملأنا

بالأوهام. وفي هذا الثنائي المثالي، يتفق الشريكان بالتمام والكمال، أما الفروقات والمشاكل فلا تظهر البتة. من هنا، تبرز ضرورة تحررنا من النماذج المثالية لعيش الواقع وتقبّله.

كيف لنا أن نخفّف عن أنفسنا؟

نعتقد أنه ما من عوائق سوف تواجهنا، لكن، منذ أشهر الحياة المشتركة الأولى، تصدّنا أمور تتأتى من العالم الخارجي، ومنا نحن بالذات أيضاً. في أكياسنا نحمل تجاربنا وخيبات أملنا العاطفية وأحلامنا وعوائقنا... يتطلب التخفيف عن النفس أحياناً أعواماً، لكن من الممكن لنا أن نتجنّب العقبات ونطابق خُطانا مع خطى الآخر. فلنُسقط بعض الأكياس التي يتآكلها الغبار، ولنستغرق وقتاً كي نوجّه خط سيرنا ونوقف مراحل معيّنة، إن أردنا أن تكون الرحلة غنية. الشريك الجيد هو من يسمح لنا بأن نُبرز أفضل ما عندنا. هذه القصة التي تبدأ، تشبه يوميات سفينة: نكتبها في كل يوم، ولا ندوّن فيها سوى الأحداث الرئيسية. «بالتالي، يمكننا أن نزور هذه الأرض الغريبة، وأن نتأثر بصور وأحاسيس جديدة، توقظ فينا رغبة توسيع مساحتنا الخاصة. هذه هي القصة التي تُعرض علينا: أن نصبح مغامرين فتنفتح لنا لوحات مليئة بالكنوز لنحلّ ألغازها»[107].

- أن نعيش الحاضر، بقدر ما نقوم به ممكن. يعتمد الأمر على قدرتنا على تقدير الأشياء البسيطة.

- أن نراقب الآخر ونحاول فهم ما يحس به ونصغي إليه، هي الوسيلة الفضلى لمعرفته، والتكيف معه.

- علينا طرد فكرة الحب التعيس بالضرورة.

- عدم انتظار كل شيء من الآخر: حينها لن نحظى إلا بالمفاجآت السارة! من بين أوهامنا المأساوية، وهم اعتقاد أن الآخر سوف يملأ كافة ما لدينا من نقص. وهذا مصدر إحباط دائم.

- عدم طلب أكثر ما يمكن الآخر تقديمه. إن لم نكن مستعدين لنكون سعداء، فلن يكون الآخر أبداً المعالج الذي سيساعدنا، ولو كانت العلاقة تُشفينا وتقوينا وتنضجنا.

- علينا أولاً أن نقدّر أنفسنا، والآخر، إن أردنا أن تكون العلاقة متوازنة.

- علينا أن نفهم أن صداقاتنا ونجاحنا المهني لا ترتبط تماماً بالشريك.

- علينا ترتيب رغباتنا وخياراتنا وأولوياتنا، وتقبّل رغبات الآخر وخياراته وأولوياته.

- علينا تجاهل النماذج والنصائح التي نسمعها في وسائل الإعلام، وتفضيل حدسنا عليها.

- علينا ألا نؤخذ بعواطفنا، وأن نحافظ على نوعية طاقاتنا الإيجابية. فالعيش مع شريك يفترض جرعة مناسبة من الصواب والذكاء.

الفصل الخامس

خيبات الأمل الأولى

ما إن تنطفئ «شرارات الحب»، بحسب تعبير إدغار موران، حتى يدخل الثنائي شيئاً فشيئاً مرحلة خطيرة من خيبات الأمل. هو يجهل أن هذه الحياة تفترض تعلماً لما يساعد على حشد الكثير من الطاقة والوقت والرشاد والاحترام. ينتظر كل واحد أن يساعده الآخر على التطور وعلى طمأنته، لكن هذا البحث عن الهوية يولّد ضغوطات بين شخصيتين غير متشابهتين، بالإضافة إلى تطلّعات كبيرة. بسرعة كبيرة، يتوجه الشريكان نحو إعادة تحديد حاجاتهما، كلّ منهما وفق الآخر، ونحو الانتقال من الانصهار إلى «اللاانصهار». وغالباً ما يحدث هذا الانتقال من خلال مواجهات وخلافات، تكون بغيضة، وفي أغلبية الأحيان، لا ينبّهنا إليها أحد. إن أراد الثنائي العمل على إدخال بهجة متبادلة في وحدته، فعليه الابتعاد عن النموذج الرومانسي، حيث يعيش الواحد للآخر، وعن حلم التجانس الكامل. يواجه الثنائي عوائق وضغوطات مجهولة وتقلّبات وتجارب عديدة تجعله يتكيف والوضع، أو يعاني بسببه، بالنسبة إلى ألبيروني، ما من قواعد عملية تتعلق بالسلوك، وما من فن للبقاء على الحب: «يمكننا أن نوجه أنفسنا في هذا التيار الضخم، شأن خفّاف يشق طريقه وسط العاصفة. لسنا نحن من يهيّج الأمواج ولا من يغيّرها. يمكننا أن نسيطر على البحر، بفرح أو بألم، أو بالاثنين معاً، وأيضاً الوصول إلى الضفة أو العكس تماماً، والإحساس بالسعادة لعدم بلوغها. لربما يجدي نفعاً اكتشاف عمق المشكلة أكثر من فن الحب أو الوقوع في الحب، لأننا بذلك نستطيع أن نعي، في كل مرة، الإنسان الكامن فينا»[108]. أن نتصوّر أنه ما من مصاعب ستعيق دربنا، هو من دون شك أكبر كذبة تقضي على كافة فرص العيش بتوافق مع الشريك. فبدلاً من أن يبذل الأهل والأصدقاء وعوداً مبالغاً فيها للحبيبين، الأفضل لهم أن يحذروهما، وأن يفسروا لهما أن تماسك الثنائي هو الضمانة الوحيدة ضد مخاطر الحياة.

الصورة سوداء... السقوط من أعلى

عند بلوغنا المرفأ الأول، تنهمر علينا خيبات الأمل الأولى، وأحاسيس الانزعاج الأولى. في البداية، نتخيل فندق الأحلام. بعدئذ، يتبين لنا أن الغرف لا تتمتع بأي سحر، وأنها لا تطلّ على البحر، بل على فناء خلفي. السماء ملبدة بالغيوم، وذروة الأمر، الطعام سيئ. اللحظات الأولى من حياة أي ثنائي لا تشبه هذه الصورة، لكنها تقترب منها، وغالباً ما تكون بداياتها هي الأصعب. ظننا أن الرجل الذي قابلناه يحب الحركة فيتبين لنا العكس؛ أو أن المرأة التي أحببنها هادئة بيد أننا نكتشف أنها تثور غضباً من لاشيء. نسقط من أعلى! له أو لها عادات صغيرة أو تافهة؛ لكل منهما ذوق مختلف، وردود فعل مفاجئة... لا تفترض فكرة الارتباط أبداً أن تكون كافة الأمور مكتسبة، بل أن تكون معادة ومراجَعة ومعدّلة!

يتبين أن البدايات هي أكثر الذروات هشاشة التي يواجهها الثنائي. يفترض الانطلاق مع شريك في رحلة الحياة، مرحلة من التكيف، وتخلصاً من الإشارات التي تزعزع الاستقرار. إن تقبل هذه الفترة وتخطيها، أشبه بالتغلب على عاصفة أولى: وجع في القلب، وشكوك وإحساس برهاب الاحتجاز... تنصبّ علينا هذه الأمور لتُفقدنا عزيمتنا، وامتحاننا. من هنا، تنشأ ضرورة الإمساك جيداً بزمام الأمور، وعدم الانحراف عن الدرب السليمة. بالنسبة إلى من يتمكنون من مواجهة المصاعب جنباً إلى جنب، تكون الاختبارات أخف وطأة. هذه الاختبارات موجودة دائماً، لكن الشريكين يواجهانها معاً. «الاشتراك في مجابهة العوائق مصدر تضامن وإرادة في النجاح معاً، وهذا أمر يهمّ كلاً من الشريكين، والاثنين معاً»[109].

العرض والطلب

تولّد الفسحة بين حبيبين شيئاً من الخصوصية والطاقة، الجسدية والروحية معاً. لربما من الأسهل لنا أن نفهم فكرة أن جسدين لا يشكلان سوى جسد واحد، أكثر من أن نفكر في أن نفسين قد تمتزجان لتشكلا نفساً واحدة. من يعتبره البعض خصوصية فقد يكون في العمق مجرد تشارك. التخلي الجسدي وما يرافقه، يناسبان أكثر اللذة الفورية، لكننا بحاجة دائمة إلى شيء آخر، إن كان ليس أكثر. ننتظر أن نُحَب بكافة الطرائق، وأن نتأكد من هذا الحب من خلال النشوة، لكن أيضاً من خلال الكلمة أو الفعل. ليس من التافه أن يشعر كل حبيب (وخصوصاً الحبيبة) بضرورة سماع كلمة «أحبك»، تتكرر أكثر من مرة ليحس بالاطمئنان. لسنا بحاجة فقط إلى الحب، بل أيضاً إلى تعابير الحب. فمن دونها، يحلّ شعور من الوِحدة والعزلة مكان الإحساس بالتوحد والتماسك. تميل المرأة إلى طلب هذا النوع من الإشارات أكثر من الرجل. هل هو لذلك أقل تطلباً من المرأة؟

هنا أيضاً، ما من أمور مكتسبة. الثقة بالحب والكلمات التي ترافقها، تنادينا من دون ضرورة لتجديدها كي تكبر، لأنها مصدر طاقة لا يلبث ينشط بدلاً من أن ينضب.

النظر إلى ما هو أبعد

منذ الأشهر الأولى من العلاقة، علينا أن ننظر إلى ما هو أبعد، وأن نتعمق في الأمور أكثر؛ فلنرتفع! في البداية، نولي سلوك الآخر أهمية قصوى. نشعر بأنه جرحنا إن عاد متأخراً من

دون إبلاغنا، أو إن عاتبنا، أو شبّهنا بوالدتنا أو والدنا، أو إن نسي أن يبتاع الزبدة والخبز... لقد سبق وعشنا في حرية، وها نحن الآن ملزمون بأن نخضع لنمط الآخر، وعاداته ومزاجه. لا نستطيع إلا أن نوجّه إليه الملاحظات، أو أن نفكّر في وجوب تحضير الطعام لشخصين! نحنّ إلى «الفترات الماضية»، فنخرج في جولة لنخفف عن أنفسنا، ونشعر مجدداً بأننا أحرار... نحن لا نبني شيئاً فوق الاشتياق. لا نقوم سوى بالانسحاب خوفاً من عالم نعرفه، ربحناه كثيراً إلى أن انفصلنا. لمَ إذاً، نبذل كل ما في وسعنا لنصبح الآخر، في حين أننا نتراجع، عند الخلاف الأول، إلى ما كان يحيطنا من عوائق؟ ليس الآخر الراحة ولا المواجهة ولا التنازل، هو تحدّ يجب خوضه من دون الاستسلام أبداً، ومن دون إجبار. أن ننظر إلى الأمام، هو أن نتطلع إلى المستقبل من دون أن نشعر بأننا مستهدفون أو ضحية أو مذنبون. أن نتقبل عيوب الآخر، هو أن نعترف بعيوبنا. وعوضاً عن ندب حظّنا، أوَليس أفضل لنا أن نقول في دواخلنا: ما الذي يحسه جراء ردود فعلنا؟ خلاصة الأمر، العيش مع شريك يمنحنا فرصة تكوين فكرة أقل شأناً عن أنفسنا، وبالتالي أن نبدأ بالتماثل.

الطريقة المناسبة في الوقت المناسب

لا يتعلق الأمر بأن نتقبل كل شيء على نحو لا يقبله العقل. مهم لنا أن نتجرأ ونعبّر عن حالات إحباطنا وشجبنا، لكن ليس كيفما كان، بل في الوقت المناسب، ومن دون إصدار أي حكم. الثنائي الذي يدوم هو من لا يَغمَض له جفن من دون إفراغ جعبة أفكاره وأحاسيسه... لا يمكن الآخر أن يعرف ما يدور في أذهاننا من أفكار. فأن نعبر عن مشاعرنا ليس بدليل ضعف. لكن المهم أن نقوم بذلك عندما يكون الآخر جاهزاً، من دون أن نثير غضبه خلال خلاف ما، ومن دون البحث عن الإفراط في حمايته مخففين من وقع ما يتفوه به من كلام، وخصوصاً من دون أن نعطي دروساً. ثقوا بحَدْسكم، تتعلموا تحديد المواقف المناسبة وكيفية سلوكه ونبرة صوته، وإن كان جاهزاً لسماعكم. خذوا المبادرة، وباشروا المحادثة. شيئاً فشيئاً، تنبني علاقة الثقة، ويتأسس حوار تزيد صدقيته وعمقه مع الوقت. ما من شيء يستطيع حينها قطع محادثاتكم الحميمة، فتشكل لذّة حياتكم معاً.

المسافة المناسبة وفنّ استباق الأمور

في بداية حياتنا مع الشريك، نفعل ما في وسعنا بغية محو الفروقات بيننا. وبحسب سيرج إيفيز، نضحّي بأنفسنا «في سبيل قضية الثنائي»، بيد أنه على الثنائي الشاب أن يجد شيئاً فشيئاً «المسافة المناسبة (...). خطوة إلى الأمام، فأخرى إلى الوراء، ثم أخرى إلى جنب، لا ينفك الشريكان يرقصان رقصة تانغو لتنظيم ما يضعانه في الكيس معاً، وما يحتفظان به في حياتهما الشخصية: استثماراتهما المهنية، أو الرياضية، أو علاقاتهما مع الأصدقاء، على سبيل المثال»[110]. بالنسبة إليه، «الأزمة الأولى تأسيسية». الكثير من الانصهار يقتل الحب؛ والكثير من المسافة، من جهة أخرى، يُبعده. كيف لنا أن نجد التوازن؟ على مهل، وعلى مراحل. تعلّمنا نظرة عن بعد إلى طريقة تصرف الآخر وردود فعله، الكثير عنه. بيد أننا لا نحصل على المعلومات الصحيحة أبداً في هذا الشأن! في أعماقنا، يصبح هذا الآخر مع الوقت أقرب إنسان من بين من نجهلهم. نعرف تقريباً كيف يتصرّف في هذه الحالة أو تلك، وكيف يصوغ اعتراضه على موضوع ما أو تأييده له، فيبقى

في الوقت نفسه، ليس مجهولاً، بل يظل سرّاً. مع الوقت، ينفتح لنا قلبه. حاولوا أن تعرفوا من خلال إشارات صغيرة، ما يود إيصاله برسائله الضمنية، وما يحس به. ابقوا متيقظين على الدوام، لا تدعوه يبتعد، توجّهوا صوبه. ما نعرفه عن الشريك يسمح لنا بأن نستبق الأمور، لا بالحساب، بل بالحذر. بالتالي، علينا الحرص على تعليل تواصل غيابنا، وساعات عملنا خلال أيام العطل، وساعات الرياضة، لتفادي أي تراجع غير مناسب وخسارة في الطاقة. كلٌّ يتقبّل أموراً بقدر ما يعرف منها. إن استباق الأمور طريقة أخرى لجعل العلاقة بين شريكين إيجابية. الثنائي عبارة عن مختبر ممتاز للعلاقة البشرية. الآخر عيّنة من البشرية. فالعيش مع شريك، يعلمنا الصبر والتسامح، ويساعدنا على إيقاظ حس المراقبة وحب الغير فينا. العيش مع شريك يوقظ فينا حس الإنسانية، ويولّد في قلوبنا شعوراً من البهجة، ويقوّينا ويعزز ثقتنا بأنفسنا.

لحظات الفرح اليومية

الحياة اليومية مبدأ الواقع! إننا نعيش الحب بقدر ما نحلم به. الوجود أمر عادي في معظم الأحيان إن لم يكن ضرورياً: على كل شريك أن ينفصل موقتاً عن الآخر كي يربح حياته. وهذا ليس إلا جزءاً من مكونات «الحياة الواقعية»! بالطبع، من الأسهل للحب أن يدوم من دون التبضّع والتنظيف والطبخ: باختصار، من دون الأعمال الإلزامية. من جهة أخرى، هذه الأعمال هي التي تحررنا، إذ إنها تسمح لنا بالولوج إلى سعادة العيش مع ثنائي. الحرية في أن يرى كل شريك في هذه الأعمال الإلزامية طريقة أخرى لعيش حبه. المرأة الشابة الأنيقة المتبرّجة التي قابلتها يوماً تنهض من النوم مبعثرة الشعر تتثاءب. الرجل الغريب والمثير الذي قابلتِه يوماً لا يحلق في نهاية الأسبوع. وبرغم ذلك، وعلى الرغم من المظهر، تبقى هذه المرأة هي نفسها، وهذا الرجل هو ذاته. هما يجعلان من هذه الأعمال الإلزامية تسلية، فيقوم أحدهما بالغسيل، والآخر بالتنظيف. أن نفضل تأدية الدور جبراً لتخفيف حمل الحياة اليومية، يصبح مع الوقت نوعاً من العادة، أو بالأحرى مشهداً مسرحياً حيث الجدية تغيب بعض الشيء عند الممثلين. علينا القيام بهذه الأمور، وفي الوقت نفسه، نقوم بها باسترخاء ولذّة. من المؤكد أن الرجل نادراً ما يحلم بمدبرة ترتدي وزرة، لكن هل يحلم بزوجة له ترتدي الوزرة، كوهم منزلي؟ تزيد خصوصية الثنائي بفضل هذه الأعمال الإلزامية والإجبارية، التي عليه اعتبارها فسحة حرية وليس سلسلة عقوبات. كي ينجح الأمر، علينا اتخاذ منحى ما يحبه الآخر وما لا يحبه.

فلنأخذ نَفَساً عميقاً!

خلال هذه الرحلة المفعمة بالفرح، من المفيد لنا أن نلقي كيسنا قليلاً ونتنفس، من دون أن ندع سكون الحياة اليومية يحيطنا. من المهم لنا أيضاً أن نسلك اتجاهات أخرى، مع الشريك، ليس نحو آخر العالم دائماً: يكفينا أحياناً أن نغيّر نظرتنا حول الواقع، وأن نحافظ على قدرة الإدهاش فينا، وعلى عفويتنا.

حلّ الرموز

ليس لكلٍّ منا الحاجة عينها إلى كشف ما في قلبه. فكلٌّ منا يعبّر عما في داخله في الوقت الذي يراه مناسباً، وبحسب مزاجه. منذ اللحظات الأولى، علينا أن نتعلّم حلّ الرموز: وهذا الأمر حساس بالنسبة إلى من لم يعتد عليه.

لا يقول جيروم، وهو شخص متحفظ بطبيعته، سوى القليل جداً عن نفسه، وهو أحياناً يغضب من لاشيء. لا تتحمل سارة ثورة غضبه، فهي تشعر بأنه يجرحها ويزعزع سكونها ويقلّل من قيمتها. عندما يصرخ جيروم لأنه لم يجد محفظته مثلاً، تشعر سارة بالذنب، وتبدأ بالبحث في الشقة كلها و... تعثر عليها على الرف. ما العمل؟ هل تقول له إن تصرفه كان سيئاً؟ وبدلاً أن تلزم الصمت ومن ثم تصرخ وتشتكي، عليها الانتظار كي يهدئ جيروم من روعه، ثم تعبّر له عمّا تحسّ به. الرسالة الأولى التي يجب حلّها هي قلق جيروم: فبالنسبة إليه، فقدان غرض ما مصدر اضطراب. وعوضاً عن الحكم عليه، أوَليس من الأفضل طمأنته؟ وبدلاً من إطلاق الأحكام والتفسير، فلنحاول تحليل نفسية الآخر ونعامله بذكاء.

المبادرة والتعاطف

يكمن مفتاح التواصل في فهم الآخر أو التقمّص العاطفي، أي «أن نضع أنفسنا مكان الشخص الآخر، أياً يكن شعوره، خصوصاً إن كان غريباً بالنسبة إلينا، وحتى إن بدا مفرطاً. يتعلق الأمر بأن نتجرّد من ردود فعلنا الأولية، ونخرج من أطرنا وأحاسيسنا المألوفة، وأن نرى، أبعد من المزاج السيئ، ما يكمن وراء ردود الفعل التي يقوم بها الآخر. لا يؤدي لوم جيروم سوى إلى إثارة غضبه أكثر وإغلاق أبواب التفاهم. وبدلاً من أن نرى الـ «أنا أولاً»، بحسب كاترين بانكول، أو ما نحس به أو ما لا نتحمله، وعوضاً عن اتهام الآخر، خيرٌ لنا أن نضع مسافة مناسبة بين الأحداث ومشاعرنا. لا يتعلق الأمر بأن ننسى أو «نلغي» أنفسنا، بل أن نفهم حقاً وجهة نظر الآخر وأفكاره وأحاسيسه، وأن نتطرق على مهل إلى الكلام غير المعبَّر عنه.

في بداية الحياة الزوجية، لا نعرف دائماً كيف نتوجه إلى الشريك، خوفاً من أن نخيّب ظنه، أو من أن يخيّب هو ظننا، «فسلوكنا تجاه الآخر يتبعه تأثر. المبادرة والرغبة متصلان بإحكام»[111]. وسواء أكان متحفظاً أم كتوماً، فالطريقة الأفضل للتكيف هي في الاستماع أولاً، ومن ثم محاولة تبادل الحديث. إن أحسّ هذا الآخر بأنه مفهوم، فمن السهل له أن يسلّم. فليس علينا الوقوف مكتوفي الأيدي ننتظر كي ينكشف الآخر لنا، بل علينا أن نسبقه. فلنرافقه كي نكشفه بطريقة أفضل. باختصار، فلندرك أن الحوار الحقيقي يرتكز على فن تليين الطبع وإبداء التضامن. ما من أمر أفضل، في هذا السياق، من اللّجوء إلى مبادرات فريدة: كلمات صغيرة، رسائل هاتفية، إبداء الاهتمام، تقديم الهدايا، إلقاء النكات الخاصة. كل هذه إشارات عن الحب تنسج روابط الصلة بين الشريكين.

الثقة بشخص ما تدعم الثقة بالشريك

تميل المرأة عادةً، أكثر من الرجل، إلى فتح قلبها لصديقتها الحميمة أو رفيقاتها. ونستشهد في هذا السياق، بعبارة كتبها الشاعر اللاتيني بروبيرس، هي التالية: «البوح عمّا في قلوبنا يخفّف عنا». وهذا كلام لا يكذّبه أي محلل نفساني، بل كلّهم يؤكدون أن الإفصاح عما في القلب، والإعراب عن الأحاسيس، يسمحان بترسيخ هذه المشاعر في واقعية أكبر من خلال تشاركها مع شخص آخر. لا يهدف هذا الانكشاف فقط إلى تبسيط حياتنا، بل أيضاً إلى إراحتنا، انطلاقاً من فكرة أن الثقة مسألة أولية وتكاد تكون مكافأة. فثقتنا بصديقٍ أو صديقة ما، تعزز رغبتنا في الإيمان بالشريك.

من المهم لنا أن نفصح عمّا في قلوبنا، لكن الأهم أن نقوم بذلك مع الشخص المناسب. وأفضل لنا ألف مرة أن نقول القليل لشخص قريب أو لمن يكون محط ثقة حقيقية بالنسبة إلينا، من أن نفتح قلوبنا كثيراً للعديد من الناس. والمثالي في الأمر، أن نفعل ذلك مع الشريك لا مع شخص آخر. «عندما تتشاركون أحاسيسكم وأفكاركم مع الشريك، تبنون جسراً، أي رابطاً بينكما. وعندما تختارون أن تُخبروا الآخرين عن مشاعركم تجاه الشريك، تكونون بذلك في صدد بناء جدران»[112]. الصديقة قد تساعدنا على التكلّم بطريقة أفضل مع الشريك، لا «تجنّب ذلك».

أذهِلني!

أن نشاء الانطلاق معاً في رحلة الحياة، هو أن نتقبل التماثل والانكشاف. سوف تكون هذه الرحلة مليئة بالمفاجآت والعفوية والشعر، فيبقى خلالها الحبيبان منذهلين من نفسيهما، ومن العالم، ولا يبحثان عما يطمئن أو عما يدركانه أصلاً، بل عن التحدي، وكل ما هو جديد وحماسي وإبداعي. في هذه الحالات، تطول لحظات الحب الأولى: «نرى مجدداً، نكتشف مجدداً، نجدّد مجدداً، على الدوام، ونبحث عن التحديات والمناسبات. نقع مجدداً في غرام الشخص نفسه».

يسنح لنا عيش تجارب جديدة فرصة الابتهاج: ولادة، تكيف، تشارك، مشروع إبداعي كتأليف كتاب أو تحضير حفل موسيقي، أو تنظيم معرض. إن كان أحد الشريكين مغامراً، والآخر العكس، يصبحْ عدم التوازن بينهما مصدر حرمان. وكي نستعيد قوانا، علينا أن نأخذ استراحات، وأن نخرج وحدنا، بعيداً من الضغوطات. بسرعة، تملأ الرموز هذا السقف الذي يجمع الشريكين: يجد كل منهما علاماته فيه، ويكرر الحركات نفسها، ويعبّر عن ذاته بالنمط نفسه. ومع القليل من التخيل والمروءة، تصبح الحياة اليومية مصدر أحداث رائعة في قلب حياة عادية.

نواة طاقة من بين غيرها من النوى: نحن... وعاداتنا

تجعلنا طريقتنا في العيش مع الشريك وعاداتنا، مختلفين عن العالم الخارجي: «الحركات، والنظرات، والكلمات الصغيرة والدعابات والتلميحات... كلها تهدف إلى تعزيز الشعور بالانتماء إلى مجموعة ـ الثنائي، وإقناع كل من الشريكين بأنهما يتقاسمان «الثقة» نفسها (...). يسمح احترام العادات بحماية الخصوصية وتجنّب كشف النقاب عن الاختلاف في وجهات النظر». الاحتفال بعيد الزواج أو اللقاء الأول وتقديم الهدايا الصغيرة، جزء من عاداتنا الخاصة، وثمة العديد غيرها.

فلنخلق الفرص ونخترع ونغذّ هذا الحب: هذه الأمور التافهة الصغيرة السرية، تشير إلى دوام الثنائي، وزيادة الطاقة في العلاقة.

حماية النواة الصلبة

يُعتبر الثنائي شرعياً عائلة. إنه يشكل خلية رئيسية تحوي طاقة خاصة بها: نواتها. تندمج هذه النواة طبيعياً بملايين الوحدات الأخرى، المتشابهة والمختلفة معاً، شأن ورق الشجرة الواحدة. يُثبت وجود هذه الخلية مجموعة الخلايا الأخرى، كما أن مجموعة نواها تُثبت وجود هذه الخلية الفريدة من نوعها. وهكذا، تسير الأمور في التركيبة الاجتماعية، حيث الكل يتألف من أجزاء تشكل بحد ذاتها كلاً. القانون، شأنه شأن اللاهوت، يؤكد أن الزواج عبارة عن تبادل مشترك للاتفاق: يكون الزوجان المستقبليان لبعضهما بعضاً. القانون والكنيسة يتفقان على نقطة: كي تكون هذه الوحدة حقيقية، على شهود ما الاعتراف بها، وبالتالي على المجتمع الاعتراف بها. يكمن التناقض في كل وحدة في الحفاظ على الخصوصية في قلب الحياة الاجتماعية. من هذا المنطلق، يكون الثنائي وحدة، ويكون رأي الآخرين فيها تقريبياً بالضرورة، أي خاطئاً. بمعنى آخر، وحدهما الطاقتان اللتان تشكلان الخلية، قادرتان على تكوين فكرة عن حقيقة هذه الخلية.

لكل واحد أفكار معينة عن العلاقة بالـ «القواعد». يجب إدخال الطريقة التي يحب أن يعامل بها الآخر الأصدقاء والعائلة والزملاء. يرتكز الثنائي على هذا التوافق المشترك، ويحدد الشريكان معاً علاقتهما بالقواعد الاجتماعية محاولين الحفاظ على قواعدهما الخاصة. حينئذٍ، لا تُستنفد الطاقة بينهما. «يحافظ الثنائي على وجوده إن تمكن من زرع اختلافه والتواجد اجتماعياً في الوقت عينه (...). على الثنائي أن يجعل من نفسه مقبولاً في نظر محيطه»[113]. لا يجب على الثنائي أن يحقق التوازن الاجتماعي، ولا أن يبتعد عن المجتمع، ولا حتى أن يتأثر بالتدخلات. يتواجد «الثنائي المحترف» أحياناً «بالتمثيل». «هو يضعف بشكل ملحوظ بفعل أي حدث خارجي يؤدي إلى خسارة الوضع الاجتماعي»[114]. علينا الحرص، داخل الثنائي، على العلاقات التي وُجدت سابقاً. فقد يتسبب رفض عائلة الشريك على سبيل المثال، في أضرار ويعزز شعوراً من الإحباط. قد يحدث أن يزور الثنائي عائلة أحد الشريكين أكثر. قد يؤول ذلك أحياناً إلى توليد إحساس من الرفض عند الشريك المغبون. إننا نخضع أحياناً لضغوطات الحموين. علينا نحن أن نحاول التوفيق بين عائلتنا وعائلة الشريك، كما أنه لا يجدر بنا أن نتأثر بخلافات الإخوة والأخوات أو الأصدقاء. علينا تفادي اتخاذ موقف ضد الشريك. باختصار، علينا البقاء متضامنين.

غالباً ما نجد صعوبة في خلق التوازن في الوحدات التي لا يعترف بها المجتمع أو المحيط العائلي. يواجه الثنائي المختلف الانتماء، أو الثنائي المؤلف من شريكين متفاوتي العمر كثيراً، أو الثنائي المشكَّل من شريكين ينتميان إلى طبقتين اجتماعيتين مختلفتين، صعوبات في العلاقات. هؤلاء يميلون إلى الانعزال، ويوهنون أكثر ممن يرتبطون بمجموعات خارجية.

إن كان أصدقاء الشريك لا يعجبوننا، فلننتبه إلى ألا نذمّهم أو نمنع الشريك من معاشرتهم. فلندرك كيف نحافظ على مسافة جيدة بيننا وبين الآخرين، وإلا فسوف يكون الأمر بمثابة اعتزال وتدخل مبالغ فيهما! فعاداتنا وخصوصيتنا تُعتبر «أفضل حراس لنا في الثنائي لأنها تعيّن لنا حدودنا»[115].

«الأيونات السلبية»

على الرغم من حسن نياتنا، علينا أن نعرف أيضاً كيف نقاوم الضغوطات التي تتأتى من المجتمع. يملأ العمل جزءاً كبيراً من حياتنا. إننا نخشى عدم الثبات ونحارب الإدارات. علينا ألا ندع أنفسنا تقع في أي فخ. يمكننا تخطي هذه العوائق بطريقة أفضل إن تعلمنا أن نبقى ليّنين وألا ننغلق على أنفسنا: فلنحاول تسوية المشاكل معاً! تكون خطوات الحياة الثنائية الأولى خطرة أحياناً: نقص في الموارد الاقتصادية، التكيف مع الآخر خلال الحياة اليومية، التوفيق بين متطلبات العمل والتناسق العائلي، التدخل العائلي، سواء عائلة الشريك أو عائلتنا... من هنا ضرورة البحث عن سند: الشريك.

اللحظات الأولى من حياتهما معاً

يتذكّر شارل بدايات علاقته مع ناتالي: صعب عليّ خلق التوازن. كان عليّ تقسيم المهمات المنزلية ومهمات التنظيف بشكل مناسب. لمَ يتوجب على المرأة الغسيل والطبخ؟ أدركت أنه لا يجدر بي التبضع وحدي كي لا أفرض خياراتي في الطعام. أنا أطبخ كل مساء. فزوجتي تعود إلى المنزل من بعدي. كان عليّ التفكير في نمط التقسيم هذا: القيام بأكثر ما أرغب فيه. أنا أهتم بالمطبخ، وهي بالترتيب. لدى العديد من أصدقائي، لا يهتم الرجل أبداً بالأوراق. في منزلنا، زوجتي ترتّب الأوراق، وأنا أجيب على الهاتف! لا يجب إهمال هذه الأمور الصغيرة التي نعيشها في حياتنا اليومية. ما قد يبدو من دون عواقب في البداية، قد يصبح لاحقاً موضوع خلاف كبير. خلاصة الأمر، علينا فعل ما بوسعنا مسبقاً كي لا نراكم الخلافات.

الادعاءات الفارغة

لكلّ منا مجموعة من الأفكار المسبقة حول الثنائي، ترتبط بما تعلمناه وبما نأمله، وأيضاً بقواعد نشعر بأننا ملزمون بالتقيد بها، وتتداول في المجتمع والإعلام. يقول روبير نوبرغر: هذه الأساطير الاجتماعية خطيرة جداً. هي براهين تُعتبر طريقة جيدة للوقوع في الخطأ. لا يعني ذلك أن القيام بالعكس يجدي نفعاً، وإلا لكان الأمر بغاية السهولة، بل يجب البقاء على البعض والتخلي عن البعض الآخر. فيضع لائحة: «على كل واحد أن يكون مستقلاً من وجهتي النظر النفسية والمالية. لا يجب أن تكون علاقة الثنائي انصهارية. يجب تقاسم المهمات المادية (...). على الثنائي أن يتمتع بحياة جنسية غنية...»[116]. إن كانت الشعارات أحياناً صحيحة، فهي تلقي الذنب على من لا يستجيبون لمعايير الثنائي المثالي. علينا أن نتفادى التقيد بالمعايير، كما علينا أن نميّز الفرق الذي

فينا. لقد اخترت باقة من «الادعاءات الفارغة» التي تظهر الأفكار المقولبة التي توقف الثنائي وتُفقده طاقته. إن أحد أسباب فسخ العلاقة، هو أحياناً الشعور بأن الثنائي لا يلبي الصورة التي يرسمها عنه الإعلام: إرضاء الحاجات الجنسية، العاطفية، الحميمة... بيد أن الثنائي بطبيعته مؤلف من كائنين بشريين، وبالتالي فهو محدود. إن توصلنا إلى تخفيض مستوى ما ننتظره وما نرغب فيه، نُصَب بخيبات أمل أقل. لا يمكن الآخر أن يؤمّن لنا كل شيء. المهم هو أن نملأ أنفسنا بالطاقة مجدداً، ونعود إلى ما نحن عليه أصلاً.

«واجب الآخر: جعلنا سعداء»

بحجة أننا متزوجان، وأننا نعيش مع شريك، نظن أن واجب الآخر هو تلبية رغباتنا. في الحقيقة، هو في المطلق لا يَدين لنا بشيء. لسنا بمدينين. عندما كنا أطفالاً، كانت الملامات تنهال علينا، لكن العتاب بين الراشدين شكل من التسيير، كما لو كنا نُفهم الآخر أنه مسؤول عنا، بيد أنه في الحقيقة ليس كذلك. كلّما استقللنا أكثر، نجحنا أكثر في تشكيل الثنائي. إن كان من الوهم أن نفكر في أننا نَدين بشيء للآخر، كما يقول معظم العلماء النفسانيين، يمكننا نسج روابط تشارك لا مثيل لها. ليس من شأن شريكنا أن يُلئم جراحنا. نحن وحدنا نستطيع أن نجعل من أنفسنا سعداء! عندما نحقق هذا الهدف، يصبح الآخر سعيداً أيضاً. تفعمنا الحدود والعوائق في العلاقة مجدداً بالطاقة، كي نحب أنفسنا، ونحب الآخر. وكلما جعلنا الآخر ينجذب إلينا أكثر، زادت فينا الطاقة، وزادت رغبة الآخر فينا. الطاقة تستجلب طاقة، كما أن غياب الطاقة يحبطنا. إن جعلنا الآخر سعداء، فهو يفعل ذلك ليس لأنه مجبرٌ، بل حباً بنا، ولأنه يهتم لإحاطة العلاقة بالعناية اللازمة.

إن كان أمراً خطيراً أن ننتظر كل شيء من حبنا، فمن الطبيعي، في المقابل، أن نطلب بعض الأمور.

«البوح بكل خفايا القلب أمر جوهري؟»

إن إحدى الأفكار حول الثنائي، هي التواصل. يفتح الشريكان قلبيهما لبعضهما البعض بالكامل، يقولان «حقيقة الأمور» و«بعمق». في الواقع، يسير كل ثنائي بحسب رموزه الخاصة، وواجب الإفصاح عن كل شيء قد يكون مضراً. لكلّ واحد ثورات غضب وزوايا من الأوهام وأفكاره الشريرة وأسراره الداخلية الحميمة. من المستحيل تشارك هذا الدفق من الأفكار والعواطف والأحلام التي تسكننا. فضلاً عن ذلك، من الخطر الإعراب عنها. ثمة مستوى معيّن في حال تخطيناه وكشفنا عما في قلوبنا، نتسبب في أذى لأنفسنا، وقد نجرح من نحب. علينا بسرعة كبيرة، أن نكتشف ما قد يتقبله الآخر، وأن ندرك متى يتسامح. «الكلمات المؤذية والأعذار المستشيطة غضباً والعبارات الفظة والإهانات، تترك آثاراً تتحول شيئاً فشيئاً إلى هوة»[117]. بالإضافة إلى ذلك، إن كان هناك سرٌّ ما يشكل عبئاً بالنسبة إلينا، كصدمة حدثت لنا في طفولتنا، فالبوح به يلحم علاقة الثنائي. «هذا الإفصاح علامة على الثقة التي نضعها في الشريك، فتصبح من العناصر المشكّلة

للثنائي»[118]. إن كان الثنائي هشاً، وإن كان الشريك يفقد ثباته بسهولة، فعلينا الامتناع عن صدمه أو مضايقته بالانتقادات السلبية. هو يملك حدوداً علينا كشفها. من جهة أخرى، من غير الضروري أن نبالغ في تحليل عاهاته وجروحه. قال جورج سيمال: إن كان الآخر شفافاً، يفقد حيله ويكشف عن حدود سحره: «بالنسبة إلى من يبوحون بالكامل بما في قلوبهم، قد يؤدي بهم الإفصاح عن حياتهم الشخصية إلى الضعف والتجرد، ما قد يجعل من العهود المقطوعة في السابق خدعة. وكي يدوم السحر، يجب أن يظهر الحبيب، إلى حد ما، «على شكل غامض ومبهم بعض الشيء»[119]. علينا أن نفاجئ الآخر دائماً بما لا يتوقعه، وألا نكون دائماً «شبيهي أنفسنا». علينا أن نبقى مصدر غموض، ونظل لغزاً يمكننا حلّه جزئياً من دون أن نغيّر رسالته وميزاته. يقول سيرج شومييه، الذي في حين أنه لا يؤمن بدوام الحياة الثنائية، يعطينا رغبة في ذلك: «من المناسب إذاً، إيجاد الحل الوسط الصعب بين احترام ما في القلب، وظمأ الإفصاح عنه. تساوي الحدين هذا، بين اكتشاف الآخر وإدراك أن في داخله بعض الغموض، هو محرك رغبة الاستكشاف». فسرُّ الحياة الثنائية يكمن في الحفاظ على فكرة الغموض هذه، فهي منبع فيّاض للطاقة التي لا تنفك تنبعث.

«التواصل ضروري»

في أيامنا هذه، يحثنا الجميع: «تواصلوا!». يود الجميع التواصل باستمرار، كما لو كنا عند هذه النقطة قد وصلنا إلى قمة الفن البشري. إلا أن الكثير من التواصل يقتل الجاذبية. الصعوبات التي نواجهها لتوضيح كلامنا، تخفي وراءها أحياناً صدمات قديمة. نأمل في بعض الأوقات أن يحلّ التبادل حالة تمّت بصلة إلى التطور الشخصي وحالة عقلية، أكثر من كونها وقائع نستند إليها. نقلق إن بقيت المحادثة بلا طائل، وأن تتكرر الأحاديث إلى ما لا نهاية. فلنأخذ وقتنا في تحليل أصل المشكلة، لا الغرض منها. نستشهد بمثل كتاب Noeuds لرونالد د. لانغ: «شعرت بألم في رأسي لكثرة ما حاولت تجنّب الإصابة بصداع بسببك». وهذا تصريف سلبي للطاقة. يعرض الكاتب الاقتراحات ومحاولات التواصل التي تؤدي كافة، ليس إلى توضيح المسائل، بل إلى عقدة نفسية. وبدلاً من الكلام مطولاً حول أسباب الصداع، من المجدي أكثر أحياناً أن نجلب كوباً من الماء مع حبة دواء، راسمين على وجهنا ابتسامة.

«سوف أغيّره»

لا تكفينا سوى لحظات من التفكير كي نفهم أن الرغبة في تغيير الآخر، ليست سوى ادعاء من دون اسم، لكن وراء هذه الإرادة المضرّة يختبئ مفهوم غريب حول الحب. لمَ نود دائماً تغيير الآخر كي نتوافق معه على نحو أفضل؟ أوَليس من الأفضل لنا أن نحاول تحسين أنفسنا لمساعدته على التقدم؟ تفسر فيولان جيلي قائلة: «الهوة كبيرة بين التغيّر معاً لجعل الحياة الثنائية ساكنة والعمل على تحويل الشريك. بالتالي، تغيير الآخر طريقة لاشعورية للحفاظ على موقع السيطرة في الثنائي (...). كل الأمور مستترة في اللقاء. ما يتغير هو النظرة في المرآة، لا الصورة المعكوسة[120]. إحدى

أفكار فرويد الرئيسية، هي أن التركيبة الشبقية في الجسم البشري تبقى غير متغيّرة وغير قابلة للتغيير: نحاول عبثاً ونرهق أنفسنا من دون جدوى. الشيء الوحيد الذي يمكننا تأمله هو أن هذا السلوك الذي يجرحنا أو ذاك، أو هذه العادة أو تلك، قد تؤخذ في الاعتبار، و«تُراجَع» من دون أن تكون مرتكزة على شرط أو فرض.

إن ذهبنا بالمنطق إلى أقصى حد، تكُن إرادة تغيير الآخر بمثابة خصاء للذات: يصبح هذا الآخر «شيئاً» بيدي، «أستبعده»، وأتأسف لأنني لا أرغب فيه بعد ذلك. وفضلاً عن ذلك، يُغمض الحب أعيننا، فلا نعود نرى عيوب الآخر. إلا أنه مع الوقت والعمل على تطوير العلاقة، تستتر هذه العيوب.

«القيام بكافة الأمور معاً: أمر ضروري»

إن واجهنا، في بداية الحياة الثنائية، تجربة «الانصهار»، نشعر بسرعة بالمضايقة. إن لم يتمتع كل شريك بمساحة من الحرية له، يَمِل إلى الطلب من الآخر القيام بالمهمات التي لم يُخلق لها. ليس التمتع بنقاط الاهتمام عينها شرطاً أساسياً لنجاح الثنائي. على العكس. من المهم أن يحافظ كل واحد على التزاماته المتعددة، سواء أكانت جماعية أم سياسية أم بين الأصدقاء. عندما يتخلى أحد الشريكين عن التزاماته من أجل الآخر، يشعر بالعداوة. وعند الشعور بإكراه أو انغلاق أو واجب أو تملك، تذبل ثمرة الرغبة ويضعف الشعور الجنسي وتضمحل الطاقة، ويصبح الثنائي أشبه بسجن. فغنى الحياة الثنائية يكمن أيضاً في تشارك التجارب ورحابة الفكر.

«من مكوّنات نجاح الوصفة: تفادي الخلافات»

لم تكن والدتي تتشاجر أبداً مع والدي، وبرغم ذلك كانا سعيدين جداً. هناك آخرون يتخاصمون على الدوام ومن ثم يتصالحون. وفي حين أن الشجار بالنسبة إلى البعض مناسب، فالبعض الآخر لا يحتمله. المسألة مسألة طبع! الجيد في أي شجار أنه عفوي وهو قد يشكل «إشارة إلى مستوى آخر من عدم الرضا ويبين ضرورة لإجراء تغيير وإعادة التفاوض في العقد الزوجي»[121]. في الحب، لا يوجد قاعدة. لا يجب أن نحسد كل شريكين لا يتخاصمان. تكون حياتنا الثنائية فريدة من نوعها، وعلينا أن نتحمل مسؤوليتها. الثنائي الذي يعيش شجاراً ومن ثم يتصالح، يعمّر. السماح بإيلاء الآخر لفتةَ انتباه صغيرة، يكون أحياناً أقوى من أي وعود باطلة. وكما سنرى لاحقاً، تخطّي الخلافات يقوّي العلاقة.

ما يؤسس الثنائي هو الثقة المتبادلة، والرغبة في تحقيق سعادة الآخر، والتضامن. لقد سبق ورأينا كيف نعزز روابطنا، وكيف نتخطى خيبات الأمل الأولى، وكيف نضع مسافة مناسبة مع العالم الخارجي، ورأينا أن الثنائي يتضمن جزءاً من الغموض ومجموعة من العادات. فلندافع عن اختلافنا، ولنتخلص من الأفكار المقولبة، ولنبتعد عن التشبّه بالثنائي المثالي غير الموجود. عندما نفكر في أننا «نريد كل شيء على الفور»، ننسى ميزة مهمة هي الصبر. بفضلها، نمنح الثقة وطاقة

البداية قاعدة أوسع، كي ينبني عليها ببطء الثنائي الذي سيتشكّل. ومن أجل النجاح في الحياة الثنائية، يجب الإيمان بهذا الثنائي وعدم حبس الآخر ضمن صورة مقيّدة. فالتيقظ والحنان والرقّة، تسمح بتبادل مثمر.

الفصل السادس

شنّ الحرب... والاستسلام

بحسب العالمة الإنسانية الأميركية، هيلين فيشر، يواجه الثنائي أزمة في السنة الرابعة من الزواج، وليس كما يظن البعض، في السنة السابعة منه. حينها نكون قد تعرّفنا إلى بعضنا جيداً، أو على الأقل، نعتقد ذلك... تتحوّل هذه الاحتكاكات الصغيرة والمضايقات والخلافات الأخرى التي شهدها الثنائي في بداياته، إلى أسوأ. الآخر يخيّب ظننا. الرغبة تضعف. كيف أصبح هذا الشخص المليء بالمزايا، شخصاً يتجرأ على عتابنا باستمرار؟ كيف لنا أن نتصرف؟ لمَ علينا أن نضحي بحريتنا؟ لقد أحسسنا جميعنا، في يوم من الأيام، بهذا الضجر من الحياة اليومية، وبأننا لربما انخدعنا.

في السابق، كان أي شريكين يتشاجران بشكل عنيف، لكنهما يبقيان معاً. أما اليوم، فعلينا أن نسيطر على أنفسنا، وأن نرضخ، لأننا نعلم إن تمادينا أكثر، أن الثنائي يدخل في منطقة الخطر. المرأة تعمل، وهي لا تحتمل أن يقلّل الرجل من احترامها. ويحذر الرجل من ردود فعلها، ويميل إلى التقيد. في الواقع، إن أحد أسباب نشوء الخلاف، هو الحاجة إلى التطور واسترجاع طاقة حالة الحب. إن لم يتيقظ الآخر لهذه النقطة، تزِدْ حدّة الخلاف. وبرغم ذلك، وجود الخلاف بحد ذاته، أمر طبيعي. فالشجار ليس سوى تسوية حسابات: من يقع ضحيته يخضع له، لكن ليس كأي شخص آخر. في الحقيقة، يكون الشريك هو الأفضل. فهو المتلقي المثالي لنزاعاتنا الداخلية الخاصة وثورات غضبنا وشكوكنا ومخاوفنا. إذا صحّ القول، يكون الشريك في محلّه الأفضل. إن بوريس سيرولنيك مقتنع بهذا الكلام: «أن نتعلّم المشاجرة من دون أن ندمر ذواتنا، يزيد من فرص تعمير الثنائي»[122].

لربما يجدر بنا خرق قانون الصمت؟ لم يفسر أحد لأجدادنا الذين كانوا يتشاجرون، هذه العملية النفسية المترئسة قمة الخلافات، وبالتالي، لم يستطيعوا أن يفسروا لنا الأمر. وفضلاً عن ذلك، تدخل هذه النزاعات دائماً تقريباً في إطار الحياة الشخصية، ولا أحد يشهدها سوى أفراد العائلة المقربين (في أسوأ الحالات). لا تكتفي الحكمة الشعبية ببعض الصيغ لوصف حسنات النزاعات من دون سبب: «التصالح بممارسة الحب»، يُظهر الكثير حول العقليات. الانفصال بعد عراك أو شجار، قرار قد نندم عليه كثيراً، حتى ولو اقتنعنا بأن الحق معنا. فالخلافات تسمح لنا باللجوء إلى وسائل

غير مشكوك فيها، وإلى طاقات خفية، والوثوب نحو توازن جديد. اللذة في تخطي الشدائد انتصار على الذات.

الاضطرابات: «أكيدٌ أنك لا تفهمني»

اللغة مصدر لسوء التفاهم. الكلمات نفسها لا تعني الشيء نفسه بالنسبة إلى الجميع. حركاتنا وإيماءاتنا ونظراتنا، تعبّر أحياناً أكثر من الكلمات. لا يلتقط الآخر سوى جزء من المعلومات التي نجيّرها له. والأسوأ في الأمر، أنه لا يسمعنا. نشعر بهذا الإحساس المزعج بأنه لا يفهمنا. نغيّر شكل الحدث. والنتيجة: يفسّر الآخر الأمر، بشكل خاطئ بطبيعة الحال. في بعض الأحيان، «نصفّي» المعلومات ولا نعبّر عنها إلا بشكلها الذي يناسبنا. يفترض الحوار الحقيقي بنا أن نأخذ كلمة الآخر في الاعتبار. تظن المرأة أن شريكها يفهمها من إشارة واحدة، بيد أن الرجل بحاجة إلى توضيح الكلام بشكل جليّ. كيف ينشأ سوء التفاهم؟ من الفروقات بين الرجل والمرأة. يقول جون غراي: «أحدهما يعبّر عن أحاسيسه، بينما يعطي الآخر المعلومات»[123]. فعلى سبيل المثال، عندما تقول المرأة: «نحن لا نخرج أبداً»، افهموا ما يلي: «أود أن أخرج...». عبارة «أجد المنزل غير مرتب على الدوام»، تعني «أود لو أرتاح...». ولكم أن تحلّوا رموز كلامها! مقابل سكوت الرجل، لو أردنا الاستشهاد باسم كتاب Silence des hommes[124]، تكون المرأة محيّرة. تعتبر الأمر نقصاً في الاهتمام والحب، فتحاول تسوية الأمور بإرغام الشريك على التعبير، ومساعدته بإسداء نصائح من شأنها أن تضايقه، في حين أن الطريقة الفضلى هي في احترام حاجته بالالتجاء إلى «كهفه». ومقابل الاضطرابات والتضايق، ينطوي الرجل على نفسه، ويختبئ، بينما تفصح المرأة عما في داخلها. ولو كرّس الرجل وقتاً لسماع المرأة وطمأنتها، ولو تعلّمت المرأة التوقف عن إبداء العِبر، لكانت الحرب بين الجنسين قد انتهت بشكل أسرع.

الرجل بحاجة إلى المرأة، والعكس صحيح، لكنهما لا يعرفان كيف يعبّران عن ذلك، ولا متى يفعلان ذلك. ولكثرة ما تقلق المرأة بشأن شريكها، ينتهي بها الأمر بزيادة الاضطراب، والتسبب في مفعول عكسي. كلما ضغطت على الرجل، ابتعد عنها أكثر. وفي بعض الأحيان، من الأفضل ترك الرجل يحلّ مشكلته بنفسه، وإرضاء نفسه... بانتظار تسوية الأمور. وعلى المرأة، بدلاً من مؤاخذة الرجل على صمته، أن تكشف عما في قلبه من دون أي أسئلة أو انتقادات، فتجعل الرجل يرغب في التشبه بها. بذلك، ينفتح القلب المنغلق شيئاً فشيئاً.

فن الإصغاء

من أجل تخطي الاختلافات، يمكننا اللجوء إلى إحدى الوسائل الفضلى، وهي الإصغاء الفعال: فهو يكمن في إفساح المجال أمام الآخر كي ينهي التعبير عما في فكره من دون التدخل، وإسداء النصائح والتصميم والتقليل من قيمة المشاعر من دون الاستياء والشعور بأننا قيد إعادة النظر. فالإصغاء بتمعّن يبدّد الضغوطات. وفي بعض الأحيان، نصغي إلى الآخر ونحن نفكر في ما سنقوله. ومن بين العبارات التي يجب تفاديها: «لو كنت مكانك، لـ ...»؛ «كان عليك التصرف»؛

«ليس الأمر بهذه الأهمية»؛ «هل تقصد أنني أنا المذنبة»... يكفي أن نبدأ المحادثة مجدداً بعبارة حيادية شأن: «نعم، أنا أفهمك...»، أو إعادة التعبير عن إحساس ما وتقدير قيمته كي يرغب الآخر في متابعة حديثه. التكلّم يريح القلب، بيد أنه يسمح بشكل خاص بحلّ جزء من المشكلة. في الواقع، فكرة الإحساس بأن شخصاً ما يصغي إلينا، تدفعنا إلى إيجاد أجوبة عن تساؤلاتنا. يتعلق الأمر بأن نثق بقدرة شريكنا على مساعدة نفسه. وعند الاستماع إلى ما يقوله بآذان مُصغية، نتعلم الكثير عن حاجاته ونقاط ضعفه. وهو، إذ يشعر بثقتنا، يرغب في متابعة التبادل وفتح قلبه وروحه لنا في المقابل. لا تنسوا أن يتمحور كلامكم حول أنفسكم، ولو بدوتم ضعفاء: فصدق عواطفكم ينتقل إلى الآخر. تجنّبوا الشعور بأن الآخر يحكم عليكم من خلال كلمات كريهة: إننا نميل دائماً إلى التقليل من اعتبارنا. من الكافي أحياناً مماثلتها وتقبلها من دون أي رد فعل فوري كي نهدئ الآخر. لربما عليكم أن تتساءلوا حول أساس ملاحظته.

مُلام ومُلام على الدوام...

يتشاجر كل ثنائي من لاشيء: أحياناً لأسباب مادية، أو بسبب تعليم الأولاد، أو المهمات المنزلية. لكن فحوى الموضوع في بعض الوقت تكون في جهة أخرى، وتختلف بالنسبة إلى كل واحد. بحسب روبير نوبرغر، يخفي الخلاف طلباً آخر: لا يبيّن البتة سبب الانغلاق الذي قد يكون متنوعاً: حالة زنى، العمل، المال، الحموين... يقول الناس أحياناً: «نتشاجر من لاشيء، لكننا نعي أن أمراً آخر هو السبب». الخلافات هي العلامة. علينا أن نتساءل دائماً عن الجدوى من الخلاف. يكمن السبب العميق للضغوطات أحياناً في نقص في الحب أو الاعتبار، أو عدم تلبية لتطلعاتنا الرئيسية: أن يصغي إلينا الآخر ويطمئننا ويفهمنا ويعطينا قيمة... عندما نتهجم على الآخر مقللين من قيمته، نغضبه ونلفت انتباهه إلى تفصيل يحجب المشكلة الحقيقية.

الملامات اعتداءات شخصية نفسرها على أنها رفض. نشعر بأن قيمتنا قد انتقصت، وأن الآخر قد حكم علينا وأنكرنا، وعاملنا كالأطفال. من الصعب علينا أن نكشف بأنفسنا، السبب الحقيقي وراء السبب التافه الظاهر. ووفق سيرج إيفيز، فإن إحدى المؤاخذات التي توجهها المرأة إلى زوجها، هي: «لا يتحدث إليّ كفاية». يقول الزوج عن زوجته: «إنها تسأل أسئلة إلى ما لا نهاية». ويختبئ وراء هذه المؤاخذات، مفهومان مختلفان حول الخصوصية. تحتاج المرأة إلى التكلم على العلاقة: «فكرة أنها الوحيدة التي تتحدث دائماً عن الأمور تجعلها «غير راضية» على الدوام (...) وبهذه الطريقة تتشكل حلقة الهجوم/الانطواء المفرغة (...). الرجال لا يتكلمون على العلاقة كما تفعل المرأة»[125]. قد يساعد أي معالج الثنائي على تسليط الضوء على الشجرة التي تخفي الغابة، لكننا نستطيع تفادي «التصعيد» بقليل من الذكاء والعملانية، وخصوصاً بالتعلّم كيفية التعبير عن المشاعر بطريقة بنّاءة أكثر... في حين أن المرأة هي التي تخلق في أغلبية الأحيان علاقة شخصية أكثر، ويكون الرجل أيضاً مستعداً أحياناً للكشف عما في قلبه أكثر بكثير مما تظنّه المرأة.

من بين أسباب الخلافات، صعوبة الانفصال عن التأثير العائلي والتكرار الأبدي. تقول مارتين تيلاك: «من الأسهل لنا ألف مرة أن نحدث من جديد من أن نجدّد، وأن نجدّد؛ هو أن

نخاطر»[126]. نتفاجأ أحياناً لتذمرنا، «كما تفعل الوالدة»؛ نبقى الفتاةَ الخاضعة أو المتمردة؛ أو الابنَ المطيع؛ أو الأب المتسلّطَ، كما كان آباؤنا. نستخدم كلمات... آبائنا. نكرر المؤاخذات التي كان والدانا يوجهانها إلينا، أو التي كانا يوجهانها إلى بعضهما البعض. يصِف ميشال نيكولاس الأمر بـ «السيناريو المعروف منذ قديم الزمان القديم»[127]. إننا نسيّر الآخر ونقلل من قيمته. نلعب معه لعبة استحالة التواصل التي لعبها والدانا. وفي خضم تقلبات المزاج، نشعر أحياناً بالضياع. نشعر فجأة بأن الآخر يبتعد. في الحقيقة، المضايقات ونوبات الغضب واللامبالاة والاستياء، تفتّح جروحاً لم تلتئم بعد.

من أجل تخطي هذه المضايقات التي تصيبنا بطريقة متفاوتة، علينا أولاً أن ننفصل بعض الشيء، وألا نلقي اللوم على أنفسنا، وأن نحسب حساب الأمور بين ما عشناه سابقاً والواقع. يحدث لنا أن نقوم برد فعل ما، فنقول: «أنا لست أمّك أو أباك». لكن ذلك لا يكفي. وشيئاً فشيئاً، يمكننا أن نُفهم الشريك أننا مختلفون تماماً عن والديه.

عندما نغضب، نستعدّ للدفاع. ونحن إذ نفقد استقرارنا بسبب تغيير ما، أو مضايقة ما، أو هجوم شخصي، نشعر بالخطر. نخشى أن نفقد هويتنا ومكاننا ووضعنا. الصورة التي نرسمها عن أنفسنا تندثر. وإذا جُرِحنا، نرفض الاستماع إلى الآخر، وتقبّل وجهة نظر مختلفة. يطلق جون م. غوتمان على التفاعلات السلبية اسم «أحياء الرؤى الأربع»: اللوم والاحتقار والسلوك الدفاعي والتهرّب. هو يفرّق بين العتاب والانتقادات: «العتاب يتناول سلوكاً معيناً في الشريك. الانتقاد أكثر شمولاً، ويتناول الطباع أو الشخصية»[128]. يصبح العتاب انتقاداً مع هذا النوع من الجمل: «ما هي مشكلتك؟»

العتاب: «لقد أفسدت شريطي المفضل مرة أخرى». الانتقاد: «أنت في غاية الأنانية!».

عندما يتحول انتقاد الشريك إلى احتقار، يدخل الثنائي منطقة الخطر. يميل الرجل إلى تفادي الخلافات، حتى أنه يلتجئ إلى ممارسة نشاطاته المفضلة، وإلا فـ «ينصرف إلى تطوير أفكار سوداء تزيد من حدة يأسهما»[129]. حينها، أحياء غوتمان الأربعة تبرز، وفي حال لم يضع الثنائي حداً لهذا التصعيد، تحتلّ عرش العلاقة، وتهدّم الوحدة وتسحب منها طاقتها كاملة.

في ما يتعلق بموضوع الخلافات، يميل بعض الشركاء إلى استغراق وقت لتحليل مشاكلهم، في حين أن البعض الآخر يهرب منها ويرفضها، فينحبس في السكون ويقلل من قيمتهما. وبما أن هذا النوع من الثنائي لا يعرب عن أحاسيسه، ينتهي به الأمر مسكوناً بطيف الحقد وشبح الكآبة. ويحدث أحياناً أيضاً أن يتكئ أحد الشريكين على عكازين خارجيين - صديق حميم أو عشيق أو عالم نفساني - من دون أن يحاول تحسين حياته الثنائية، كما يحدث أن يضحي أحدهما بنفسه: أحياناً المرأة، التي تكتم مشاعرها وتحبط على مهل. وهذه استراتيجيات لا تنجح كثيراً...

بالنسبة إلى كتّاب Mesure et démesure du couple، المسألة مسألة «درجة». فبين الضغط والعنف الزوجي، هناك عالمان! ما يهمّ هؤلاء العالمين الاجتماعيين، هو درجة العدوانية والدعم والتجنّب. هم يميّزون بين خمسة أنماط لإدارة مشاكل الثنائي:

- العدوانية والضلال: «نتّهم ونهدد ونسخر. لا نبدي أي دعم: الإصغاء والاقتناع والتفاوض وحس الفكاهة، عناصر غالباً ما تكون غائبة... نتفادى بعضنا البعض... نحتدّ. هذه إدارة مدمّرة».

- اللاتماثل الأنثوي: يتجنّب زوجته التي ترغب في التواصل.

- اللاتماثل الذكري: «ترتبك المرأة وتهوّل، بينما يكون الرجل هادئاً ومنطقياً».

- الخمول: «لا يقوم الثنائي بأي شيء».

- التعاون: «التغاضي وقوة الجذب وحس الفكاهة والتضامن... بمثابة تحكّم عاطفي»[130].

لقد خلصوا إلى أن الثنائي المتعاون والعامل على رفد وحدته بالطاقة مجدداً، يواجه كماً من التشويشات الخارجية أقل من غيره. وقد ساعد نشاط المرأة المهني على تسوية الخلافات. كما سمح تقاسم المهمات والانفتاح والشعور بالتشارك، بتكيّف أفضل مع الضغوطات المواجهة. بالنسبة إلى الكتّاب المذكورين، إن شكل الثنائي أقل أهمية من طريقة إدارة الخلافات ومفاوضتها.

المشاحنات الزوجية

المشاحنات الزوجية «طريقة لتثبيت الوجود في هذا العالم، وتدمير الذات اعتقاداً منا أننا نؤكد ذواتنا». لا أحد يسمع الآخر، وكل واحد يود أن يفرض نظامه. «تنفجر» المشاحنة الزوجية من مجرد تفصيل، وبعد تراكم ملامات مكبوتة. وهي قد تؤدي أحياناً إلى أضرار غير قابلة للإصلاح. العبارات التي تقتل الآخر والكلمات التي تجرح في الصميم وتلك التي تحبسنا، تتتالى. تطال هذه الحالة جزءاً من طاقتنا الخاصة، الأكثر هشاشة بالطبع.

يفيض الأدب بمثل هذه الحالات. نذكر على سبيل المثال: Les Boulingrin بقلم كورتلين؛ ?Qui a peur de Virginia Woolf بقلم ألبي؛ La mégère apprivoisée لشكسبير؛ Couple ouvert à deux battants لفرانكا رام وداريو فو... من المعبّر جداً أن نشاهد في السينما ممثلين يؤدون دور مشاحنة زوجية. كلٌّ يدافع بكلّ قواه عما يراه صواباً: مزاياه وصورته. وبغض النظر عن الطابع الكوميدي الذي تتسم به مسرحيات الفودفيل هذه، إلا أن المشاحنة الزوجية اعتداء. يسعى كل واحد إلى جرح الآخر والتقليل من شأنه، وهو يشعر بشيء من التلذذ الشرير. لها عاداتها وإجاباتها وحركاتها. وكما قال أورلاندو دي روديز بروح من النكتة: «المعصم على الوركين، اليدان تلوّحان في الهواء، العينان مرفوعتان نحو السماء، مشية متقطعة،

شفتان مضمومتان، يدان مكتوفتان»[131]. عند حدوث المشاحنة بين الناس، تكون أشبه بمسرحية. لا شيء يوقف هذين الممثلين: لا المنطق ولا السكوت ولا حتى الانسحاب الذي قد يُعتبر دليل انهزام. كتب رولان بارت: «ليس لأي مشاحنة أي معنى، هي لا تؤدي إلى توضيح للأمور ولا تبشر بأي تحوّل (...). كل طرف من المشاحنة يريد نطق الكلمة الأخيرة. إن نطق الكلمة الأخيرة أو «الاستنتاج»، هو تصفية العدوّ والتسبب له في إصابة (نرجسية) مميتة، سوف أحيطه بالسكوت وأجرّده من كل كلمة. يجري كل شيء بهدف تحقيق هذا النصر (...)، وأن يكون الجواب الأخير هو الأفضل...»[132].

الأمر أشبه بمبارزة، حيث يريد كل من الطرفين الربح وجرح الآخر. يقول وولف بيرمان: كل شخص وحده ليس بمجنون؛ لكن معاً هناك الخيمياء، تولّد حالة جنون لا يستطيع أي من الشريكين الخروج منها إلا بواسطة العنف»[133]. باسكال براكنر وألان فينكيلكروت، يعتقدان أننا ننتظر بطريقة طوباوية أن يبدّل الآخر له وحده «مجموعة التصرفات المستبعدة (...) هذا الاستبداد (الذي) يبلغ أوجه في الخشونة، أي الملامة التي نوجهها فقط كي لا تكون عديدة. هذه «المسرحية» هي إذاً تمجيد للرغبة الشمولية: خلالها، يتأسف الزوجان ويتمزقان، فالشريكان (...) يتعاتبان لأنهما اثنان فقط»[134]. وبدلاً من رؤية إمكانيات الآخر، يقيد كل من الشريكين الآخر ويحبسه ويسخر منه. الطريقة الوحيدة للهروب من هذا التمثيل النفساني هي الخروج من هذه الشخصية التي تؤدي دورها بطريقة خاطئة كي تجد فيها حرية رفض مجموعة المشاعر بحقيقة أكبر. يتعلق الأمر بأن نرى عند الآخر أصغر الإشارات الآيلة إلى تهدئة الخلاف. تكون المشاحنات الزوجية أحياناً مرتكزة على تقليل قيمة متبادل، يظهر من خلال تفريغ متبادل للطاقة السلبية. تتحول الصورة الإيجابية للآخر، وتتقلب وتسودّ. ولا شعورياً، نحاول أن نعلّل هذه الصورة السلبية، وأن نعززها ونجعلها أسوأ. ندفع الآخر كي يسكت لنقنع أنفسنا بأننا الضحية. ما المنفعة السلبية التي نبحث عنها؟ هل نحن بحاجة إلى التألم كي نعيش، وكي نشفق على صورة معبّرة عن أنفسنا؟ من الضروري تعزيز دفاعاتنا، وأن نستعيد الثقة بأنفسنا كي نتفادى تدمير ذواتنا.

لتغيّروا الآخر؟ غيّروا دوركم...

ما هي هذه الأدوار التي نؤديها باستمرار؟ خلال المشاحنة الزوجية، نعود هذا الطفلَ الذي يتكلم مع والديه. نقول لهما من خلال الآخر، كلَّ ما تعذّر علينا قوله. وأيضاً، عندما نعي أن الآخر يتوجه أحياناً إلى شخص ثالث نسمح لاشعورياً بتوقيف التمثيل النفساني. يضاعف التحليل التصالحي التنظيمات. في الواقع، نحن لا نتصرف فقط كـ «طفل» يتوجه إلى «والديه»، الأدوار تتبادل، وقد يتدخل شخص ثالث، «الراشد»، ليهدّئ الوضع. هذه الأدوار الثلاثة هي في الحقيقة، في كل واحد منا، اتجاهات تتنشط نوعاً ما في حالات مشحونة بالأحاسيس. يبحث الطفل عن والدين يؤنبانه، والعكس صحيح. لعبة الطفل/الوالدين قد تتكرر إلى ما لا نهاية. وضمن هذا المنطق الجهنمي، يجد

كل واحد، على الرغم من كل شيء، فائدة لنفسه. كيف لنا أن نتوقف عن هذه الألعاب المضرّة، وأن نخرج من هذا التكرار الأبدي الذي يلتهم طاقة الثنائي الأصلية.

تكمن إحدى أكثر الطرائق ضمانة، في تغيير الدور، أي تأدية دور الراشد، الذي يفكر بمنطق، ويقول ما يفكر فيه بتعقّل، ويأخذ وقته، ولا يدع بحر العواطف يُغرقه. قد يبدو بارداً وبعيداً ظاهرياً، لكن هذه الطريقة تسمح بإخماد الحريق.

في هذا السياق، أقترح طريقة ألون غراتش، التي استوحاها من واتزلاويك، والتي أجدها «الطريقة عينها تقريباً»: وعوضاً عن الانكباب على تغيير الآخر، عززوا فيكم ما يزعجكم في طبع الشريك. هذه استراتيجية متعذّر تجنّبها. فعيوب الآخر تكون أحياناً بمثابة قوة، وهذا التحوّل قد يساعدكم على المضي قدماً. فأفضل طريقة لجعل الشريك يعبّر عن مشاعره، هي في «أخذ الوحي من سكونه ومنطقه بدلاً من حثّه على التواصل أكثر»[135]. جرّبوا هذه الطريقة في مناقشتكم القادمة. تجنبوا البقاء في حالة من الانفعال، بل صيروا أكثر قساوة. أعطوا حججاً موضوعية وذكية وواقعية. استخدموا كلماته عينها: «حل المشكلة»، «الخطة»، «الوسائل». «عندما «تستدعون» مشاعركم، توقظون فيه الخوف من هشاشته العاطفية الخاصة (...). لكن بهذا الكلام الذكي والفكري، يشعر بأنه مهدد أقل، ويبيّن أكثر أحاسيسه»[136]. إن كان شريككم منطوياً على ذاته أو قليل الكلام وأنتم تُكثرون منه، فتعلموا لزوم الصمت، خصوصاً بين الأصدقاء، فينتهي به الأمر بالتكلم. مع شريك غير نظامي، يتأخر دائماً، وقليل الاحتراس، توقفوا عن التحكم في زمام الأمور كلها وترتيبها والتحسب لها والتفكير في كل شيء. دعوه يواجه مسؤولياته: الفواتير غير المسدّدة، البراد الفارغ، المخالفات. مارسوا نشاطات أخف، ومريحة أكثر للبال، ينتهِ به الأمر بالإمساك بزمام الأمور. في المقابل، إن كان شريككم نظامياً أكثر من اللازم، فصيروا نظاميين أكثر، وتعلموا إدارة تفاصيل حياتكم، فيشعر الآخر بالراحة وبحق إراحة ذهنه أكثر. إن كان يولي مظهره وملابسه وشكله الخارجي أهمية قصوى، فاهتموا بأنفسكم، فيكون الشريك بحاجة أقل إلى لفت النظر، فيرغب في الاهتمام بمجالات ثقافية أكثر. إن كنتم من أهل الثقافة، والشريك العكس، فحاولوا التوجه نحو نشاطات تصرف النظر عن العقل قليلاً. إن كان الشريك سريع الغضب، فتجنبوا تأدية دور الضحية: بدلاً من أن تتشكوا، ابدوا صرامة أكبر، وكونوا أكيدين من أنفسكم أكثر، فيوقف لعبته. إن كان شريككم مولعاً بالعمل ونشيطاً أكثر من اللازم، ويخشى الحياة الحميمة ربما، فمارسوا بعض النشاطات، وتعمَّدوا الغياب، فيرغب حينها في رؤيتكم، وفي أخذ استراحة. افعلوا ذلك بفرح، وإلا فسوف يعرف حيلتكم. وبدلاً من مؤاخذة الآخر على إهماله، ابقوا مسترخين. عندما نعيش مع شخص يعيش بطريقة خاطئة، من الأفضل لنا ألا نحقد عليه، وأن نسلط الضوء على الأشياء البسيطة والصغيرة التي يحبها. فهو، إذ يتحرر من ضغط كبير، يبذل جهداً لتحسين الحالات الضرورية.

في البداية، تولّد هذه التغييرات الضغوطات حتماً، لكن ينشأ مع الوقت، توازن، وتقلّ الخلافات. «كلما عرفتم كيف تميّزون شخصية الشريك الحقيقية أكثر، نجحتم أكثر في التأثير

فيه»[137]. وفهمتوه بشكل أفضل.

عَلَم الاستسلام: فن التفاوض وتجنّب الخلافات: لا غالب ولا مغلوب

الملامات والخلافات والمشاحنات الزوجية، جزء لا يتجزأ من الحياة الثنائية. إن تقبّلنا فكرة أن الحب تركيبية هشة، نستطع أكثر تحمّل خيبة الأمل. قد نحلم بتجانس وتفاهم كاملين، لكن ما من أحد كامل، وهذا أفضل! الثنائي الذي يعمّر يعتمد هذه الحقيقة ويطبّق فن التفاوض. هو يتقبل الحقيقة كما هي، وبالتالي يسلّم بأن في الحياة حالات من الإحباط. أن نكون راشدين، هو أن نعيش بعدد من الأشياء التي لا نرضى بها، والتي، تقبلها من جهة أخرى. «ليس شرطاً أساسياً حلّ الخلافات الزوجية الأكثر أهمية للعيش بسعادة مع الشريك»[138]. يقول العالم النفساني دان ويل: «عندما نختار شريكاً يرافقنا الدرب (...) نختار حتماً سلسلة من المشاكل المتعذر حلها التي نواجهها خلال السنين العشر أو العشرين أو الخمسين»[139]. فمفتاح تخطي أي خلاف هو تقبل طبع الآخر بأكمله، وليس فقط ما يعجبنا فيه. تكمن الصعوبة في تحديد «الجرعة». فالكثير من الكبت يولّد الغضب المرتبط أحياناً بشعور الحزن. وبدلاً من الاستشاطة غضباً، من الأفضل لنا أن نعبّر للآخر عن مشاعرنا بهدوء. «إننا لا نهتم فقط للعلاقة، بل لأنفسنا أيضاً»[140].

عندما نبقى على مواقفنا، ينتهي الخلاف بغالب ومغلوب. ماذا نربح حينها؟ المغلوب يتراجع، بعد مقاومة طويلة، ويعتقد الغالب أنه قوي جداً، وبالتالي لا يكون أي منهما قد سمح للآخر بالإعراب حقاً عما يحس به. الخاسر الحقيقي هو الثنائي. ينصح ويلي باسيني «باعتبار أزمة الثنائي لعبة ليس فيها سوى... غالبين»[141].

إن الشرط الأولي في كل تفاوض هو الإفصاح للآخر، عن أن ما يحسّ به واقعي. لكلّ أسبابه، وهي حقيقية بقدر ما تكون أسباب الآخر حقيقية. ما يغيظنا في أغلبية الأوقات، هو طريقة الآخر في التكلم أكثر مما يقوله. حاولوا أن تلاحظوا تباشير الخلاف. عندما تشتد النبرة، خذوا نَفَساً، واسترخوا. يكفي أحياناً الجلوس لتهدئة الجو. وعندما يغضب الشريك، تجنبوا الشعور بأنكم مهاجمون. فوجودكم الساكن وإشارة تفهّم منكم، يكفيان للتخفيف من عدوانيته، وهي نادراً ما تكون ضدّكم. لا يمكنكم التعبير عن أحاسيسكم إلا لاحقاً. في هذه الأوقات من الضغط، حيث يكون كلٌّ من الشريكين سريع الانفعال، تفادوا بأي ثمن صبّ غضبكما على بعضكما.

تغيير الأسطوانة

إننا لا نستطيع أن نتقبل أحاسيس سلبية من الآخر إلا في حال تمكنا من تليين مخاوفنا الخاصة واكتشافها. وما يثير غضبنا ويولد فينا التعاسة، هذا الانبعاث لجروحات الطفولة... في الخلافات، تتفتح الجروحات، وتخرج الشياطين من أوكارها. يشبّه جيرار لولو تصرفاتنا غير المتكيفة والمتكررة بأسطوانات. «أسطوانة الطفولة قديمة»[142]: بدّلوها! أجل، لكن كيف؟ هناك

العديد من الحلول: العلاج، سواء أكان على انفراد أم لا؛ كتابة مذكرات شخصية أو رسائل موجهة إلى الشريك؛ ممارسة اليوغا أو التأمّل أو الرياضة؛ الخروج مع الأصدقاء... لكم أن تختاروا ما يناسبكم، لكنني أنصحكم بأخذ وقتكم في مراجعة وضعكم مع الشريك؛ يمكن الاستعانة ببعض الأفكار من كتاب روبير نوبرغر، On arrête?...on continue?.. المهم في الأمر هو التجرؤ على الكلام الإصغاء إلى وجهة نظر الآخر، ولربما إظهار بعض المقاومة والعدوانية. كل ما يساعد على «التعرف أكثر إلى الآخر، وتثبيت الوجود، وتخطي حاجة أن نُحَب، وتضميد الجرح، وتغيير الأسطوانة، هو بمثابة خروج من مرحلة الطفولة، وبمعنى آخر، الدخول في مرحلة النضوج»[143]. لكن النضوج العاطفي يتطلب الحس بالمسؤولية داخل العلاقة، والاعتناء بها والتوقف عن اتهام القَدَر والآخر والوالدين... فبدلاً من أن نلقي الذنب على أنفسنا، فلنتقبل هذا الجزء المجروح في أعماقنا، ولنحاول مداواته، وتليينه، وحبّه. حينئذٍ، ترجع الطاقة وحدها. يعود نجاح الثنائي المتجانس بشكل خاص، إلى قدرة كل من الشريكين على «بناء «أنا» صلبه وخصبة، في الوقت نفسه، ومنفتحة على الآخرين»، ويتوقف على كشف المواهب فينا وإثمارها. سمعت أمي تقول أحياناً إنه عليّ أن ألغي شخصيتي وأنسى نفسي وأهتم للآخرين، ولا أكون أنانياً. تعلّمت أنني لا أستطيع أن أعطي إلا إن كان قلبي ممتلئاً بالحب، وإن تمكنت من تخطي مخاوفي.

لا تفرضوا سيادتكم

قبل أن تقرروا فسخ العلاقة، «عليكم الاقتناع بأنكم قد وصلتم إلى نهاية الدرب»[144]. يمنعنا الخوف من خسارة الآخر ومن ردود فعله، من التكلم بصراحة أحياناً. وبرغم ذلك، هذا الخوف بحد ذاته وهذه الثقة، تسمحان لكم بالمضي قدماً. قبل أن تحكموا مسبقاً على ما سيجيبكم الآخر، تطرقوا إلى الموضوع، ولا تنتظروا، بإعرابكم له عما تشعرون به ببساطة. لا تعطوا عِبَراً، وانسوا القواعد، ونموذج الثنائي المثالي. ابقوا قريبين من تجربتكم ومما تحسون به فعلاً، فذلك أفضل لكم وللشخص الذي يشاركم نهاركم وليلكم. وللآخر حرية معاملتكم بالمثل أو لا! غالباً ما تشقّ الصراحة وتقبل المجهول طرقاً جديدة. تقول فلافيا مازلين سالفي: «الروتين غير موجود في أذهاننا». وهي تدعو إلى «الإصغاء المجرد من إصدار الأحكام والتقييم بـ: جيّد أو سيئ... من دون أي منفعة. ذلك يتطلب الكثير منا، خصوصاً التخلي عن الرغبة في الإقناع... لا نستطيع أن نقنع الآخر إلا بصدق ما نحس به، لا بصحة وجهة نظرنا». أن نصغي حقاً إلى من نحب، هو أن «نسمع ما يقوله عن مخاوفه وشكوكه وإحباطه وحزنه... حينئذٍ، يتّخذ تخطي الخلافات منحاه الصحيح: هو أشبه بعبور أرض مجهولة من دون أن نضيع في الدرب»[145]. من الصعب عليكم أحياناً أن تسمعوا الشريك يعاتبكم على وجودكم ودعمكم غير الكافيين، خصوصاً إن كنتم تظنون أنه يبالغ، أو مخطئ. وبرغم ذلك، هو لن يعرف كيف يصغي إليكم إلا إن تركتموه يُنهي كلامه كله، من دون أن تدافعوا عن أنفسكم.

الثنائي أشبه بتمرين بهلواني مثير، يحوّلنا ويجبرنا على التحرّر وتخطي الحدود... بواسطة الحب.

من حسنات الخلافات

بالنسبة إلى برنار بيكار، الذي جال العالم بواسطة المنطاد: نُدفع أحياناً نحو اتجاهات لم نخترها. في المنطاد، نتعلم أن نغيّر الارتفاع لنحسّ بمناخات أخرى. في الحياة، وفي فترات الأزمات، علينا أيضاً أن نغيّر العلوّ على الصعيد النفسي والفلسفي، للتوصل إلى التقاط تأثيرات أخرى وأفكار أخرى ورؤية أمور أخرى عن العالم، وتطوير وسائل وكفاءات أخرى. الأزمة فرصة غير عادية للتطور. للارتفاع إلى فوق. علينا التخفيف من مطالبنا وقناعاتنا وعاداتنا... علينا أن نعرف كيف نستعمل المجهول والشكوك وخسارة السيطرة كتحفيز لإبداعنا. علينا النظر إلى المدى البعيد، وتخطي الأزمات، وتقبّل فكرة إيجاد تسويات بأنفسنا لا طلب ذلك من الآخر دائماً. علينا ألا نخلط بين الوقوع في الحب والحب. الوقوع في الحب أشبه بالنار التي نشعلها من الأغصان النضرة التي تخمد بسرعة. أما الحب فهو نار الموقدة التي تؤجّجها قطع الحطب الثخينة فلا تنطفئ بسهولة. قد ينفجر الثنائي إن اعتقد، عند العائق الأول، أن الخلاف سوف يؤدي إلى فسخ العلاقة. أعرف أصدقاء قد اتصلوا بزوجتي ليقولوا لها: «لقد رأيناك تتشاجرين طوال بعد الظهر مع بيرتران (زوجك)، هل ستنفصلان؟». لكنها أخذت تضحك وأجابت: بـ «أننا نتشاجر دائماً!». فلولا حالات الشجار، لكانت العلاقة قد انفجرت. إننا لا نحتفظ بشيء قد يشكل عائقاً بالنسبة إلى العلاقة. نعلم أن خلافاتنا لن تدمّر العلاقة. على كل منا أن يهتمّ أولاً للآخر.

تساعدنا الخلافات على الخروج من حالة الانصهار، وعلى تقبّل فروقاتنا على أنها مصدر بهجة. «الحب هو بالتحديد أن نتخطى هذه الأزمات، وأن نتجدد من خلالها. التطور المشترك ليس بعملية مستمرة، بيد أنه نتيجة الحلول المتضافرة للضغوط والخلافات والأزمات»[146]. تكمن إحدى حسنات الخلاف في إمكانية إطلاق سراح الكلمة وكسر قيود الكبت، الذي يؤدي مع الوقت إلى تحسن الوضع. باختصار شديد، التصالح في السرير أكثر إثارة من ترك الجرح في الداخل.

إن رغبنا في التطور، فالثنائي مختبر مثالي للتجارب التي تساعدنا على التحسّن. تتطلب تركيبة العلاقات البشرية جرعة لا بأس بها من الرقة والليونة والمراقبة واستباق الأمور. أن نعيش مع شخص نحبه، يعني أن نتعلّم دقة العلاقات البشرية، وأن ننضج ونتطور، ونخرج من ذواتنا، ونتقدم مع المزيد من الثقة بالوجود دائماً.

محاولات التصالح الناجحة

- حاولوا استباق الخلافات. راجعوا وضع العلاقة ما إن أمكنكم ذلك، وعبّروا عما لا يرضيكم وطمئنوا الشريك.

- قبل الخلاف، حاولوا إيجاد الحلّ الأفضل تطابقاً مع الوضع. لطّفوا الوضع من دون جعله تافهاً. حاولوا إيجاد حلّ عملي ومتفق عليه لكل مشكلة.

- إن بدأت العاصفة تهبّ، فتكلموا بهدوء وعلى مهل من دون إعطاء العِبر، وعبّروا بضمير الـ «نحن» أولاً.

- ابقوا عمليين. راجعوا الوضع بهدوء وتطرقوا إلى سلسلة الأسباب التي ولّدت الخلاف. فحلّ المشكلة معاً، لا التوقف عند أخطاء الآخر، يخلق جواً إيجابياً.

- انطلقوا مما تحسون به، بدلاً من اتهام الآخر. تجنبوا الانتقادات السلبية.

- تقدموا بطلبات واقعية. الاقتراح طريقة جيدة لهذا الغرض.

- اعقدوا اتفاقاً مع الشريك من دون تغليب الـ «أنا». جِدوا نقاط اتفاق ووسائل لتطويرها، واحرصوا على أن يسهم كل واحد شخصياً في هذه العملية. فن التفاوض أكثر فعالية من فن الإقناع.

- اعترفوا بأن في ما يقوله الآخر حقيقة يمكننا التقيّد بها. لا تبحثوا عن الربح بأي ثمن! أحياناً، يكفي الانكسار لجعل الآخر يتراجع بنفسه عن مواقفه.

- استرخوا، معاً. أَريحوا أنفسكم. فوضعية الجسد تؤثر في طريقة التكلم أحياناً. استفيدوا من فكرة الاسترخاء لتُدخلوا شيئاً من حس الدعابة في كلامكم.

باتريس وتينا متأهلان منذ أكثر من اثنين وعشرين عاماً. تتذكر تينا خلافاتهما ضاحكةً: عرف باتريس الحفاظ على فسحة معينة، وخصوصاً على حسّ الفكاهة. يقولون لي إنني عندما أتكلم على زوجي، يظنون أننا التقينا لتوّنا ببعضنا البعض، وأن هناك تأثيراً متبادلاً ومضمراً بيننا. وبرغم ذلك، نحن نتشاجر، لكن الشجار شكل من أشكال التواصل. عندما أشتكي، وأعترض، يؤدي دور روبيرتو بيليني، فيرفع صوته ويركع على رِجل واحدة، قائلاً: «يا جميلتي! أنا أحبك يا حبيبتي! أريد أن أمارس الحب معك!». عندها أقهقه من الضحك!

تسلّط الخلافات والمشاجرات والمشاحنات الزوجية الضوء على الثغرات التي قد تُفسد علاقة الثنائي. في حال عرف الشريكان كيف يديران الضغوطات بشكل جيد، قد تصبح مصدر إبداع وتفكير وطاقة من خلال طرح المواضيع ثانيةً للبحث وتقريب المسافات. هي تسمح بجعل الشخص أكثر تطلباً في ما يتعلق بنوعية العلاقة المميزة التي توفر سكوناً حقيقياً. فكرة أن نعرف أن الثنائي ليس نهراً طويلاً هادئاً، وأن الوحدة تفترض أحياناً الانفصال، تدفع كل شريك إلى مراجعة ملفّه وتعديل مواقفه!

من اللّطف واللباقة ما نفع

لِمَ نسمح لأنفسنا بأن نعامل الشريك على نحو لا نجرؤ على القيام به مع زميل أو صديق ما، بحجة أننا نعيش معاً؟ ألا تكمن أفضل طريقة في السلوك في إيلاء أهمية للتهذيب والاحترام واللّطافة المفعمة بالانتباه؟ حتى لو أثار الآخر غضبنا، فلنحافظ على لطفنا. اللباقة هي قبل كل شيء فن الوجود بخفة، وهي تصرف يجدر اتباعه كافة جوانب الحياة: في المدينة، إلى المائدة، في السرير. في الواقع، الآخر يغلب. لو خمّن الرجل إلى أي درجة يُطمئن التهذيب واللباقة والأدب المرأة، وحتى يثيرها، لما قصّر. ما من شيء أكثر إغراء من رجل يترك لكن حرية الاختيار، ويطلب رأيكن ويعطي رغباتكن الأولوية. ليس فن الإطراء أكثر من فكرة الانذهال بما هو استثنائي

عند الآخر إلى درجة عدم التمكن من تحاشي الإفصاح عن ذلك أمامه. إنها تحية بقدر ما هي علامة احترام، هي طريقة أخرى لقول: «أحبّك». في وقت من الأوقات، تكون علاقة الحب بحاجة إلى ميزات الصداقة: ثقة متبادلة، صدق، صراحة، احترام، وتشارك أيضاً. هذه الميزة الأخيرة ليست شرطاً أولياً، لكن من الضروري تجديدها باستمرار والحفاظ عليها.

فمواجهة الخلافات تولّد طاقة إضافية علينا أن نتعلّم الانتفاع بها.

الفصل السابع

سعادة العيش والتقدّم معاً

يتألف الثنائي الذي يصمد من شريكين تعلّما الاتفاق والتسلية معاً، وخصوصاً تقوية بعضهما البعض بشكل متبادل. كيف ينجح هذا الثنائي في الحفاظ على حياته الخاصة وتحقيق التوازن بين الاستقلال الذاتي والتشارك؟ لا شك في أنه أبقى في ذهنه الرغبة المذهلة في التغيير التي تدفع كل عاشق نحو حبيبه. كتب ألبيروني: «في هذا الثنائي، تتمتع خاصيات الحب الأولي الرائعة بقدرة التجدد. تصبح الحركة مؤسسة. لكن هذه المؤسسة تحافظ على نضارتها وعلى طاقة الحركة...». كل ينظر إلى الآخر بعرفان للجميل، «وهو يعي قيمة هذه الهبة العجيبة التي منحت له»[147]. ونستشهد في هذا السياق بأغنية ريتشارد أنطوني Je suis amoureux de ma femme.، ولو كان كل شخص فريداً من نوعه، يقول لنا الحب بكل بساطة: أنت كذلك بالنسبة إليّ.

ملذّات وأيام... علاقة وارتباط لحياة أفضل

أظن أن الوقت الذي يمضيه كل شريكين معاً هو بمثابة بحث عن الحرية ووعد بالسعادة، ولا يؤدي بالضرورة إلى التعب أو الملل أو الروتين. إن كان صحيحاً أن العديد من الأزواج يعمّرون تحت تأثير الضغوطات الخارجية ـ الأطفال، الممتلكات، المال، الخوف، الوحدة، حتى خوف الآخر، ثورات الغضب التي تتكامل بعد الفترة «الغرامية» ـ فالعلاقة، ونوعية التواصل، تغذيان الشعور وتحييان الحب مجدداً. أتذكر كيف كانت إليزابيت بادينتر تعبّر عن مدى حبها للأحاديث الطويلة مع زوجها، ومع الوقت، يجري التبادل بالإشارة. نرغب في تطوير العلاقة لتصبح «تحالفاً» بين شخصين مستقلين ذاتياً، يتمتعان بحسّ الاطلاع، ويتوقان إلى التطور ومرافقة الآخر في مسيرة تحقيق ذاته. يصبح الثنائي «محترفاً دائماً» و«مختبر تطور»[148]. ويخرجنا هذا النشاط من ذاتنا ليدخلنا في عملية «إبداع مشترك». هو يدخل في نطاق خيار لحياة أفضل. لمَ لا نحدد ارتباطاً جديداً لا يشكل «عقداً سكونياً يثبت وضعاً ما مرة واحدة فقط، (بل) عقد ديناميكي يطلق العنان لتقدّم وجهته تطور الضمير؟».

يصبح الثنائي، إذاً، فرصة لا نريد تفويتها، وتتطلب، من الجهتين، موهبة، بل هبة. يفترض الأمر الكثير من التيقظ، وأيضاً، بحسب باتريسيا دي لاهي، فن تفادي الإفصاح عن الحقائق التي تجرح، وتعابير حاسمة تضع حداً لكلّ شيء، وفن تصفية كافة الخلافات. بالنسبة إلى اللذين يجدان بعضهما البعض، هناك دائماً واحد ينقذ الآخر. يكمن في وثوق الثنائي بالعيش الجيد معاً أكثر من الإغواء. وبالتشوّش، من الصعب إغواء الذات لمدة خمسين سنة! ثمة شرط لجعل الثنائي يعمّر، هو مشيئة الشريكين معاً بذلك! عندما يكون الثنائي سعيداً، يسترجع أحياناً سحر اللقاء الأول منذ ثلاثين سنة كأنه حدث لتوه.

نعيش خيار حشد كافة طاقاتنا لنسعد أنفسنا، ونُسعد الآخر يوماً بيوم: هذا الخيار ليس فقط انتصاراً على المشاكل، بل أيضاً على الوقت الضائع، إذ يصبح هذا التزايد في الطاقة مهمة.

التغلّب على الوقت

مع الوقت، قد نكفّ عن الاعتناء بالآخر، ونسأم، في حين أن فن الحب، تحديداً، هو هذا الشعور الذي يؤجج رغبة العيش لدينا، ويعطي السعادة طعماً. يسمح لنا الوقت بأن نعرف أنفسنا أكثر، هو يحسّننا (خصوصاً عند تواجد النيات الحسنة الطبيعية!). حينها، تسهل الخلافات وينشأ التوازن. قد يحدث في وقت ما أن تحلّ إرادة العيش معاً مكان الرغبة في العيش معاً. هناك فرح عميق يزودنا بالطاقة والإبداع. الوقت ينمّي حدّة بصرنا. يسمح لنا وجود الآخر المطمئن والمشجّع، بالتجدد عبر إعادة تركيز الطاقات على ما هو أساسي.

هناك ستة عناصر ضرورية للصحة العائلية الجيدة: «درجة الارتباط أو المسؤولية، الإيجابية في التواصل، التعبير عن العاطفة والتقدير، الوقت المتقاسم، الراحة الروحية، القدرة على التحكم في الضغوطات»[149]. وإن كان من الصعب جمع هذه العناصر كلها، فمن الممكن على الأقل اعتبار سعادة العيش مع الشريك، إن لم تكن حالة ثابتة، فنَّ تذوق الوقت الحاضر. التناقض الكبير في حب مدعو إلى الدوام هو أنه يتألف من لاتناهٍ متقلّب من الأوقات، من اللحظات الآنية.

التعرّف إلى الذات جيداً

هل تقتل معرفة الآخر بشكل وثيق الرغبة؟ بالنسبة إلى ستاندال والرومانسيين هي: نقطة غموض، نقطة جذب. لا أظن أن التعرّف أكثر يولّد خيبات الأمل، بل إن العلاقة الانصهارية هي التي تخلق المشاكل. فضلاً عن ذلك، ليست المعطيات ثابتة، ويمكن أن تتغير. تتطور تصرفاتنا بفضل علاقاتنا وتجربتنا. ومع مرور الوقت، نكتشف أوجهاً مجهولة لدى من كنّا نظن أننا نعرفه. ما من حتميّة في هذا الشأن. ليس الآخر كتلة واحدة. ومهما ظننا، يبقَ فيه جزء من الغموض. إن انطلقنا من مبدأ أن من نحب عبارة عن لوحة مرسومة لا تتغير، فإننا لا نفسح المجال أمام إمكانية الإدهاش، وقد يتحوّل الحب إلى مجرد صداقة. يجب، إذاً، اللجوء إلى الحيلة واللعب والحفاظ على طابع الحب التجاوزي والمدمّر، كما فعل ألكسندر جاردان.

كل شريكين سعيدين يحبّان إخبار بعضهما البعض قصتهما ومشاهدة الأفلام والصور. يعرف كل واحد ما يُسعد الآخر. هل نستطيع تحديد أصدقاء الشريك المفضلين، وطبقه المفضل، ووجهته المفضلة، ومشاريعه؟ هل نعرف أي هدية تعجبه؟ هل نعي ما يُغضبه، أو يجرحه، أو يُبهجه؟ هل ندرك ما الرغبات والأحلام التي تخلّى عنها، وتلك التي لا يزال يودّ تحقيقها؟

نغمان

بعد اكتشاف الفروقات في العادات العائلية والثقافات: مواضيع المحادثة، نمط العيش، القيمة، الأذواق في الثقافة والطعام... يتكيف كل واحد مع الآخر، ويجدان معاً نقاطاً مشتركة. يتشكل الثنائي بحسب قصته التأسيسية الخاصة به. يقول سيرج إيفيز: «أن نبني معاً، هو بادئ ذي بدء إدخال ما ورثناه من الأجيال السابقة، وتصفية بعض الديون أحياناً. على الثنائي إذاً، أن يترك مكاناً للآخرين من دون أن يسمح لهم «بالتهامه»...[150] تكمن الصعوبة الكبرى في إعادة وضع القواعد الخاصة. لكل حريته في قطف الثمار التي تحلو له في عائلة الشريك.

قدّروا لتعجَبوا

الآخرون مصدر إلهام بالنسبة إلينا. يتخذ هذا الإلهام ضمن حدود الثنائي عدة أشكال: الانجذاب الشهواني الأول لا يؤدي إلى شيء إن لم يدعمه بسرعة شيء من التقدير، شيء آخر يتقاسمه الشريكان لا يكون فقط سُكر الشهوة بل أكثر. من دون الإعجاب المتبادل، يسير الثنائي نحو الفشل. ما يربطنا هو قصتنا. يكفي الرجوع إلى الفترة التأسيسية، وإلى كافة هذه الروابط التي نسجناها، كي نقيس المسافة التي قطعناها. في بعض الأحيان، أكثر ما يعجبنا في الآخر، ليس، بعكس الأفكار الشائعة، الميزات الخارجة عن العادة، بل طريقة معينة في العيش والتصرف. خلاصة الأمر، تعلمنا الحياة اليومية أن فتى الأحلام أو فتاة الأحلام ليست حقيقة: إننا نعيش مع شخص يتمتع بميزات خاصة وفريدة. ما الذي تفضلونه عند الآخر؟ أنا أكيد من أن الأغلبية سوف تجيب عن هذا السؤال بـ: رقته ولطافته وصبره وهدوئه... وليس مقاومته للألم وحسّ الجسارة والمجازفة فيه. واليوم، ما يعجبنا بشكل خاص في الشريك هو توفره.

تقول إليز: ما يعجبني بشكل خاص في بول، هو قدرته على الحلم والإبداع. هو شاعر، وأنا لست كذلك. يعجبني فيه ما لا أجده في نفسي. أظن أنه يحبّ قدرتي على التنظيم، ووفائي في الصداقة، وطريقة توفيقي بين العمل والمنزل.

تؤجج نظرة الآخرين إلى من نحبّ، إعجابنا به أو بها. سمحت إحدى صديقات لوسي لها بأن تكتشف من جديد أعماق زوجها وقيمه الأخلاقية. خلال فترات الضغط أو انكفاء الحب، يلطّف رأي شخص آخر الأجواء. لا يكفي أن تكون لنا أسبابنا كي نُعجب بالآخر، بل يجب أيضاً أن نعبّر له عن ذلك. لا تترددوا في تقييم الشريك وتشجيعه ومدحه وتسليط الضوء على ميزاته، فتزيد. تحب فلورانس هدوء مارك وصبره. وعندما تغضب بسبب حرقها قالب الحلوى، تقول له: «تعجبني

طريقتك في التصرف: كان يمكنك أن تغضب، لكنك بدلاً من ذلك، أصغيت إلي بهدوء، أنت شخص مطمئن. لحسن حظي أنك في حياتي».

يرتكز الإعجاب على الإدراك. الخمول يُسئم. تعتبر سيغولين رويال أنها وزوجها يتنشّطان من خلال حيويتهما. كل هذا جزء من الطاقة! كي نعجَب بالآخر، على شريكنا أن يشركنا في نجاحاته، كما علينا أيضاً تقاسم نجاحاتنا معه. لكن أكثر ما يثير إعجابنا في الآخر هو من دون شك قدرته على التقدم نحو الأمام.

من جهتي، لطالما جذبتني ثقة زوجي المطلقة. في حالات العداوة، كان دائماً ينحاز إليّ. لطالما عرف كيف يتقبل «هذه الساعات التي أمضيها أعمل أمام شاشة الكمبيوتر». كان يعبّر لي دائما عن إعجابه بقدرتي على العمل ومثابرتي. هو يقرأ كافة مقالاتي قبل نشرها، ويعطيني رأيه ويصلح بعض الأخطاء. أنا أثق بدقته ووضوحه وثقافته وحس الفكاهة فيه، وخصوصاً رأيه الواثق والصائب كثيراً. وأكثر ما يشعرني بالفرح هو عندما يتكلم على كتبي أمام الأصدقاء...

تفضيل نقاط التشابه على نقاط الاختلاف

أراد الصراع النسوي أن يلغي شرعياً فروقات التعامل بين الرجل والمرأة، بل أن يقلّل منها. لهذا الغرض، تم التشديد لعقود، على ضرورة إدراك نقاط الاختلاف بغية التمكن من تحديد نطاق المرأة. تظنّ إليزابيت بادينتر أن هذا الاتجاه قد ساعد اليوم على تطوير الفلّوسيّة. وبدلاً من إلغاء الفرق بين الرجل والمرأة، راحت المرأة تنعزل أكثر فأكثر. من الأفضل إذاً، وضع لائحة بما لدينا أولاً من نقاط مشتركة لخلق مساواة عادلة بطبيعة الحال. فبدلاً من تعزيز هشاشة المرأة أو جانب معين في الطبع، علينا أن نقول لأنفسنا: لدينا الحاجات والحقوق عينها... هذا المنطق هو بين الأكثر فعالية ضمن حدود الثنائي بحد ذاتها: الشريكان لا يختلفان بل يلتقيان، ما يعني أنهما ليسا متشابهين تماماً، بل متكاملان بشكل حميم. ليس علينا أن نبحث عن التشبه بالآخر بأي ثمن، وأن نتقاسم معه كل شيء: فذلك ليس بالأمر الخطير فقط، بل يُشعرنا بالملل بسرعة. في التكامل قوة!

الرقة... درب إلى الشهوانية!

ليست الرقة السبيل الوحيد الباقي بالنسبة إلى الثنائي الذي يعاني مشاكل في الرغبة. وبعكس الآراء المسبّقة، فإن الرقة تُحدث الرغبة: هي الدرب الأمتع إلى الشهوانية. الكثير من النساء يعاتبن الشريك على غضّه النظر عن هذه اللحظات الرقيقة التي يعتبرنها إثباتات طبيعية على العاطفة وتمهيدات لا تؤدي بالضرورة إلى شيء ما. التعليم، شأنه شأن تطور الثقافة، حدد صورة الرجل الذي، كي يكون رجلاً بكل معنى الكلمة، ليس عليه التعبير عن أحاسيسه. تعاني المرأة بسبب هذا الكتمان وهذا التحفظ وهذا التحكم في الذات: الصورة التي ترسمها عن الرجل لا تشبه البتة هذا الشكل. هي تحلم بأن يقبل الرجل في يوم من الأيام هذه الأنوثة الموجودة فيها، التي تعتبر من دون شك الرابط الأكثر تميزاً في الثنائي. ومن الصحيح أن يعتبر العلماء الأحيائيون، شأن جان روستند، أن «صبغيات الأنثى غير مختلطة، والعكس صحيح بالنسبة إلى صبغيات الذكر». أي أن صبغيات الذكر تحوي صبغيات أنثوية. هذا الاختلاط الأحيائي يفسح المجال أمام رقة وحنان أكثر.

ذرة جنون

تكمن إحدى علامات سلامة الثنائي المتحد في التشارك اللامتناهي بينهما الذي يحافظ الشريكان عليه في حين يزرعان حس الفكاهة. هذا الحس هو للآخرين في البداية. وهو لأنه خاص، عندما يجده الآخرون، يشعرون بأنهم يعيشون بسلاسة. الثنائي الذي يعمّر ليس خطراً ولا مثيراً للشفقة: فهو لديه أسبابه ليكون سعيداً! يصف وودي آلين في أفلامه اليُسر والعسر في حياة كل ثنائي. هو يبيّن كيف يسخر الرجل من هواجسه وأوهامه ومخاوفه، ويرسم البسمة على وجه الشريكة. أتذكر «جواباً أشبه بوصفة»: «إن لم أتحدث إليك، يلد فيّ ورم». حس الفكاهة أحد المكونات التي تجعلنا نماثل توتراتنا ونهزأ بها. الثنائي المفعم بالطاقة لا يعرف معنى الملل معاً. هو تعلّم الاستمتاع وحب الحياة من خلال حب الآخر. في داخله هذا الجانب الطفولي الذي يضفي نكهة على الوجود.

أنت تهمّني

تسمح التبادلات اليومية، بكافة أنواعها، بالتحرر من ضغط النهار. في عالم مليء بالتقلبات، حيث العلاقات بين الأصدقاء تتبدل، وحيث العمل يتطلب طاقة قصوى، يشكّل الثنائي ملجأً، وربما هو الميناء الأخير حيث نكون على طبيعتنا تماماً.

أن يهتمّ كل واحد بأدق التفاصيل في حياة الآخر، ضمان فرح ودلالة على الطاقة. تفترض الحياة المشتركة تشاركاً حقيقياً تُزاد خلاله الحوارات على الاهتمام الذي يوليه الآخر لكل ما نقوم به. ونحن لا ننتظر أقل من ذلك! يوماً بعد يوم، نأمل أن نبقى مركز انشغالاته، وأن ينسج هذا الاهتمام المتبادل غلافاً من التشارك والتضامن يحمينا من الاعتداءات الخارجية.

أنت محقّ

إننا نرسّخ أحياناً في أذهاننا أفكاراً حول ما نريد. وبرغم ذلك، فالذين يقبلون تأثير الشريك يسعدون أكثر في الحياة الزوجية، وبحسب البعض، تقلّ احتمالات الطلاق. يفترض هذا الأمر إرخاء الحبل قليلاً، والخضوع لتأثير الآخر، وتقبّل أننا لسنا دائماً على حق. إن كنا قادرين على أخذ آراء الآخر في الاعتبار، نَكُن رابحين وتوّاقين إلى إبداء رغبة في أن يولينا الآخر اعتباراً.

فلنتقبل أن الأشياء لا تحدث كما ننتظر، وأن الشريك الذي وعدنا بتمضية العطلة معنا قد ذهب للمشاركة في سباق للزوارق، وأن هذا المساء، لن يستطيع تناول العشاء في مطعم لشدة تعبه، وأنه قد قرّر تسجيل ابننا الصغير في مدرسة رسمية في حين أننا قد سبق واخترنا مدرسة خاصة... في هذه الحالات، من المفضل أن نرخي الحبل قليلاً، وأن نبيّن للآخر أننا نحترم خياراته ونفتح باب المناقشة.

الاستقلال الذاتي، لا الانفصال الكامل

كي نهتم بالشريك، نحن بحاجة كي يثير اهتمامنا. وبالتالي، عليه أن يعيش حياة تثيرنا وتذهلنا وتدهشنا. يعني ذلك أن يتمتع كل واحد بفسحته وحريته. لكن ليس كثيراً، لأننا نرغب أيضاً في تقاسم حياة خاصة معه. كيف لنا أن نوفّق بين الأمرين: انفتاح وانغلاق، ابتعاد واقتراب؟ العيش بحرية، معاً: هذا فن كامل! التوازن موقت، لكن في قلب هذا النشاط يشعر الثنائي بالسعادة. على مر السنين، نتوصل إلى استباق بعض ردود الفعل. تعلمت فانينا أن رومان يحتاج إلى وقت كي يرتاح نفسياً، وأنه يحب البقاء وحده. هي تتكيف مع الوقت، وتنظم خطواتها، وتتوقع ما سيحدث. في البداية، كانت لا تحتمل أن تراه ينزوي، لكنها الآن لا تخاف عليه، ولا عليها، من وحدته. هي مفعمة بالثقة وتحس بالاطمئنان. يقول سيرج إيفيز: «على الثنائي أن يسمح لنفسه بمعالجة عدد من المخاوف: الخوف من التخلي والتطفّل والتعدي، والخوف من عدم الاستقلال»[151]. صحيح أن الثنائي مصدر مداواة. فأن نشعر بأن أحداً يحبنا، وأن نحب أحداً، أمر يعطينا جانحين لنطير.

مع الوقت، عندما ننفصل عن النماذج العائلية، نخلق نمط حياة يوافقنا. وهذه الحياة تعجبنا لأنها من صنع أيدينا.

فليَحيَ الثنائي المترابط!

إن كان ما يضفي نكهة على الحياة الثنائية يكمن في التفاصيل، فهو يكمن أيضاً في الاستقلال الذاتي. على الثنائي أن يخلق له عالماً ولغةً، وأن يضع حدوده الخاصة، وتدرج أهدافه، وتنظيم عمله. وبحسب العلماء الاجتماعيين، تتنظم الوحدات وفق أهداف ستة: «الأمان والاستقرار؛ الرقة والدعم المتبادلين؛ الراحة والترفيه؛ التحفيز والتعاون في المجال المهني؛ الغنى الروحي؛ الانفتاح على العالم»[152]. وترتبط هذه الأهداف بنمط الثنائي:

- شكل «الحصن» أو الملجأ. الشريكان، اللذان يكونان منصهرين، يتقاسمان الأذواق والآراء نفسها، ويتفاديان الخلافات، ويندمجان ضمن صورة الـ «نحن». وهما، إذ لا يهتمان كثيراً للواقع، يتّبعان النموذج التقليدي: الرجل يعمل، أما المرأة فتلازم المنزل. يعيشان روتيناً، فلا يغيّران على سبيل المثال مكان العطلة (أحياناً مع الحموين)، ولا العادات في المنزل. فالأمان والتضامن يشكلان الأولوية بالنسبة إليهما.

- شكل «الشرنقة». يحتمي الشريكان داخل غلاف حميم من ضغط المحيط من خلال التشرنق. هما يحبان ملازمة المنزل، ويتداعمان، ويحبّان الزخرفة، ولا ينجران إلى تيار الارتقاء في المجتمع أو الاندماج في المحيط... لديهما القليل من الأصدقاء لكنهما يميلان إلى مساواة أكبر من التي يعيشها شكل الحصن. المرأة تعمل، وتشارك الرجل المهمات. ويشددان على الراحة والطمأنينة والحنان.

- الشكل «التضامني». هذا الثنائي، الذي نجده بشكل خاص في المدن الكبيرة وبين المثقفين، يبحث عن الصدق، ويولي أهمية للاستقلال الذاتي، والحوار، والتفاوض. كل من الشريكين

يؤكد نفسه من خلال اختلافه، ويبحث عن التواصل أكثر من التوافق. يخرجان ويسافران وينفتحان على أنماط عيش وتفكير أخرى، ويترافقان ويعملان ويتكاملان ويتضامنان. السلاسة مفتاح الحياة الثنائية بالنسبة إليهما[153].

- شكل «الرفقة». الشريكان يتشاركان في كافة الأمور، ويتخذان كافة القرارات معاً، ولا يحبان الروتين، ويرغبان في المساواة والتقاسم. يجدان توازناً بين الرغبة في الانصهار والانفتاح. نجدهما يترافقان مع الثنائي الشاب، ويشاركان في نشاطات اجتماعية، ولديهما مجموعات مشتركة من الأصدقاء.

- الشكل «المتوازي». الشريكان يعيشان في عالمين منفصلين. وهما، إذ يتشكلان أحياناً بعد قصص مؤلمة، يبحثان عن الاستقرار. قد تتوقف المرأة عن العمل لتكرس نفسها لأولادها، فيعيل الرجل العائلة براتبه. ولكل من الشريكين نشاطاته: الرجل يعدّد الحِرَف ويمارس الرياضة، أما المرأة فتنشغل بالمنزل وأفراد العائلة. هو شكل «وحدة للبقاء».

يقول العلماء الاجتماعيون في جنيف، الذين يعمل معهم ويلي باسيني[154] إن «الأغلبية الكبرى من الشركاء يعتبرون أنهم بحاجة إلى حياة حميمة ووفاء»[155]. لم يستنتجوا من تحليلهم إن كان هناك نموذج للثنائي الأكثر نجاحاً. بحسبهم، أن «نجاح الثنائي أو فشله، سعادته أو خيبته، الكآبة أو الثقة بالآخر، تعتمد على طريقة إدارة المشاكل التي نادراً ما يمكن تفاديها، وليس على وصفة سحرية». وفضلاً عن ذلك، يشدد ويلي باسيني على فكرة أن «الشريكين الأكثر سعادة هما الثنائي «المتحالف» (أو المتضامن). وبالنسبة إلى أي ثنائي آخر، تكمن السعادة في اختيار شكل يوافق الشريكين، وعدم الخضوع لما قد يفرضه شريك مهيمن»[156]. في الحقيقة، الثنائي المتضامن أكثر ما نجده في أيامنا هذه، وهو الأكثر إبداعاً والأكثر انفصالاً عن النماذج التقليدية. وبالتالي، هو الذي يعرف كيف يتقدم ويتكيف مع نمط الحياة الحالي على النحو الأفضل. يمثّل فانسان ومود ثنائي اليوم الشاب التضامني المفعم بالطاقة. هما من باريس، وقد تزوجا منذ خمس سنين، ورُزقا بطفل. لكل منهما عمله، وهما يعيشان بكثير من الاستقلالية. تقول مود: إنني صعبة المراس، بيد أن فانسان كتوم أكثر مني: نحن نتكامل. تكيفنا مع بعضنا البعض، بطريقة إيجابية. فيه جانب أنثوي وجذاب وحساس. ما كنت لأحتمل رجلاً ذكورياً. أما أنا فلديّ جوانب ذكورية: متسلطة بعض الشيء، لكن لو بقيت عازبة من دون أطفال، لأصبحت لا أُطاق، مسجونة وراء قضبان عاداتي. ليّن فانسان عريكتي أكثر. إننا ندعم بعضنا البعض كثيراً في العمل. فهو لديه طموحات لي. إننا مستقلان ذاتياً كثيراً، ونثق ببعضنا البعض كثيراً. في بعض الأحيان، يقول لي: «يا للروعة، أنتِ مفعمة بالحماسة!». وعندما لا تجري الأمور على ما يرام، يتحصّن بقوة للاستمرار! يجد كل منا الوسائل الكافية لمساعدة الآخر.

يبدو لنا الانفتاح والاستقلال الذاتيان معيارين أساسيين لتحقيق الذات وزرع الفرح داخل الثنائي. يسمح إيجاد «المعيار» المناسب بتطوير الشخصية والمشاريع عبر الحفاظ على الحياة

الخاصة. ما إن يبني الثنائي قاعدة صلبة، حتى يتمكّن كل شريك من التحليق بجناحيه الخاصين. يقول فيليب برونو في هذا السياق: «الوصول إلى الاستقلال الذاتي هو، إذاً، الشاهد على هوية جديدة للثنائي (...). يكون الثنائي مستقلاً عندما يحمل في داخله عامل توازنه: الحوار، التشارك، الحنان، المبادرة، التصالح... وبفضل إعادة التشكيل هذه، يعمّر الثنائي طويلاً، ويبقى الحب بين الشريكين»[157]. الاستقلال الذاتي مصدر غنى وجذب وطاقة حين يتم تقبله من جهة، ومن أخرى: هو علامة حيويّة وثقة.

لكلّ فسحته

لا شيء يجبرنا على تشارك الأصدقاء أنفسهم. أن نشعر بأننا مكرهون على ذلك، يعني الدخول في نطاق «الالتحاق»: ما نحن عليه معاً لا يستثني ما كل منا عليه من جهته. نجد في أغلبية الحالات قصة لكل شريك، وبالتالي أصدقاء لكل منهما. إن كان الأمر يُرضي الشريك فذلك أفضل. وإن كان التعاطف غير متواجد في هذه الحال، فذلك أسوأ. لا يجب أن يؤثر ذلك في نوعية الصداقة التي نعيشها منذ أعوام. يحق للشريك إبداء رأيه، لا أن يكون حَكَماً.

تكون العلاقات مع الحموين أحياناً مصدر خلافات إن كانت مفرطة، بمعنى أن يتدخلا دائماً في الثنائي. إننا نختار الارتباط بشخص، ولا نحظى بإمكانية اختيار عائلته: هي مفروضة علينا. فالأمور معها قد تجري على ما يرام، أو العكس! من المهم ألا نتدخل في العلاقات مع عائلة الشريك. لسنا مضطرين إلى حضور كافة اللقاءات العائلية، في حين أن علينا الحرص على خلق توازن معين من دون اتباع القواعد الرائجة بشكل مفرط، تلك التي تقول بأن: «الثنائي يجب أن يكون مستقلاً، ومنفصلاً عن والديه»[158]. فلنجد المسافة المناسبة التي تسمح لنا باحترام عائلتنا وعائلة الشريك من دون أن نتأثر بهما كثيراً.

ما يمكننا تشاركه في حياة الآخر المهنية، يسمح لنا بالفرار من حياتنا المهنية الخاصة. إلا أن ما يقوله الشريك لنا أحياناً، حول المسائل المهنية، يرتبط بما ليس على ما يرام. عند طرح هذه المسألة، علينا تحقيق مشروع يتوافق ونوايانا الكامنة في أعماقنا. وعند التقيد بها، تُفترض بنا المواظبة والقيام بخيارات لا تعيد الحياة الثنائية والعائلية البحث فيها. أن نوقف الآخر وأن نبدو استئثاريين، أمر يغذي إحساساً من الذنب يؤدي إلى تغيير حال التفاهم. إن جوزفين ونيكولا، وهما زوجان جديدان، ولديهما طفل واحد، يشعران بأنهما أحرار كثيراً: إننا نثق ببعضنا البعض. عشنا سنتين منفصلين عن بعضنا البعض. ليس بيننا سوى القليل من الغيرة. نحن مستقلان كثيراً. عندما أرغب في رؤية صديقاتي، يسمح لي بالذهاب بكل سرور. لست مضطرة إلى أن أطلب الإذن منه. لا نشعر بحاجة إلى الالتصاق ببعضنا البعض على مدار الساعة. منذ البداية، لم نكن ثنائياً منصهراً.

يمكن تطبيق القاعدة عينها على الهوايات: قد نجد شريكين يُمضيان العطلة منفصلين من دون الشعور بالسوء. فلور متأهلة منذ ثمانية عشر عاماً. هي شقراء ونحيلة وتكره الرياضة، وتحب البقاء في باريس غارقة في المطالعة بدلاً من ممارسة الرياضة: جان بول يحب الرياضة كثيراً،

يختار رحلات مليئة بالمغامرات، فعلت مثله مرة ورافقته في كل مكان. «تعجبني الفنادق الفخمة، أما هو فلا. لا يحب سوى القرى النائية الواقعة في آخر القارة الأفريقية... الآن، يتصل بي ويقول: «لحسن الحظ أنك لست هنا مع كل هذا الناموس...». هو يحب الرحلات الطويلة، هذه طبيعته، وأنا لن أنغّص حياته. إن كنا نحب بعضنا البعض، فليس ضرورياً أن تكون أذواقنا هي عينها. من دون تساهل، يتعذر على الثنائي أن يدوم. الآخر لا يتغير. وبرغم ذلك، نعيش في جوّ من الوفاء.

بدلاً من أن نتخيّل أن الحب هو عرض تدنو فيه «ساعة الحقيقة»، فلنتقبل أن للآخر فسحته السرية. إن لم يشأ الإفصاح عن تفصيل ما في حياته السابقة، فهو حر في ذلك: ليس علينا إجباره، فذلك غير لائق. من غير المجدي إقلاق الشريك بغيابات غير مبرّرة. علينا تفادي لعبة «الاختفاء»، أو «عدم الإجابة على الهاتف». لكثرة ذلك، قد يتدعم بأسباب تجعله حذراً...

كيف نتدبّر أمرنا لنحمي حياتنا الخاصة؟

في هذه الأيام، الجميع نافدو الصبر ومتطلبون، ويريدون كل شيء، وعلى الفور: كل منا يود التواجد لذاته وتحقيق ذاته وإنجاح حياته مع الشريك. لسنا مستعدين لنُحرَم من أمر ما. نريد الحب، ونريد أن نبقى فردانيين في الوقت عينه. لا يعني الاستقلال الذاتي (الذي أصبح الأيديولوجيا المهيمنة) «الحياة بالتوازي». باسم الاستقلال، نجد العديد ممن يعيشون حياة ثنائية، ينخرطون في جو العمل، ويسافرون على انفراد، ويعيشون حياتهم من جهتهم فقط. مع الوقت، يصبحون غير قادرين على ملاحظة تقدم الآخر، ولا يشاركونه في أحاسيسه. لكل تجاربه. وبالتالي، لا مفرّ من الهوة التي تتشكل بين الشريكين. إن كان البعض يختار الاستقلال الذاتي ـ لكل شريك غرفته وحمّامه وسريره ـ فعليه الحرص على عدم تدمير الحياة الخاصة. فلنأخذ وقتنا في الاستمتاع بهذه اللحظات السعيدة التي نتقاسمها مع من نحب. فالاستقلال الذاتي لا يعني المطالبة، بل الاحترام.

الانتماء إلى مجموعات معاً

كي ينتمي الشريكان إلى مجموعات مشتركة، عليهما أن يرغبا في ذلك معاً! فابيان وآن ينتميان إلى نقابة زراعية واحدة. هما يناضلان معاً. ونوبير ولورانس يشاركان في نشاطات الرعية... من المهم ألا نفضّل خياراتنا على حساب الحياة الخاصة، فنتوه: «يدعم بوريس سيرولنيك أو إدغار مورين، فكرة أن الاستقلال الذاتي، البعيد كل البعد عن الاستقلال التام، يقضي بمعرفة اختيار ما نرتبط به»[159]. «عندما لا ندخل في إطار من الانتماءات، يصبح الشعور بأننا «نحن» مشوشاً، لأن العالم ليس مندمجاً»[160]. تتحدد هويتنا من خلال عائلتنا وأصدقائنا وعلاقاتنا المهنية و... حياتنا الثنائية. الاستقلال التام وهم؛ في الواقع، نحن نرتبط دائماً بعدة وحدات. وتكمن حريتنا في أن نعي ما نرتبط به، وأن نحدد المسافات المناسبة. حذارٍ! فالارتباط المفرط يسلبنا طاقتنا.

الحياة الحميمة: الرجاء عدم الإزعاج

الثنائي السعيد هو الذي ينجح في الحفاظ على الحياة الحميمة التي عاشها منذ البداية، وفي خلق فسحة جديدة من الخصوصية المتشاركة أيضاً، «أي فسحة تتألف مما نتخلى عنه فينا وفي حياتنا الخاصة كي نقدمه إلى الآخر»[161]. تملك هذه المجموعة الخاصة رمزها وكلماتها الرقيقة وحركاتها ودعاباتها وذكرياتها وعاداتها وفسحاتها. إننا نجد صعوبة في خلق توازن بين حاجتنا إلى الانخراط في المجتمع، وضرورة حماية حياتنا الخاصة. إن شئنا إرضاء الجهتين، فعلينا القيام ببعض التنازلات: المتطلبات الاجتماعية والمهنية، التي تصبح ملحّة أكثر فأكثر، تشكل أحياناً عائقاً بالنسبة إلى لحظات وحدتنا في الحياة الثنائية، التي تُعتبر لحظات ضائعة. نحاول أن نلطّف قلقنا بالنشاط الزائد. حتى عندما نكون وحدنا، لا نجلس من دون القيام بأي شيء، بل نرفّه عن أنفسنا: بممارسة الرياضة مثلاً أو الذهاب إلى السينما أو الاعتناء بالأولاد أو تنفيذ الأعمال اليدوية أو الاهتمام بالحديقة... هل يخيفنا الوقوف وجهاً لوجه؟ ما الذي نهرب منه؟ كيف لنا أن نستأنف حواراً مقطوعاً؟ إلى أين يمكننا الوصول؟

حياة الآخر الخاصة تفوتنا

الآخر مصدر غموض. هو هنا، بالقرب منا، يحمل في داخله ماضيه وأحلامه وتساؤلاته. تولد الرغبة مما يفوتنا: من هذه الخصوصية التي لا تنكشف إلا بسرعة البرق، وفي لحظات من التخلي. تقول مارتين تيلاك: «كي نتحد في الحب، علينا أن نكون منفصلين»، وهي تشيد بالرزانة وتعتبر أن «لقاء الشريك يعني خوض تجربة الحدود والوحدة والفراغ (...). تسمح لعبة الإفصاح للثنائي بالاستمرار في لعبة التجاذب...»[162]. يدخل سحر الثنائي في اللعبة عندما «ينكشف» ما في الداخل، بدلاً من أن يعرض. ويتمكن الثنائي من خلال تقبل أوقات السكوت، من الحفاظ على هذه المسافة الخصبة التي يولد منها التجاذب. منذ بداية الحب، يشدنا في الآخر أمر كان ينقصنا: طبع ما؛ قوة ما؛ إحساس ما. تتشكل القصة التأسيسية من رغبة التقاط هذه الطاقة وهذا الجزء الذي نطمع فيه عند الآخر. فداخل هذا الانجذاب/المقاومة عينها، تتجدد رغبتنا في «الذهاب» إليه. تتكلم باترسيا دي لاهي على هذه الطاقة الحيوية داخل الثنائي، فتقول: عندما نحس بالحب، وحتى بالشغف إزاء شخص ما، يعني ذلك أننا وجدنا فيه شيئاً ما ليس فينا قد جذبنا إليه: سكونه، استقلاله، برودته، أو بالعكس، طبعه الانفعالي، يجرؤ على تخطي الحدود، ويثق بالحياة... إلخ. تتعلق الرغبة في أكثر ما نود أن «نسرقه» منه. وفي حال غابت هذه الميزة - ألأننا حلمنا بها أو بسبب ظروف خاصة - يدخل الحب منطقة الخطر، لأن سحرنا بها قد زال...

يثير جاك دي بوربون بوسي في Lettre à Laurence موضوع حبّه الزوجي الاستثنائي، الذي تقبّله ذهنياً وفكرياً وشهوانياً في حالات اليسر وحالات العسر. هو يشدّد على الفسحة الخاصة بنا: «ما صعُب تفسيره، وما صعب علينا تفسيره لأنفسنا، كانا ضرورة الحفاظ على مسافة معينة. كلّ منا يأتمن على شيء يتخطاه، لا يكون منه حقاً. لا يمكن تعريض هذه القوة لتسليط الأضواء عليها، فهي لا تحتمل النور الساطع. يجب حماية ما هو خاص جداً. ليس بكنز، بل أكثر،

هو بمثابة طاقة داخلية من المهم الاعتناء بها، سواء أعند الآخر أم فينا نحن. من المناسب أيضاً أن يلجأ الحبيبان إلى بعض الكتمان، وأن يرفضا الإجابة عن بعض الأسئلة، وأن يحترم كل واحد سكوت الآخر في بعض الحالات. من المهم أن ندع هذا الجزء الخفي ينمو، وهو من دون شك الأفضل»[163].

أحياناً، نصرّ على أن يفصح لنا الآخر عن مشاعره وأفكاره بسبب قلة ثقتنا به، فنُحدث مفعولاً عكسياً. فسؤال «هل تحبني؟» الذي نطرحه، قد يؤدي إلى جواب: «أبداً».

نأمل الولوج إلى خصوصية الآخر بفضل الحياة الجنسية. عندما نظن أننا توصلنا إليها، تغيب. الحياة الحميمة الجنسية بين الشريكين دقيقة جداً. ثمة جزء من حياتنا الجنسية يبقى لنا، ويكون شخصياً جداً (الاستيهامات، العادة السرية...). الخصوصية هي قبل كل شيء طريقة لإثبات الوجود، وللبحث عن اللذة مع شخص نشعر بالألفة معه. علينا أن نتفادى التكلم على حياتنا الخاصة مع الأصدقاء: فهي تخصنا نحن وحدنا. يقول روبير نوبرغر في هذا السياق: إخبار الآخر عن حياتنا الجنسية السابقة، يؤدي إلى كوارث داخل الثنائي.

ما الذي علينا تشاركه والآخر؟ يجدر طرح هذا السؤال اليوم، إذ إننا نجد أن عدد الأزواج الذين يعيشون في مسكنين منفصلين، ويفتحون حسابين منفصلين، ويقطنون غرفة منفصلة، ويخرجون وحدهم، يزداد... ولكثرة ما راحت الأمور التي يتشاركها الثنائي - التسلية، العطلة، المشاريع - تقلّ، يسير الثنائي نحو التفكك وفسخ العلاقة. ما هي فسحات حياتنا التي ندافع عنها؟ يقول روبير نوبرغر: الحياة الحميمة هي الجزء الديناميكي في الثنائي. وهو يعتبر، من خلال مرضاه، أن هناك نقصاً في الحياة الحميمة، خصوصاً بين الشبان الذين يمضون وقتهم في العمل أو الاعتناء بالأولاد. يستغربون فكرة أن العلاقة ليست على ما يرام، وأن الكارثة قد وقعت. الأمر ليس بالمدهش أبداً! لا يعيش الثنائي شيئاً: ما من خروج أو نشاط مشترك. هذه مشكلة العائلات المعاد تشكيلها، حيث يعيش كل شريك من جهته من دون أن يتشارك في أمور كثيرة مع الآخر، ثم يتعجّب لأن العلاقة تتفكك. لا يضعان شيئاً في «السلة». الثنائي الأول يضع الكثير، أما الثنائي الثاني والثنائي الثالث، فلا يضعان الكثير. يجب أن يتجسد الثنائي بطريقة أو بأخرى.

ما هو مفهوم كل من الشريكين اللذين يعيشان تحت سقف واحد، للحياة الحميمة؟ يقول روبير نوبرغر: بالنسبة إلى كل واحد، هناك علاقة مثالية بين ما يناسب تقديمه إلى الثنائي، وما يجب الاحتفاظ به. هناك أشخاص متحفظون أكثر من غيرهم، لا يتحملون عيش حياة حميمة إلى درجة كبيرة. يخافون الاكتساح، ويحبون إقفال غرفتهم بالمفتاح، حتى إنهم يقفلون باب الحمام. يكرهون قلة النظافة: ملابس داخلية في غير مكانها، مغطساً وسخاً، مطبخاً غير مرتب... نجد أشخاصاً آخرين، يسخرون من النوع السابق، فيتركون كافة الأبواب مفتوحة. إننا بحاجة إلى فسحة لنا وحدنا. لجيرار «غرفته المقلوبة رأساً على عقب»، ولناتالي مكتبها المرتّب جداً! لنحاول احترام هذه الفسحة ولحظات الوحدة الضرورية بالنسبة إلى الآخر. الحياة مؤلفة من مضايقات صغيرة... لنتفادَ جرح إحساس الآخر، ولنحافظ على «سلوك معيّن»، كما كانت تقول النساء في العصور

الغابرة. إننا لا نعيش وسط جنود! فإبداء شعور بالإزعاج، قد يُغضب الآخر. يقول ويلي باسيني: «يتعلق الأمر أحياناً ببعض التفاصيل: جملة حمقاء، صوت المذياع المرتفع جداً، عطر جديد تملأ رائحته الغرفة، نظرة نحسّ بأنها تطفّل»[164]. ويظن باسيني أن إزعاج الوالدين يفسّر التدخلات في حياة الآخر هذه.

هل نقدم أجسادنا بكل سرور أو تلبية لرغبة الآخر فقط؟ تشعر بعض النساء بأنهن مجبرات على ممارسة الحب في كل مرة يطلب منهن الشريك ذلك. أما البعض الآخر، فلا يتحمّلن أن يسرح الآخر في أفكاره: يُردن معرفة ما يجول في ذهنه... وهناك من يفرضن أفكارهن. عندما نخرق هذه الحدود، تنقص الطاقة داخل الثنائي.

يكمن التوازن في تحمّل ما يمكن تحمّله، وتقبّل المشاركة، لكن ليس على حساب الشعور بالكبت أو الاكتساح أبداً. ولكثرة التنازلات، نحس بأننا وحدنا من يبذل الجهود. وعندما نحس بالاختناق، وأننا سُلبنا ذواتنا، وفي حال تعدّى الآخر على حريتنا، علينا أن نتعلم وضع الحدود. فلنحاول أن نعيّن حدوداً لفسحاتنا المشتركة (العائلية المشتركة) والشخصية. ومن بين الفسحات المادية، على كل واحد أن يحدد ما هو خاص به: الغرف، الخزائن، الكمبيوترات، السيارة... إلخ.

ما هي الحدود التي نرسمها مع العالم الخارجي؟ الكثير من التدخل أو الكثير من الانغلاق قد يؤذينا. خصوصيتنا هشة: هي بمثابة بحث حقيقي يفرض علينا أخذ وقتنا في القيام بكافة الأمور...

لصوص الوقت

الأمور كلها تساهم في «سرقة» وقتنا الحميم: التلفاز، الأصدقاء، الأولاد، الحموان، العمل... فلنستغرق وقتاً لنحدد الفترة التي نوليها للشريك. عشر دقائق؟ ساعة واحدة؟ عند أي محطة يمكننا إطلاق «سهامنا» معاً؟ التلفاز أولاً! الفرنسيون يمضون حوالى ساعتين يومياً يشاهدون التلفاز. تبلّد البرامج أذهاننا وتبهرنا. فلتعترف بأنها برامج تافهة! ماذا لو أطفأنا التلفاز وأمضينا السهرة نثرثر! منذ متى لم نقم بذلك؟ من بين أعداء الثنائي، نذكر الكمبيوتر: هو مَلك المنزل. يمضي ليون وقته يلج إلى المواقع الالكترونية... هو موجود بالجسد، لكنه غائب، صامت، مأخوذ... إن الكمبيوتر، شأنه شأن أي نشاط لا يشرك شخصاً آخر، يولّد الغيرة والشر؛ هو يحبس من يستخدمه في إطار صادّ. تجدر الإشارة إلى «عزول» مضر آخر هو الهاتف الجوال الذي يتقدم على المحادثة الجارية، في المطعم، وعلى الشاطئ...

من بين الأمور المحتكرة للوقت: الأولاد، أو بالأحرى الوقت الذي علينا تكريسه لهم. بدراستهم، ومشاجراتهم، وتقلباتهم، «يلتهموننا»! أحياناً، نوليهم وقتنا كله. وإلى المائدة، لا نصغي سوى إليهم! وفي نهاية الأسبوع، نعتني بهم خصوصاً إن كنا المتكفلين بهم. وفي حال الطلاق، نعلم أنهم تحت رعايتنا مرة كل أسبوعين. العمل يرهقنا: علينا مراجعة الملفات وتسديد الفواتير... وماذا نقول عن الحموين؟ السيناريو الكلاسيكي: تصل الحماة فجأة لترى حفيدها: «هلا بقيت للعشاء معنا؟». هل تنمّي العطلة عند الحموين روح الحياة الحميمة؟ لنا أن نعرف ذلك... على كل منا أن

يحدد عنده العوامل التي تسرق منه وقته. لنتذكر الفترة التي كنا نولي خلالها الكثير من الوقت للآخر، ولنتساءل متى قلنا لأنفسنا للمرة الأولى: «عليّ أن أتحرر».

يتقلص الوقت الذي نخصصه للحياة الحميمة إلى درجة أصبح العديد من الأزواج لا يلتقون سوى عند النوم. هل يجب أن نكمل على هذا النحو؟ فمجرد أن نعلم أننا لا نحظى سوى بهذه اللحظات الوجيزة، يزيد الضغط علينا بدلاً من أن يشرح قلوبنا. الرغبة لا تُحدَّد بموعد، لأننا بكل بساطة لا نشعر بالرغبة في الموعد، كما لو أننا مبرمجون عليها. تكمن مأساة الحياة الحديثة كلها هنا. ليست المشكلة في أن الشريكين لا يرغبان في تمضية وقت أكبر معاً، بل في أن حريتهما محدودة جداً. عند التقائهما، يكونان متعبين فلا يستطيعان تشارك أي شيء غير النوم.

المشاركة في زرع الفرح في قلب الآخر:

التيقظ لحظة بلحظة

الممثلون هم نحن، لا الذين نراهم في المسلسلات التلفزيونية! ففي «مسلسلنا» اليومي، حتى الأحداث التافهة قد تصبح مصدر ضحك وتفكير، وتساعد على اتخاذ القرارات. معاً، نتقدم إلى الأمام بشكل أفضل. فنظرة الآخر تنير دربنا. من جهة أخرى، يفترض العيش مع شريك تيقظاً مستمراً. تقول إيزابيل يويل: «يتطلب الحب تيقظاً أيضاً، إذ علينا العيش في حالة مستمرة من إبراز الاهتمام للحبيب»[165]. كيف نجحت ناتالي في طلب علاوة من رب عملها؟ كانت تحس بأنها مغبونة، فشاركت أنطوان إحساسها بالظلم، فشجعها على مقابلته. هذا المساء، تعود إلى المنزل... «ماذا فعلت؟»، هي بحاجة إلى التكلم على المقابلة بالتفاصيل المملة أمام أنطوان الفخور بنجاحها! إن توماس، وهو رجل تجاري ناجح، يخاف إثارة غيرة الآخرين. فسرت له جوستين أن الكثيرين لا يفرحون لنجاح الآخرين، خصوصاً في العائلة. فاستنتج أنه خير له ألا يتباهى كثيراً. التيقظ هو، بحسب تعريف فلافيا مازلين سالفي، «تطبيق يقضي بأن نعيش كل لحظة منتبهين إلى ما يحدث فينا ومن حولنا (...). لربما هذا هو الحب، الامتنان العميق والكبير لفكرة الشعور بالعيش إلى جانب شخص حيّ بكل معنى الكلمة»[166]. يتطلب إدراكنا حاجاتنا وحاجات الآخر «اعتناءً بالذات» وبالعلاقة، وتحديد فترة من الوقت نسأل فيها أنفسنا عما يجرحنا ويعيقنا ويحبطنا. وكي نفكر في الحل الأنسب، علينا ألا نفلت الحبل أبداً، وأن نبقى على السمع متنبهين إلى أقل رد فعل يقوم به الآخر، ومبدين اهتمامنا حتى لما لا نفهمه منه، هذا بالتحديد لأننا لا نفهمه.

الاستعداد للسعادة

الثنائي السعيد ليس وهماً، بل نتيجة استعداد للسعادة وإرادة مشتركة. أنا مقتنع بأن سعادة الثنائي ونجاحه، ينبثقان من مفهوم تفاؤلي حول الوجود. خلاصة الأمر، يجب الاعتقاد به. «عزم أحد الشريكين يمنع الآخر من الانجراف بعيداً في السلبية أو الحتمية. إن طاقة هذه الميزة

معدية»[167]. يتعلق الأمر بالاتفاق والنظر إلى بُعد. يجب أحياناً مزج «الاقتناع والمثابرة والحذق والحزم والإبداع معاً» لحصد «انتصارات بعد جهد جهيد»[168]. بارفين كوري وفرانسوا ستالي نحاتان، تقاسما طوال حياتيهما حاجة الإبداع معاً، فكانت تُحف الواحد مصدر إلهام بالنسبة إلى الآخر. يقول فرانسوا: نحن تمكّنا من العيش بسعادة على الدوام على الرغم من الفرق الكبير في السن بيننا لأن مفهومنا للسعادة هو عينه.

تحلَّ بالشجاعة...

نميل أحياناً إلى التقليل من قيمتنا، بسبب أو من دون سبب. والشريك، بوجوده ونظراته المليئة بالحب، يجعلنا نؤمن بأنفسنا. لقد تابعنا، وعرف أننا تقدمنا، بيد أننا شخصياً لا نقيس دائماً المسافة التي قطعناها. وعندما يهن عزم أحد الشريكين، يمكن الآخر أن يشدد على قيمة المسافة التي اجتازها ويعيد رسمها له والإشادة بها. ما من شيء أهم من أن نتمكن من التعبير عن شكوكنا وخيبات أملنا وشعورنا بالظلم. فأن نفتح قلوبنا ونحس بأن الآخر يفهمنا، أمر يزودنا بالطاقة من جديد. «إبداء الاهتمام هو قدرة كل شريك على التماثل بالآخر، وفهم ما يمكن تحفيزه وإحزانه وإسعاده. هو أن نصغي إلى الآخر، ونعرف كيف نفسر ما يبوح لنا به وننسجم معه، أي أن نشكل وجوداً حساساً عند الحاجة[169].

املأ قلبك فرحاً...

إن كان صعباً تحليل الجروح القديمة في الثنائي، فالتضامن يساعد على تخطيها. عانت ليليان كثيراً لأن أمها لم تكن ودودة معها. لطالما أخبرت جول عن الأمر، إلى أن أحست يوماً، في فترة كان حبها تجاه هذا الرجل الحنون قد قوي، أنها تحررت. لا يتعلق الأمر بأن نتشارك في ما كنا لنخبر به العالم النفساني، بل التجرؤ على التعبير عما يزعجنا ويثيرنا ويعيقنا. كما علينا ألا نتردد في التطرق إلى المصاعب التي نواجهها داخل الثنائي، وأن نشدد على أنها من دون شك عابرة. حتى لو كانت التغييرات بطيئة، فالسكوت ينقطع. وكي نصغي إلى الآخر، علينا أن نبتهج. وكي نبتهج، علينا أن نقبل أنفسنا. حتى مقاومة الآخر لفتح قلبه، قد تشكل جزءاً من سحره. تتطلب عملية التحسن المتبادلة البطيئة هذه، الصبر وحسن التدبير. لا نستطيع التطور إلا إذا تجرأنا على الإفصاح عما نحس به، حتى ولو جازفنا في إعادة طرح موضوع علاقتنا. وكي يسعد أحدنا الآخر، علينا تقبل الملاحظات التي يوجهها الآخر حول سلوكنا، خصوصاً إن كانت تعنينا وترتبط بتعارضاتنا. إن رغبنا في التقدم، فعلينا أن نعيد النظر فيها على النحو الصحيح، وأن نكشف عن الجزء الحقيقي فيها. تحقيق السعادة في الحياة الثنائية ينتج من خلق الحركة بين الشريكين. إننا نُغني الثنائي من خلال اكتشافاتنا ومطالعاتنا وتجاربنا ولقاءاتنا. الشريكان الأكثر سعادة هما من يخصصان فسحات من الحرية لبعضهما البعض.

ساعد الآخر على تحقيق أحلامه تساعد الثنائي على الدوام

تكمن المروءة الحقيقية في الثنائي، في ترك الحرية للآخر كي يسترسل في أحلامه حتى النهاية. «أن نتقبل مشروع الآخر ونتابعه، وخصوصاً إن لم يكن مشروعنا، هو أساس الوحدة الحقيقي. لكل في أعماقه مشروع حياة، معروف أو مجهول، يعود أحياناً إلى الطفولة ويبرز يوماً في الثنائي»[170]. عندما يخبرنا الشريك برغبته في التوقف عما يقوم به للانكباب على الرسم، نُذهل ونتفاجأ لأنه لم يتكلم يوماً حوله. وبرغم ذلك، ما من شيء محفز أكثر من تغيير يوافقنا. أحياناً، لا يعبّر الآخر سوى قليلاً عن رغبته. علينا نحن أن نساعده على ذلك، وأن نخمّن ما هو حلمه. تقول سوزان: كان فرانسوا من حثني على إنهاء دراستي. عندما شرعت في الكتابة، قال لي: «لست جبران»، لكنه شجّعني وتمكنت من كتابة عدة كتب بفضل دعمه.

تقول باتريسيا دي لاهي: ما نريده اليوم هو أن يتحرك الثنائي أكثر من أن يعمّر. في بعض الأحيان، علينا التصرف كالأطفال، ونراقَب ونوجَّه. عندما نعرف ما يريد الآخر أن يكون، يسهل علينا وضعه باتجاه حلمه، ونفرح بما يحرزه من تقدم وما يحققه من نجاح، ونتحلى بالمعنويات عندما تخمد همّته. أَسدي هذه النصيحة إلى الرجل الذي يود أن يعلم ماذا يفعل لإسعاد الشريكة: شجعها، دعها تكن ما هي عليه، بحرية، ومن دون إصدار الأحكام! دعها تبذل جهودها وتفرح على راحتها وتعبّر عن رغباتها ولذة عيشها بالتساوي معك. «يظن الرجل أنه زوج صالح عندما يُبعد زوجته عن أي حاجة، لكن، هل المرأة تريد دائماً هذه الحماية؟»[171]. فمتابعة مشروع الآخر تسمح بتعزيز الذاتية والتقدير والإعجاب المتبادلين.

يصبح الثنائي ما نحن عليه

الحب الحقيقي سخي، بمعنى أنه شامل: نحن لا نحب لذاتنا، بل نريد الحبيب كله، وحريته أيضاً. نرغب في أن ينفتح الآخر على العالم. إذاً، نحن نعيش الحب على أنه سلب إرادي وليس حرماناً. ومع الوقت، تتوافق الصورة التي نرسمها عن الثنائي مع الواقع، فيعكس الثنائي تطورنا. هو يتغير ويغير نظرتنا عن العالم. وها بنا نتجه نحو المهم. «بدلاً من أن ننتظر أن يمنحنا كل شيء، علينا أولاً أن نكون مستعدين لنعطيه أكثر»[172]. الاستثمار الذي نوظفه في سبيل نجاح الثنائي، يثبتنا في هذه العلاقة. تقول ناتالي: لطالما شعرت برغبة في دراسة الميثولوجيا العائلية. أما الآن، فما أفكر فيه بعمق يتطابق تماماً مع الصورة. أصبحت حياتي الثنائية ما كنت أحلم بأن تكون عليه.

لا تضعوا معايير خيالية

علينا ألا نتطلع إلى الكثير، وألا نتأمل أبداً أن تصبح حياتنا الثنائية أسطورة. لنكن واقعيين، ونتقبل ما قد نمر به من خيبات أمل وفراغات وانزعاجات. الحياة السعيدة ليست سلسلة متواصلة من لحظات السعادة، بل هي عبارة عن تقلبات. تفسر باتريسيا دي لاهي الأمر: لا يكون الثنائي راضياً 100% أبداً. فهو كذلك بين الحين والآخر. يكمن الخطأ في أن نظن أن لحظات السعادة هذه ثابتة. ما من أمر جامد، لا السعادة الكبرى للعيش مع الشريك، ولا التعاسة الكبرى للعيش مع الشريك. يمكن

أن تحصل كافة الحالات معاً. تأثرت لرؤية شريك يشغل مكاناً يتغيّر خلال محادثة واحدة. قد يقول رجل عن زوجته: «لم أحب سواها، أنا أضجر معها، وأفكر مجدداً في لقائنا...». إن كافة الحالات موجودة معاً. إنها تتألف من أجزاء مختلفة، وهي عند تكاملها مع بعضها البعض، تشكل مجموعة واحدة متماسكة.

أحبّوا حلاوة العادة والحياة اليومية

إن «وحش الحياة اليومية»، بحسب تعريف فلافيا مازلين سالفي، متهم من دون أن يكون مذنباً. بالنسبة إلى الأغلبية، هو المسؤول الكبير عن ضجر الثنائي. فهو يبتلع كل شيء: الأحلام، الشغف، الانتباه إلى الآخر... لكن من يفلت من هذه الحياة اليومية؟ حتى إن للغاوين الكبار عاداتهم ونمط عيشهم الصغير. وحتى من ارتبطوا للمرة الرابعة، تشكل التصرفات التي نقوم بها غير شاعرين بالوقت الحاضر، روتيناً. «عندما نغرق في الوقت الحاضر، ونتيقظ للنكهات المتعددة التي تؤلفه... نكون قد دخلنا قلب الحياة. فلا يمكننا أن نسأم منه (...). كيف للروتين أن يتخذ مكاناً له بين شخصين يعيان أن الدوام طُعم الروح؟ لست اليوم ما كنت عليه في الأمس، واليوم ليس شريكي ما كان عليه في الأمس، ما كان قبلاً لم يعد موجوداً الآن (...). نحن مسؤولون عن الملل أو التهاون... في الثنائي»[173]. لنا حرية طرح اقتناعاتنا الراسخة مجدداً، ورمق الآخر بنظرة جديدة، والإصغاء إليه من دون الحكم مسبقاً وإدهاشه. المسألة مسألة تغيير لوجهة النظر، وليست تغييراً للشريك، كما أنها مسألة وعيٍ تام للوقت الحاضر وللجمال المحجوب الذي يخفيه.

قد تكون العادة جميلة. كتب كيركيغار: «ما لا يتغيّر قد يكون تعبيراً لأمر جميل، فيكون الإنسان فخوراً بخلقه، فعلى سبيل المثال، في الموسيقى، النمط غير المتبدل يُحدث أثراً جمالياً، ويدلّ على عظمة (...). إن كنت صادقاً، فعليك أن تفهم أن مهمتك هي في هزم الروتين، أي في المحافظة على الحب على الرغم منها وألا تيأس...»[174]. هو يشبّه الحياة الزوجية بالمياه الجارية التي تصدر نغماً خاصاً بها، «عذبة بالنسبة إلى من يعرفها، وعذبة بالنسبة إليه، فقط لأنه يعرفها. هي تجري ببطء، وبرغم ذلك يسطع عليها أحياناً شعاع ما، وهي لا تقطع مسيرتها المعتادة...»[175]. العادة ليست معاكسة للحرية تماماً، بل إنها تسلط الضوء عليها. هي حرية داخلية، وليست تتالياً للانشراحات. تندرج الخيارات العميقة في إطار العادة الذي يخفف عن النفس، ويسمح لمن يقوم بعمل ما، أو يبني حياة مهنية، بأن يعمّق في السكون مهمته.

العاطفة دليل محبة

بعكس الأمور الأولية، الحب الحقيقي لا يتغذى من الأشياء الكبيرة، بل من الإشارات الصغيرة. إن لفتات الانتباه الصغيرة قد تدوم إلى الأبد: باقة من الزهور في عيد العشاق، أو هدية صغيرة بلا مناسبة، من دون أن ننسى الأعياد أو المناسبات الأخرى، كأعياد الميلاد واللقاء الأول

والزواج. نفهم بذلك: إظهار نزاهة تامة. هذه الإشارات الصغيرة هي عربون شكر وإفصاح عن الحب. صحيحٌ أن الرجل والمرأة لا يوليان هذه الإشارات الأهمية نفسها. لا شك في أن المرأة بحاجة أكثر إلى الشعور بأنها محاطة بشتى أساليب الاهتمام، في حين أن الرجل يحب أن يُهنّأ ويُشكَر ويُدلَّل. يصعب على المرأة أحياناً الحصول على الدعم، لأنها بكل بساطة لا تعرف كيف تطلبه. وطريقة ذكية لذلك هي في استخدام الفعل «استطاع» عوضاً عن «أراد»، والصيغة الشَّرْطية بدلاً من الأمر. نجد المفتاح في فن الطلب. في النهاية، يساعدكم الآخر لشعوره بلذة، على تلقي بعض العاطفة والمديح وكلام الحب.

تتطرق إيزابيل يويل إلى موضوع «الذين يمضون حياتهم إلى جانب شريك لم يعبر لهم يوماً عن كلمة حب (...)، إلى أن يختاروا «حبيباً» ليسوا له (...). كلمة «أحبك» تسمح لهم بالخروج من هذه الوحدة التي يتخللها بعض من لحظات الطفولة»[176].

وقبل أن تأتي ساعة استعادة عاطفة الشريك، فلننتبه إلى ألا ندعها تضعف أبداً. ونذكر إحدى أكبر علامات الدلالة على العاطفة: منح الشريك من وقتنا الخاص والتحرر.

تبادل الأفكار وفتح باب المباحثات

تكون المناقشات الكبيرة ناجحة عندما تساعد كلاً من المشاركين فيها على التقدم. فلنخرج من نطاق المبادلات المقتصرة على الحياة اليومية والميزانية والعطل والتفاصيل المادية. لنوسع قاعدة النقاش: لنتكلم على الأدب والعلوم والسياسة والدين... فلنتقاسم حماستنا وتمردنا وأفكارنا، ولو أدّينا دور محامي الشيطان. فما دامت محادثتنا لا تنقطع، يبقَ الحب حياً، ويبقَ رأي الآخر مصدر غنًى. في هذا السياق، نذكر مثل شخصين من أهل الثقافة، هما ماري كلير ولويس، المتأهلان منذ ثلاثين عاماً. بالنسبة إلى ماري كلير، السر هو هذا الاهتمام المشترك في طريقة الإحساس بالأمور الفنية والسياسية والثقافية، وطريقة التصرف وإبداء الرأي. «ذلك ينوّرنا؛ نحن نتكامل؛ أحبّ نظرة لويس غير المتحيزة؛ الذي يقوله يبدو لي حقيقياً وصحيحاً».

التقدّم: إبداع وروحية ومعالجة

إن أردتم التقدم حقاً، فالوسيلة الفضلى هي المعالجة. كثيرون من الأشخاص هم شكوكيون، وقبليّون، ويشاطرون نادين غراجان رأيها: أنتم جالسون على كنبة، وتقسّون قلبكم في السكون الذي لا يردكم سوى أنتم. وبرغم ذلك، يسمح لكم العمل على تطوير أنفسكم، بالتعرف إلى ذواتكم أكثر، والتحرر من التكريرات الأبدية، ومداواة الجروح، وفتح آفاق جديدة، وصنع حيواتكم بأيديكم، وبالتالي الدنو أكثر من الواقع. هنا تولد علاقة أفضل مع الآخرين. يكفي أحياناً أن يتحرك أحد الشريكين كي يتحرك الثنائي، أو على الأقل لفسح المجال أمام تقبل الواقع. لقد اعتبر فرويد أن ميزة كل معالجة هي في إيجاد معنى الفرح. لمَ نُحرم منه؟ قد يكون الفرح أجمل هدية يمكننا تقديمها.

عندما يخضع كل واحد لمعالجة، يسهل التفاهم المتبادل. ليتيسيا امرأة متزوجة منذ ثلاثين سنة. ترك والدها أمها ليعيش مع امرأة أخرى عندما كانت في الثالثة من عمرها، ولم تره منذ حينها.

وكان قد توفي عندما حاولت رؤيته من جديد. التقت ليتيسيا بشارلي في نادٍ للبريدج. وهي تخبر القصة: قالت لي أمي: «يا لجماله، إنه في غاية الوسامة!». رحت أنظر إليه بانتباه، وهو أيضاً كان ينظر إلي. ذهبنا إلى السينما معاً. كان بمثابة والد لي. كان يتكلم على الأمور السيئة والجيدة. كان حبه لا يبالي بالقواعد. كان منبع حماية وحنان. جرت الأمور على ما يرام. لم نتزوج إلا بعد أن رُزقنا بطفلين. كنا حينها في السبعينيات، أحسسنا بأننا هامشيان. قمنا بكافة الخطوات بالعكس. استغرق زوجي عشرين سنة ليتأكد من أني امرأة حياته. لم يكن متأكداً من أن علاقتنا ستستمر. مررنا في أوقات صعبة للغاية. مرّ شارلي في حالة انهيار عصبي. لم أعتد على هذا النوع من الحالات. كان نشاطه مفرطاً وسلوكه عدائياً. كنت ألقي اللوم على نفسي، مثل ولد يتعامل مع أبيه. لقد تخلى والدي عني، وبالتالي كان من غير الوارد إطلاقاً أن أحرم أولادي من أبيهم. فموضوع الانفصال لم يكن يُطرح حتى. خرج شارلي ببطء من حالته. أما أنا فقد استطعت الصمود بفضل العمل والأولاد وطبيعتي والمعالجة، وخصوصاً وجود الصديقات قربي. لم أخن شارلي في حياتي. لست أنا من يقوم بهذه الأمور! لم أقع في غرام أحد غيره. خضع شارلي أيضاً للعلاج. عندما بدأ، حذّرني من أن ذلك قد يضع حياتنا الثنائية في خطر، فأجبته: «يستحق الأمر المخاطرة! كلما جرت الأمور على ما يرام، كان أفضل لنا!». الغريب في الأمر، أننا ذهبنا بآراء راسخة، وكلما «مثلنا للشفاء»، اكتشفنا أكثر أننا متفاهمان حقاً. هذه هي السعادة الحقيقية! أقول لنفسي كل يوم: كم أنا سعيدة! أصلح العلاج الأمور إلى درجة غير طبيعية. حتى إننا شعرنا بأننا بدأنا حياتنا الزوجية لتوّنا. سرّنا هو أن أحداً منا لم يتهم الآخر بالتسبب في عجزه عن السعادة. تكفَّل كل منا بحصته من المهمة، من دون أن يتهم الآخر. أظن أن خطوة شارلي بالخضوع للعلاج تنم عن شجاعة كبيرة. بالتحليل، نجد القدرة على السعادة، ويقلّ الخوف الذي نحمله إزاء الآخر. وفي خضم مصاعبنا، لم تكن هناك مرة كلمات قاطعة أو قلة احترام. لم نُهن بعضنا، إلا نادراً. لم نتبادل إهانات نعجز عن نسيانها. بعد ثلاثين سنة، غابت الخلافات بيني وبين هذا الرجل. كشفت كل أوراقي. قلت كل شيء بحرية تامة. يفصح لي إن رأى فتاة جميلة أنه رغب فيها... في السابق، كنا نتشاجر. أولادنا كانوا يقولون لنا: «الحب بهذه الطريقة غير معقول!». أحتفظ على مكتبي بدجاجة من ورق صنعها لي شارلي مرة في السينما، وحصبة أهداني إياها على الشاطئ، وصورة له راسماً ابتسامة جميلة على وجهه. أحب ذكاءه ونعومته وحساسيته وروح الفكاهة فيه ونزاهته الكاملة وحنانه. هو أبٌ رائع! ثقتي به مطلقة تقريباً. رغباتنا هي نفسها في الوقت نفسه: الذهاب إلى الأوبرا، ممارسة الرياضة... يقول لي أحياناً: «هل أخذت مفاتيحك؟». ليس لي رجل غيره. لا أتحمل الرجل المهيمن، ولا أستغني عن رقته. هو يغضب أحياناً ويتشاءم، لكنه نابض بالحياة!

يساعد الإيمان الثنائي المؤمن على عيش هدف واحد وتجسيده. أياً يكن دينهما، فالثنائي المنفتح على الروحية يتحلّى بالقوة. هي تُدخل بين الشريكين قيم المروءة والاحترام والثبات، حيث التفاني بحد ذاته لا يُفسَّر على أنه حرمان.

يبدو لي الإبداع طريقاً لبناء الحياة الثنائية. في حين أن التخيل يوماً بيوم مضاد للملل. فالإبداع ينشط أكثر. الفن، سواء ألجأنا إليه وحدنا أم مع الشريك، يشبع العديد من الرغبات: الرقص، المسرح، الكتابة، التصوير، الموسيقى، الرسم... لمَ لا نكرس وقتاً لنتفرّغ لما نرغب فيه؟

الوقت هو، إذاً، حليفٌ يزودنا ببراهين عن الحب. يقول بروست إن الحب هو «المكان والزمان اللذان يتأثر بهما القلب». الثنائي المتفاهم جيداً يشعّ، وقد كتب جاك دي بوربون في هذا الصدد: «كنا أكيدين تماماً من أننا ضمن نطاق الصواب، وعلى يقين تام بأنه ما من شيء فوق الحب المتشاطر، إلى درجة أحسسنا بتعاطف كبير تجاه من لم يعرفوا هذه النعمة»[177]. يرى الكاتب في الوقت الذي يمضيه كل شريكين، مصدر فرح: «من دون حب عميق، يكون الوقت في الواقع تافهاً وأشبه بطريق القطار. إننا ننتقل من محطة إلى أخرى. الحب يغير لون الوقت، فتشع نقاط ساطعة وتنطفئ وتلمع مجدداً بعد أعوام. الأشهر والأسابيع والأيام متعددة الألوان، هي سوداء، زرقاء، حمراء، قرمزية. لم يعد الوقت درباً طويلة تمتد بتعاسة، بل هو أشبه بأسهم نارية، حيث سهم الفرح ينير الليل المظلم»[178].

الفصل الثامن

الحياة الجنسية: واحة وأوهام وتجارب

العلاقة الجنسية طريقة للتواجد في هذا العالم. هي التعبير الأكثر شهوانية والأكثر سمواً في الوقت عينه، في البشرية. وهي تنكشف وتتضح وتتطور وتتحرر وتكشف عن نفسها وتكشفنا. لغة الجسد هي تجسيد للكلمة والطاقة التي تجري في عروق الثنائي. عندما يقوم الشريكان بالتبادل ويثقان ببعضهما البعض، تنمو حياتهما الحميمة. وتقدّس الحياة الجنسية هذه العلاقة الأشبه بإحساس يوم عيد. كيف لنا أن نوفّق بين الحياة الجنسية والحياة الثنائية؟ أليس هناك من تعارض بين الرغبة الجنسية، الشَّرِهة بالأساس، والحياة اليومية لكل ثنائي، المحدودة بالضرورة؟ كيف نبقى أوفياء؟ هل يجب أن نفصح عن خياناتنا؟ وبين واحة الحياة الثنائية وأوهام الحياة الجنسية المطلقة العنان التي تشيد بها وسائل الإعلام، وسُكر التجارب، كيف لنا أن نتفادى الغرق؟

الحديقة الخاصة: التجاذب

الثنائي عبارة عن رجل وامرأة يتبادلان الحب ولا يتوقفان عن التجاذب، كما لو لم يكتسبا شيئاً. يعطينا الثنائي هوية رجل وامرأة. أما البقية فهي أدب! هذا بحسب روبير نوبرغر الذي يعتبر التجاذب أساس الحياة الثنائية. التجاذب هو فن كامل حيث يمتزج حس الفكاهة مع الإعجاب والتشارك. «الشريكان المتحابان اللذان يبقيان كذلك، يتماهران للحفاظ على التجاذب الضروري للإحساس الذي ينشطه (...). وهذا أحد أسرار الحب الذي يعمّر. يحافظ الشريكان على الحالة الأولية... إن قوة الابتكار لدى الثنائي وتوفره للحب، أفضل مضادين لتلاشي الرغبة»[179].

عند استهلاك كل شيء، لا نترك مكانا كافياً للفترة المخصصة للتعبير عن الرغبة. فإرضاء الرغبات بسرعة كبيرة، يُلغي سحر اللحظات. في الواقع، إن جزءاً كبيراً من اللذة يكمن في الانتظار، وفي «تقاسم لحظات الحياة باستمتاع»[180]. ويقول هولدرلين في هذا الصدد: «تتجه الرغبة دائماً نحو اللانهاية». وهي تحديداً، غير مشبعة، تعيش من هذا التجاذب المرتكز على الجذب والإغراء. نظرة ما قد تولد إحساساً وتغذي استيهاماً. كتبت أناييس نين عن الجنس في كتابها الشهير

Journal: «من الخطأ ألا نمزجه مع الشعور والجوع والرغبة والشبق ونزوات ما وروابط شخصية وعلاقة أعمق تغيّر لونه ورائحته وأنماطه وحدّته...»[181]. لكل ثنائي لغته الشهوانية: من الأفضل لكل ثنائي أن يخلق مفردات خاصة به لا يفهمها سوى المعني بها(...). ومن أجل تشكيل لغة حقيقية للحب الذي يعيشه الثنائي، على هذا الثنائي إن كان يستحق هذا اللقب «الثنائي» أن يخلق كل شيء»[182].

كيف لنا أن نعيد تكوين الحياة الشهوانية عند زوال الموانع، وعندما نصبح والدين أو تصبح علاقتنا علاقة صداقة، أو عندما يتخذ الروتين مكاناً له في الثنائي؟ إننا نعتاد على نمط معين، ونمارس الحب فرضاً، كل ليلة سبت، ومرات أكثر في العطل، دائماً بالطريقة نفسها، بتعاسة... كيف لنا أن نخرج من هذه الدوامة المثيرة لليأس؟ خصوصاً أن كل واحد يظن أن الآخر باقٍ مهما حصل. كيف لنا أن نستمر في إذهال الآخر وإثارته والاحتفاظ به؟ من الضروري أولاً أن ندرك أوجه الرغبة المتعددة عند الآخر بشكل وثيق. وبدلاً من اتهامه بعدم الاهتمام بنا، فلنضع شروط لعبة الحب. فالخمول يعزز الكبت، حتى ولو وجد فيها البعض حسنةً، لا بل رآه تعويضاً...

نصائح جذب للاستخدام النسائي!

حافظي على مسافة مدروسة ومناسبة، وعلى جزء من الغموض يعطي الشريك رغبة في استمالتك. يقول كورني في هذا الصدد: «تتزايد الرغبة عندما تتراجع الوقائع» (بحس للفكاهة، سارع الطلاب إلى تبديل النصيحة قائلين: المؤخرات تتراجع!).

التجاذب خيمياء شخصية للغاية. الثقة بالنفس وحس الفكاهة يبقيان أفضل سلاحين بالنسبة إلى الغاويات الكبريات. المرغوبات أكثر من غيرهن، هن من لا يبدين معنيات. النظرة والتصرفات والصوت والابتسامة تكفي للجذب. لا تكثري منها. فإشارة صغيرة أفضل من المبالغة. ألا يكمن أساس الموضوع في تسليط الضوء على ما نقدّره فينا؟ اعتبري نفسك فريدة من نوعك، ملكة مقتنعة بمؤهلاتها. الإغواء يحدث بمساعدة الحدس. لا تنسي أن تتحضري في المساء كما لو كنت ذاهبة إلى حفلة: تبرّجي قليلاً، ضعي حلياً... إن كنت تحملين في قلبك ميلاً حقيقياً إلى أن تكوني ربة منزل وملكة الطبخ، طبقي فن الإغواء بطهو أطباق لذيذة. نظمي حفلات عشاء للأصدقاء: هي مناسبة يقدرون فيها مواهبك. أظهري الحيرة على وجوه معجبيك... لا تنسي أن تُذهليه بنجاحاتك. المرأة الناجحة تكون مثيرة!

الأشباح

من أجل التنعم بحياة جنسية مُرضية، على كل واحد أن يشعر بالثقة، وليس محكوماً عليه. قليلون هم من يتوصلون إلى الجمع بين الحياة الجنسية السعيدة والحياة الزوجية. لماذا؟ يتساءل سيرج إيفيز قائلاً: «من ينام في السرير الزوجي؟»[183]. يربط الرجل في الكثير من الأحيان صورة

المرأة بالأم. لكن الشريك قد يمثل أخاً أو أختاً. ترعرعت ماتيلد وأخوها في الغرفة نفسها. لاشعورياً، أصبح شريكها بمثابة أخيها الصغير.

فضلاً عن ذلك، من يراقبنا ونحن في السرير؟ ليس الجنّيات فقط! نظن أننا وحدنا، لكننا نحس بأن أباً ما، أو أماً ما تراقبنا. «تضع النماذج العائلية أساساً لرغبة العيش والرغبة الشهوانية»[184]، وذلك بحسب تفسيرات ويلي باسيني الذي ينعت العائلات التي تكبح الرغبة بعائلات «الطالبان». هناك لائحة كبيرة بالمبادئ التي تمنعنا. علينا أن نتوصل إلى كشفها لتحليلها محاولين التحرر منها.

الجنس والعادات

إن كانت الرغبة هي التي دفعتنا نحو الآخر، فهي تولد من جديد إن حاولنا خلق «واحات» وأماكن وأوقات خاصة بنا وحدنا: التخيل، الجو، الحنان، الاهتمام. يلزمنا العديد من المكونات لإضفاء نكهة السعادة على حياتنا الجنسية وتدعيمها لمواجهة كافة النزاعات وخيبات الأمل الملازمة لحياتنا الثنائية. إن عالم إيروس عالم معقد وهش. للولوج إليه، من الضروري اتّباع بعض العادات. لكل ثنائي عاداته: تحضير غداء احتفالي، التمدد على الكنبة، التلاطف مطولاً... تتطلب ممارسة الحب في الحياة الثنائية التفوق على الحياة اليومية. علينا تفادي المواضيع المُضجرة والمناقشات التافهة. البعض يمارسون الحب في الفنادق، ولا يترددون في ارتداء الملابس الداخلية المثيرة، وحتى أنهم يرتادون النوادي حيث يتبادلون الشركاء، كما تروي لنا ماري وستانيسلاس[185]. المهم في الأمر هو الاسترخاء بشكل خاص، وفهم الشهوانية على أنها فترة كبيرة من الوقت الحر في حياة عصرية يملأها الضغط. فممارسة الحب يمكن اعتبارها بمثابة الذهاب في عطلة.

طاقات شبقيّة مختلفة

الرجل والمرأة مختلفان. يُعتبر الجنس بمثابة بحث، ومعركة، وسرعة، وضرورة بالنسبة إلى العديد من الرجال، في حين أنه رقة، وأمان، وتفان، بالنسبة إلى أغلبية النساء. فكيف يمكننا أن نوفّق بين رغبات يُعبَّر عنها بهذه الطريقة المختلفة كل الاختلاف؟

تتمحور الأسئلة التي تُطرح لبريجيت لاهي، حول التفاوت بين الرجل والمرأة. واقع جديد: النساء غير الراضيات يعبّرن عن شعورهن أكثر فأكثر و«يشتكين من رغبة الشريك الضعيفة»[186]. هن يطلبن حياة جنسية خلاقة لاصحية. هؤلاء «المحاربات الجديدات» مستعدات لخوض معركة طرح كافة الأمور من جديد. أما اللواتي يبقين خاملات، فكيف لا يشعرن بالكبت؟ وبما أن الـ «أنا» عند الرجل هشة أكثر من «أنا المرأة»[187]، فعلى المرأة طمأنة شريكها قبل الإعراب عن رغباتها، بخطر كبحها. على المرأة تفادي المؤاخذات تماماً خلال المرحلة التمهيدية، وتقييم ما يولّد الرغبة

فيها. في الواقع، من الحساسية بالنسبة إلى امرأة أن تبوح عن رغباتها: هي تخشى صدّ فارس الأحلام، «تخشى أن تصدم الآخر أو أن «يحكم عليها» لأنها لا تتوافق وما يتخيله. هي تخاف أيضاً أن تجرح نرجسيته»[188]. ويكون الحلّ في هذا الوضع بطرح الأسئلة المناسبة بنبرة معينة، كأنها دعوة. وسؤال كاتيا مثال على ذلك: بالمناسبة، هل نسيت أن لدي نهدين؟ وسؤال بيرينيس أيضاً: ألا ترغب في أن نتلاطف قليلاً؟ مفتاح الحل هو ألا تبدئي بـ «أنا» بل بـ «أنت». تفادي قول: «أرغب في أن تفعل كذا...». فذلك يوقف الرجل: فهو يشعر بأنه يؤاخَذ لأنه لم يفكر في ذلك. لا ننسى أن العديد من الرجال يحسون بهذا الاستيهام، أنهم الحبيب الوحيد الحقيقي.

إن المرأة، بتمكنها من زيادة التحكم في رغباتها، تقدّر اللذات الجسدية والمداعبات. قد يسمح كتاب La caresse de Vénus ou les rêves du clitoris بقلم جيرار لولو، للرجال باكتشاف «أن هذه الفتحة المقدسة لا تكتفي بتوفير الملذات والنشوة للمرأة، بل هي تؤدي دوراً أساسياً في إسعاد حياتها الجنسية»[189]. على الرجل أن يدرك أن المرأة تُثار جنسياً في كافة مناطق جسدها، لا كالرجل الذي يحس بالإثارة في أماكن قليلة ومحددة. لحسن الحظ، هم يسعون أكثر فأكثر وراء معرفة كيفية إرضاء رغبة الشريكة. تقول أغات: يحب جان بول ممارسة الجنس كثيراً. أما جنسانيتي فهشة أكثر وعقلانية أكثر. أحياناً لا أرغب سوى في النوم، فقط النوم. نجحت في إفهامه أن دليل حنان منه يكفيني. التدليك مثلاً أو المداعبة رائعان، شأنهما شأن ممارسة الحب. هو حساس ومتساهل. بالنسبة إليه، ممارسة الحب احترام.

من بين الفروقات: بالنسبة إلى النساء، ثمة فترات من دون، وفترات مع. فالرغبة مذنبة أحياناً عندهن، وفقدان السيطرة مصدر خوف. قد تساعد جلسات من التنويم المغناطيسي «على الحد من هذا التيقظ الذي يعيق الرغبة»[190]. لكنني أنصح خصوصاً بمعالجة تسمح باستعادة الثقة بالذات.

الأوهام

أثارت كتب Les liaisons dangereuseš, Madame Bovarỹ, L'amant de Lady Chatterley صخباً. واليوم، مع La vie sexuelle de Catherine Millet وPartouze ليان موا وPlateforme لويلبيك وPutin لنيلي أكران، أصبحت مواضيع الجنسانية، وتبادل الشركاء الجنسيين، والمازوشية السادية متناولة كثيراً في الكتب. تفرض المجلات والبرامج التلفزيونية والأفلام صورة يشعر ضمن إطارها الثنائي بالحياد. وعند قراءة أسرار النجوم، نظن أننا تحت كل شيء. نتساءل إن كان من الطبيعي ممارسة الحب مرة فقط في الشهر، وعدم إدخال عشيق في حياتنا. «هناك سيطرة حقيقية على النشوة، وهي متزامنة إن أمكن»[191]. إننا نغوص في الإرشادات نبحث عن الوصفات السحرية. أليس أفضل لنا أن نمضي وقتاً أكبر مع الشريك؟

الصنيع الفني يقتل الرغبة ويخيف النساء، اللواتي ينتظرن شيئاً آخر، عكس الفكرة التي يكوّنها أغلبية الرجال. إن الأغلبية الساحقة من النساء لا ينظرن أبداً إلى الرجل على أنه «ماكينة جنس». «ترسم وسائل الإعلام اليوم صورة لمن يحب الجنس، كأن فيه شيئاً آلياً ومطبَّباً لا يمت إلى الجنسانية البشرية بصلة، وهي يجب أن تكون مبدعة وفريدة»[192].

الرغبة

أن نشعر باللذة هو أن نحس بأننا أحياء حقاً. التمتع، إن كان أحياناً محبوساً، ممتاز للصحة والروح. هذا الإشراق يسمح لنا ببلوغ جزء من الفوطبيعية. ونستشهد في هذا السياق بقول للقديس برنار: «نصل إلى الحب الإلهي من خلال الحب الشهواني». كما تعتبر «الشيفية» أن «ممارسة الحب أسلوب تعريف صوفي»[193]. بالنسبة إلى «الطاوية»، يسمح لنا التلذذ بالاتحاد مع الكون بأكمله وطاقاته. الرغبة عكس السيطرة والعقل. إنها حرة، خارج القواعد، وهي مصدر إزعاج لأنها تفترض إفلات الحبل بكل معنى الكلمة. إنها استمناء، قد يحدث عند امرأة تتسلق حبلاً مشدوداً، أو امرأة تحلم أو امرأة تستحم. كل واحد يجدها كما يستطيع. التناقض موجود هنا: كيف يمكننا أن نحدّ بممارسة الحب الزوجي أحاسيس حرة إلى هذه الدرجة؟

الرغبة أكبر إحساس حميم فينا. بالنسبة إلى الرجل، الانتصاب ليس الدليل الوحيد على الرجولة؛ النشوة ليست بأداء، تأتي الرغبة عندما ننسى أنفسنا، وعندما لا نفكر بعقولنا، وعندما نرحّب بالآخر. في الحياة الجنسية، نخترع كل شيء. إننا نعيش في عالم لا نتلامس فيه، خصوصاً في أوروبا الغربية. قد تنشأ الرغبة من مداعبة خجولة. النساء هن أول من يرفضن الجنس بكل بساطة. «الكثير من الأشخاص يكتفون بحياة جنسية محدودة (...). كما لو كان من غير الممكن عيش علاقات جسدية والإحساس برقة الملامسات وأحاسيس شهوانية لا تؤدي إلى ممارسة الحب»[194]. هذا بحسب سيرج شومييه الذي يفهم جيداً النساء، وهو يزيد بالقول: «هنّ يجدن أحياناً وسائل بالحيلة للهروب من واجب إقامة العلاقة الجنسية الكاملة دائماً»[195]، التي تبقى بمثابة عنف رمزي. تُبنى الصورة الكلاسيكية للعلاقة الجنسية على أساس علاقة المهيمِن/المهيمَن عليه. انطلاقاً من هذه النظرية، يظن عدد من العلماء الجنسيين الأميركيين أن الإنسان، بالعلاقة الجنسية الكاملة، يسيطر ويفرض. ربما لهذا السبب يلجأ الأميركيون إلى اتباع طريقة تداعب بها المرأة عضو الرجل، وفي هذه الحال، تكون المرأة هي المسيطرة. تكررت هذه الفكرة في العديد من الأفلام، بما في ذلك أفلام وودي آلن.

إن الرغبة في إمتاع الآخر أحذق من اللذة الشخصية، هي أحد التفننات التي نكتسبها مع الوقت. أن «نمنح» الآخر شيئاً من اللذة، هي المجازفة في تقبّل الفرق وهو أن نفتح فينا هذا الجرح العذب فتفلت منا اللذة وتنفصل عن تأثيرنا من خلال ما يربطنا بها (...). بعد هذا التلذذ، قد «يغمى علينا» كما لو كنا أمام منظر مثير للغاية. وإن كان الحبيب هو بالطبع لغرض ما في وجود هذه

الذروات العالية حيث يُقضى على شريكته، فهو ليس كذلك في هذا العالم حيث تقلب وتتدمر: يكون في الأسفل ويرى من قعر الوادي هذا الثورة العنيفة التي تجري بالقرب منه وهو بعيد عنها (...). إنها نشوة سيّدة... لا يتطلب أي استمتاع هذه الحركة في الجسم... تتشرب المرأة مجموعة من اللحظات التي تخلد...»[196]. لا شك في أنه على الرجال اكتشاف الكثير وتعلّم الكثير عن المرأة ورغبتها. «تعبون من عالم التشابه المقفل هذا، والاستيهامات القديمة الجبانة في السيادة الذكورية». هم يرون في الانبعاث النسائي «فرصة للحرية والتمتع المتزايد»[197]. وداعاً إذاً، للعلاقات المستعجلة التي تتجه مباشرة نحو الهدف من دون المرور بأي تمهيدات، وأهلاً بالعلاقات الجنسية الأكثر حذراً. تكمن السعادة الحقيقية في تجديد حدّة هذه اللحظات النادرة وتذكرها وانتظارها وإحداثها وتمديدها من خلال الحديث عن الحب، وذلك من أجل البقاء هذين الحبيبين المولعين بالحياة الشهوانية اللذين يعرفان كيف يخرجان من العالم فيتركان جسديهما يستمتعان ويصبحان «حفازين للطاقة»[198]. العلاقة الجِنسية الجيدة تعطي طعماً للحياة من جديد.

الرغبة تتلاشى والعلاقة الجنسية عقاب

كيف لنا أن نتخطى هذا التناقض: أن نكون في الوقت عينه مسؤولين عن عائلة تحت ضغط العمل، وعن إسعاد الحبيب؟ تشكل مسؤولياتنا حملاً علينا. إننا تحت الضغط، تعبون، مخدّرون، في حين أن اللذة تفترض «إرخاء الحبل» وترك تأدية المهمات جانباً. يتطلب أخذ الوقت في الشعور باللذة شروطاً خاصة جداً، خصوصاً إن كنا نعيش مع الشريك منذ مدة طويلة: جواً من الحنان، والراحة، والثقة، ومكاناً ساكناً أو منعزلاً إن أمكن، وخصوصاً... الوقت. فلنُدخل بعض الخفة وحس الفكاهة والانفصال في علاقتنا الجنسية. إن كانت علاقاتنا قليلة، فلنتكلم حول الأمر مع الشريك ونخلق مناسبات كي نهرب معه.

يُترجَم فقدان الرغبة البطيء أحياناً باستياء بسيط. نعطي كافة أنواع الحجج لعدم استطاعتنا ممارسة الحب: الإرهاق، الضغط المفرط، الهموم الكثيرة بسبب الأطفال... لنبحث عما بدّل الرغبة في علاقتنا. يرى ويلي باسيني في ذلك خوفاً من الحب والعطاء والطلب. يرتبط هذا القلق من الحياة الحميمة أحياناً، بسماح الوالدين أو رفضهم تركَ الأولاد يعبرون عن رغبتهم. تتدخل العلاقات العاطفية العائلية في الأمر. «قيمة الزوج الأبوية أو قيمة الزوجة الأمومية، هي من بين العوائق الأولى المعترضة لتحقيق الحياة الجنسية»[199]. ترفض آنا أحياناً ممارسة الحب مع بيار: لا أحتمل أن يعنّفني. وأيضاً، لا مجال لأن أخضع. كان أبي هادئاً جداً وودوداً جداً! هي تجعل من والدها مثالاً إلى درجة أنها تقيم تشبيهاً بينه وبين زوجها. لن يكون بيار مثله أبداً. إن فرانسوا، الذي ترعرع مع أم «مسترجلة»، ينتقم من زوجته ويكبتها.

تنفع العلاقة الجنسية لتسوية الحسابات. يقول روبير نوبرغر: عندما يتجرد أحد الشريكين من الرغبة، لا يرغب في الشعور بالرغبة. لا يرغب في إشعار الآخر باللذة. يدخل الثنائي في حالة من التصعيد، حيث يجعل كل واحد الآخر يدفع ثمن ما يعاتبه به بحرمانه. كما يدخل في قصة ثأرية.

وبعد خلاف ما، ينتقم كل واحد من جهته. يثير المعالج موضوع امرأة لم تترك لزوجها مكانته كأب: بالمقابل، هو لم يلمسها منذ عشر سنين. هو لا يعتبرها «امرأة». هذه أمور تجري بين الشريكين، ولا تُقال. إننا نحاول أن نعرف كيف يقحم الثنائي نفسه في هذه المصاعب وكيف يقاومها، إن وصل إليها! لا أؤمن كثيراً بانعدام الرغبة. لكنه موجود! إن سمنت المرأة 45 كيلوغراماً، وكبر «كرش» الرجل بشكل ملحوظ، لا يعود الشريك يرى في شريكه مصدر إغواء جنسي. أظن أن هناك أسباباً أخرى. ونذكر منها الطريقة السيئة في معاملة الجسد. أنت لا تحترمني، سوف أسمن ثلاثين كيلوغراماً، سوف يلقنك ذلك درساً! هذا عدواني جداً. إننا نرغب حقاً في أذية الآخر إلى درجة أننا ننسى أننا نضر ذواتنا أيضاً. لا يحدث أمر لنا من دون سبب! تقول النساء بكل سهولة، إنهن لا يشعرن بالرغبة، في حين أن الرجال لا يعبّرن عن ذلك إلا نادراً. هم يحتجون بمشكلة جسدية. يقولون: لا أدري ما الذي يحصل لي؛ لا بد من أنني مرهقٌ؛ أنا عاجز في هذه اللحظة. إنهم يغلفون نقص الرغبة عندهم بتفخيم عضوي. الحلقة المفرغة الأكثر تداولاً في الثنائي هي: «امنحْني الحب، أمارسْ معك الجنس؛ مارِسْ معي الجنس، أمنحْك الحب». «إن ممارسة الجنس بشكل مفرط قد تشكل عقاباً كما لو أن العلاقة الجنسية ليست موجودة أبداً أو لا تجري سوى قليلاً (...). لا نستطيع في الواقع استثناء القليل من السادية...»[200].

يتطرق ويلي باسيني إلى موضوع «الثنائي المنكوب جنسياً»، ويميّز بين ثلاثة أنواع من النساء اللواتي لا يعرفن معاملة الرجال جيداً: الزوجة - الأم، الخاصيات، الفاشيات. هو يفرّق بين العلاقة الجنسية الصحية والعلاقة الجنسية الشهوانية. إننا نمارس الحب لأنه يصبح عادة، «كالنوم... كممارسة الرياضة». هو يقول: «بعد عشر سنين من الحياة الزوجية، 20% كحد أقصى من الأزواج يقيمون علاقات شهوانية»[201].

إنعاش الرغبة من جديد

كيف لنا أن نطلق العنان للرغبة من جديد من دون أن نتسبب في كارثة؟ يقترح ويلي باسيني «النظام دي» أو التخيّل (الشهواني) للوصول إلى القدرة. ليس من واجبي إعطاء الوصفات. على كل واحد أن يجد ما يناسبه. اليوم، نلجأ أكثر فأكثر إلى ألعاب اللهو، أو «الألعاب الحميمة»، لكن الجنس يحلّ مكان القلب في هذه الحال. لذا، تمنع العلاجات الزوجية أحياناً أي علاقة جنسية، فيتمركز الثنائي مجدداً حول التعبير عن المشاعر، ثم على الحواس الخمس عبر التدليك والمعالجات الطبية... حينها، تنبعث الرغبة من جديد، إذ تتحرر من ضغط الذي يطلبها. المهم هو أن تخرج الكلمات من جديد.

يظهر ضعف الرغبة عند النساء بعد حالة توليد ما. أما الرجل، عندما يصبح أباً، فيغيّر أيضاً سلوكه ونظرته. «أن نرغب في الآخر ليس كل شيء: يجب أيضاً أن نجعل الآخر يرغب فينا. على الرجل مثلاً أن يحاول اعتبار (زوجته) هذه الفتاة الشابة التي قابلها لتوّه، وليس الزوجة والأم. يجب أن نعرف كيف نخلق حالات، كانت في فترة المداعبات تبدو طبيعية»[202]. عندما يتخذ الروتين

مكاناً له، علينا أحياناً أن نثور ونتصرف و«نعبّر عن الأشياء بفظاظة أقل (...). فلأننا نقبل أحياناً أن نُظهر بعض الضعف، يقبل الآخر أن يعبّر عن الأمور التي لا تجري على ما يرام»[203]. غالباً ما لا نتجرأ على الإعراب عن رغبتنا في ممارسة الحب خوفاً من الرفض. لكن الآخر بحاجة إلى أن يشعر بأنه مرغوب فيه. الكثير من النساء ينتظرن فيخضعن، ثم يشتكين بدلاً من أخذ المبادرة. «على المرأة أن تضع حداً للروتين (...). عليها أيضاً أن تكون توجيهية أكثر في المرحلة التمهيدية، وأن تتكفل بتوجيه التحركات (...)، لا أن تحترم كثيراً عدم رغبة الآخر (...)، وأن توقظ كل ما يقف في صف فرح العيش»[204]. في الواقع، يجدر أولاً عيش لحظات من الرغبة بطريقة خارجية قدر الإمكان: الرقص، الاستحمام، حمام شمس، تدليك... لاستعادة أحاسيس ما، والشعور براحة تناسب إنعاش الرغبة. «تترجم خسارة الليبدو أحياناً استياءً أعمق. لأن الليبدو غريزة الحياة الجنسية. إن استعادة الليبدو تكون أحياناً، بكل بساطة، أشبه باستعادة طعم الحياة»[205].

تعود مشاكل الانتصاب أحياناً إلى أسباب فيزيولوجية: هناك حبوب للسعادة، لكن من الأفضل التوفيق بين المداواة والعلاج النفسي. يجب التخفيف من هذا العجز، كما يولّد في بعض الأحيان حصراً نفسياً وإرهاقاً وكآبة. المهم في الأمر هو استئناف الحوار والتكلم بكل صراحة حول العوائق والعلاقة وحاجاتكم وما يكبتكم متفادين العتاب ومتقبلين مشاعركم. التكلم بصدق والتجرؤ على اقتراح علاج، قد يُفهَمان بشكل سيئ، خصوصاً من جهة الرجال. ومع الكثير من الإقناع، على المرأة أن تفسر للرجل أنه سبيل نحو السعادة، ونحو التحسن. لا يكفي أن نعي هذه العوائق: فجزء منا، لا يكون واعياً، كما يبعث العمل على تطوير الذات الطاقة.

وعلى الرغم من كافة الجهود التي نبذلها، علينا أن نبقى واقعيين: الشغف «ذو التوتر العالي» لا يدوم. وهذا طبيعي! «يكمن السر في حبّ الشريك ونقل الرغبة في مجالات أخرى من حياتنا: الفن، السياسة، السينما، الموسيقى، الرياضة، الطبيعة... في أي شيء آخر، لكن ليس في شخص آخر، وإلا فسوف يكون الثنائي في خطر»[206]. تنصح بريجيت لاهي بأن: «الحيوية والطاقة هما في البداية في كل واحد منكم إلى درجة أنهما خفّتا...»[207]. «تتغذى الرغبة من شعاعات الرغبة المتأتية من خارج الثنائي؛ يتعلق الأمر بتوسيع نطاق تيقظاتنا ليتخطى العلاقة الثنائية، وبترك الآخر ينجذب إلينا بما يكفي لتذوق طعم كل ما هو ممكن من دون الاستسلام له بالضرورة»[208].

يعرف بعض الأزواج كيف تُزرَع الرغبة. بعد سبع وعشرين سنة من الزواج، عرفت ماري آن ما تريد: هي لا تدع الشعلة تنطفئ، كما لا تدع الروتين والحياة اليومية يسيطران: علينا بذل بعض الجهد في الحياة الجنسية. الكثير من النساء يتهاونّ عندما يشعرن برغبة الشريك: أحياناً يتظاهرن بالصداع، وأحياناً أخرى يتحجّجن بالأطفال... هنا أيضاً يجب بذل الجهود. على المرأة أن تثابر: حتى ولو لم تشعر في يوم برغبة في ممارسة الحب، فلتتظاهر بذلك! تتكوّن الحياة الجنسية عندما نمارس الحب. كلما قلّت العلاقات الجنسية، قلّت الرغبة فيها. تتحكم المرأة في زمام الحياة الجنسية. إن توصلنا إلى إيقاظ هذه الفكرة، فذلك أشبه بمجد، هو سعادة. لا يجب على النساء أن

ينكّدن. كي يدوم الزواج، لا يجب أن يكون الحب «نظيفاً». علينا أن نمر في كل شيء: أن نتقدم؛ أن نزيح من دربنا ما قد يدمرنا؛ أن نرسم طريقنا؛ وأن نُنجِح زواجنا بأي ثمن.

بالنسبة إلى باتريسيا دي لاهي: ممارسة الحب أشبه بإجراء محادثة. لا أفهم لما تخف حدّة الرغبة بعد العديد من الأعوام. الآخر ليس أبداً الشخص نفسه، ومواضيع المحادثات تتغير. في بعض الأحيان، لا نجد ما نقوله، وفي أحيان أخرى العكس. هذه المحادثة لا تنتهي أبداً. ويعتمد ذلك على مستوى المتطلبات. أنا متفائلة! لربما يكفي الإحساس باقتناع خاص.

وبعيداً من النصح بكافة أنواع النزوات التي تلهينا بالتأكيد، أظن أن انعدام الرغبة ليس سوى تجلّ: لعدم رضا مزمن، لشيء من الحتمية، لخوف من التطور، لمجموعة من العوائق. يسمح لنا العمل على أنفسنا بتحرير غريزة الحياة الجنسية التي غالباً ما تكون محبوسة. «كي يدوم الثنائي، وهو متحد ومليء بالحياة، على الشريكين أن ينقلا بشكل متوازن جرعات لا بأس بها من الطاقة»[209]. يجب أن تنساب الطاقة والكلام في عروق الثنائي!

يقول هاريس، المتزوج منذ عشرين عاماً: أنا أمارس الحب مع زوجتي يومياً. أحياناً في نهاية الصبيحة أو في المساء عندما ينام الأولاد: كل يوم! اعترف شخص بأنه لا يحتمل فترات «الاستراحة» الطويلة سوى مرة أو اثنتين، وفي المرة الثالثة، ينفد صبره: انتهيت بالاستسلام لعروض صديقة قديمة.

فترات «الاستراحة»

إن كانت ممارسة الجنس أساس الحياة الثنائية بحد ذاتها، فحالات الاكتئاب والحزن والهموم وسوء التفاهم، تفسر تلاشي الليبدو العرضي. فقط الطبيب أو المعالج يعرف كيف يبين ذلك. قد يمر الثنائي بفترات عنيفة، في حين أن الروابط العاطفية تبقى قوية. الحرمان الذاتي لا يؤدي تلقائياً إلى خلل في الشخصية. ليس علينا أن نشعر بالانحطاط في حال واجهنا الصعوبات في علاقاتنا الجنسية. بل يجدر بنا أن نحرم أنفسنا قليلاً فنعيد إنعاش الرغبة بدلاً من أن نحظى بحياة جنسية آلية. وبدءاً من «سن معينة»، لا يكون اختفاء الرغبة بالضرورة علامة عجز. يمكننا التمتع بحياة جنسية غير مزهرة كثيراً، لكن قد نعيش حياة مهنية مفعمة بالنشاط، كما أننا قد نتبادل الإعجاب فتصبح النجاحات والشعور بتحقيق الذات بفضل دعم الآخر في المقدمة. تقول باتريسيا دي لاهي: إن بعض الأزواج لا يمارسون الحب طوال سنين. فهم يقاومون ذلك، وهذا دليل على عدم وجود أي «وصفة».

يظن روبير نوبرغر أن الغياب المطول، حتى المطلق، للرغبة والعلاقة الجنسية، ليس أيضاً غير متوافق مع استمرار الحياة الثنائية. هو يتذكر ثنائياً قد خلق روابط قريبة من الزواج باستثناء العلاقات الجنسية.

الاستيهامات

القصص الخلاعية تملأ الكتب الأدبية، شأن Histoire d’õ Le boucher، لألينا ريس، كما نجدها في السينما كما في Baise-moi لفيرجيني ديبانت، وعلى شاشات التلفزيون أيضاً من خلال بث الأفلام الجنسية على محطة M6 أو RTL9، والأفلام الخلاعية على محطتي XXL وPink TV. والبرامج شأن Le journal du hard الذي يُعرض على قناة + Canal، وEn attendant minuit الذي تقدمه كلير كاستيون على قناة TPS. إننا، لحسن الحظ، نستوهم! الرجال يتكيّفون، أما النساء فيحلمن. فنهرب، وحدنا. نادرون هم الأزواج الذين يستطيعون عيش استيهاماتهم معاً، وبرغم ذلك، نقرأ في عدد من مجلة Marie-Claire أن الأزواج الذين يلجأون إلى تبادل الشركاء الجنسيين واشتهاء الجنسين والمازوشية السادية، يزدادون... فهم يجدون في ذلك «القوة والتوازن». وتفسر إليزابيت ألكسندر أنه: «حين ينام الأولاد وينتهون من غسيل الأطباق، يُخرجون من خزاناتهم السَّوْط وأدوات «التعذيب» الأخرى ويمارسون عادات تلد منها اللذة من الألم والخضوع المقبولين (...). تقوّي المازوشية السادية أحياناً التجانس في الثنائي كأي حياة جنسية يعيشها الشريكان بالتشارك والوعي المتقاسم بغية تخطي حدود الجسد والروح

معاً». تقول إنغريد: يجب التحلي بالشجاعة وحس التنازل لمنح الآخر غرائزنا الجنسية في الحياة من دون تحفظ. ويضيف شريكها: يتعلق الأمر بالتقاء عصابين متكاملين[210]. ألا تسعى هذه العادات إلى استبدال المشاعر بألعاب اللهو؟ ألا ينحبس من يلجأ إليها في أدوار مقولبة يفقد من خلالها حرية كونه «هو»؟ ليس دائماً. لا شك في أننا لا نستطيع سوى تشارك جزء من استيهاماتنا. إننا نتوصل إلى التعبير عن هذا الجزء بغية تحقيقه وترسيخه في الواقع. قد يكون التلذذ إذاً، ذهنياً أكثر من كونه جسدياً. يصبح الآخر مكاناً لحلم حيث الغريزة الجنسية شغالة، كأنه مخرج يؤدي إلى السعادة.

العلاقة الجنسية مغامرة بين اثنين، لكن كل واحد ينفذها على انفراد.

الجميع يخدعون الجميع

يعتبرنا الأصدقاء المقرّبون سيئين إن لم يكن لدينا ما نخبرهم به، حتى أنهم قد يشعروننا بالذنب! الزملاء في العمل يثرثرون... قد يكون موضوع المحادثة مسلياً! ماتيو يخون زوجته مع ليا التي التقى بها في الندوة. لقد أمضيا الليلة معاً في الفندق. التجارب كبيرة عندما نُمضي أيامنا في المكتب، إلى درجة أن الجميع يخدعون الجميع. العديد من الأزواج يضطرون أحياناً إلى الابتعاد لأيام، خاصة: التجار، المراسلين، مصممي الأزياء... وبذلك، ينسون كل شيء، ويفتحون باب التجاذب. وبما أن الآخرين لا يتضايقون، فلمَ المقاومة؟ إن اعتدنا على الحفاظ على الاتصال، والتهاتف، وطمأنة بعضنا، والتعبير، حتى عن بعد، عن إشارات الحنان، فلن نحتاج كثيراً إلى البحث عنها في مكان آخر. إننا نفضل الافتخار بحياتنا الثنائية ونجاحاتنا المهنية بدلاً من التباهي بلقاءات غرامية لا تتوافق وحياتنا التي تعجّ بالأحداث.

الوفاء والتجربة

في قديم الزمان، كان الرجال في مراحل غابرة من التاريخ، يخرجون مع عشيقات بشكل رسمي، وكان الثنائي - المؤسسة يعمّر. أما اليوم، فخيانة بسيطة تؤدي إلى فسخ العلاقة، باسم الشفافية المقدسة. إنه ثنائي الشفافية. إن كان بعض الأزواج يخرج من المشكلة بعد فترة بعد تسويات صغيرة، فالوفاء يبقى قيمة مرجعية، خصوصاً في بداية الحياة الثنائية، ولو لم تعد محتّمة بصورة مطلقة أو لم تعد تُعتَبر الفضيلة الأسمى. قانونياً، لم تعد الخيانة جنحة. إننا نطرح الوفاء على أنه مثال، لكننا نسمح لأنفسنا ببعض الخروقات. يطلق ويلي باسيني على هذه التصرفات الجديدة اسم «الأرخبيل العاطفي»: تكون المرأة متزوجة برجل... ولها رجال آخرون لا تريد التخلي عنهم، كصديق محبّ مثلاً أو عشيق...»[211]. هل تسمح هذه «الجزر المرجانية» للثنائي بأن يدوم؟ في أي حالات نعيش الخيانة على أنها علاج عابر أو بديل؟ هل علينا التكلم على الوفاء بمعناه المحصور، أو التحدث عنه باعتباره هذه القيمة التي نتقيد بها على الرغم من حالات ضعفنا؟

أياً يكن الشكل الذي تتخذه الخيانة، فهي هروب وبحث عن الجديد، وهي تعبّر عن استياء لا بل حاجة. وبدءاً من اللذة الموقتة وحتى فسخ العلاقة، هي تبيّن صعوبة الالتزام تجاه شريك واحد، وحتى استحالته. وفي عالم حيث مشكلة الخيانة ملطّفة، لمَ نكون أوفياء أو خائنين؟

الوفاء

الوفاء التام مفهوم خيالي. فقد برهنت طوال أعوام الثنائية ومختلف البحوث، أن القليلين فقط يبقون أوفياء طوال حيواتهم. وبرغم ذلك، اليوم، حيث لا يجبرنا شيء على البقاء مع شريك واحد إن لم يكن الحب، يصبح الوفاء مفهوماً طبيعياً، خصوصاً عند الأزواج الشبان. وليس فقط هذا: بالنسبة إلى الكثيرين، الوفاء هو رغبة في الصدق، ومقاومة للحال والضغوطات الإعلامية. يقول ألان إتشيغويين إن الوفاء، في عالم من الخيانات المتزايدة، يستمر، لكن «مضمونه يتغير. وهو، إذ يتأثر أحياناً بضغوطات الماضي أو يُحدث خوفاً أو هلعاً، يشكل اليوم خياراً حراً. يغتني مضمونه ببشرى سارة: فإن كان الآخر وفيّاً لي فهو يحبني. بالتالي، يعتبر الوفاء، الذي يصبح نادراً أكثر، وسيلة نجاح حقيقية في الحياة...»[212]. في زمن من التغيّرات المطلقة، يتصفّى ويتجرد من «الغموض المخيف» ويستمد منه القوة. هو يستحق ذاته ويخضع لنفسه. «الإيمان والثقة والوفاء: قوى أكيدة في عالم تجهد فيه الطاقة لتتجمّع»[213]. البقاء على عهد الوفاء، هو بالتحديد العزم على حشد الطاقة الموجودة في دواخلنا، وتركيزها في من يستحقها بنظرنا. يقول سيرج إيفيز: «الغريب في الأمر هو أن الشريكين اللذين يعطيان بعضهما حرية أكبر، يبقيان وفيين أكثر. بين الشريكين المنغلقين، يعمل الممنوع أحياناً كالمغناطيس»[214]. أكثر الأزواج يختارون الوفاء ليس جبراً أو تملكاً، بل لأنه يرتبط جوهرياً بالارتباط المتوافق عليه بحرية. «نطيع أقل، نختار أكثر (...). من هذه المقاومة يستخلص الوفاء أساس قيمته»[215]. في الحياة الثنائية، القلق الأكبر هو أن يخوننا الآخر. وهذا بشكل خاص بالنسبة إلى الرجل، لأن خيانة زوجته له قد تجعله يشك في فكرة النسب، فلا يعود أكيداً إن كان والد أطفاله. أليست الثقة واللذة أفضل كفيلين للوفاء الأكيد؟ أخذ صحافيٌّ حديثاً من

كلوديل، فسأله إن كان يشعر بأنه سجين إيمانه؛ فأجاب بكل جدية: «أنا كالعصفور في السماء». لا شك في أن الأمر هو نفسه بالنسبة إلى الحب البشري. يمكننا أن نراه على أنه حدّ لحريتنا، أو بالعكس وسيلة لتنميتها.

بالنسبة إلى الجذريين، ما من تنازلات! اليوم أيضاً، وباسم الشريعة، المرأة الزانية تُطلَّق وتُنتقد بقسوة. وفي العديد من البلدان، يبقى الزنى جنحة وخطيئة. في فرنسا، منذ إصدار قانون 11 تموز/ يوليو 1975، أزيل الطابع الجرمي عن الزنى بيد أنه بقي سبب الطلاق الرئيسي. وبالنسبة إلى الكاثوليكيين الملتزمين، الوفاء هو الوسيلة الفضلى للإعراب عن إلهية الحب وثباته، وقياس قدرة الارتباط المرتكز على العهد المقطوع. وخلال حفل الزواج، يعطي الشريك نفسه للآخر، ويعد الحبيبان بعضهما البعض بوفاء أبدي. كيف علينا أن نتصرف كي نبقى على هذا العهد؟ هذا ممكن بمنح الآخر وفاءنا، لا بجعله أمراً محتماً عليه. بالنسبة إلى البعض، إن تحتيم الوفاء يجعل من الآخر «شيئاً». ومهما يكن، فهذا المثال ليس تحديداً مفهوماً مكتسباً أبداً. لا يتعلق الأمر في الواقع بأن نحتجز الآخر، بل بأن نكون على مستوى العهد المقطوع. إننا نعيش ضمن مبدأ توجيهي، حيث قدرة الحب الحاضر تبيّن ثقة كفاية في المستقبل، فيمكننا اعتبار أن هذا الحب سوف يقاوم الزمن والتجارب.

الوفاء مشروع مشترك، حيث يتدعم كل واحد بالوسائل الضرورية كي لا يضعف أو يخون. يعطي فرانسوا، وهو أب لطفلين، ومزخرف من ليون، ومتزوج منذ خمس عشرة سنة، الشهادة التالية: لم أشعر مرة بأنني غير وفي، ولو...؛ لم أفكر مرة في التخلي عن زوجتي، وأعتبر أنني بقيت دائماً على العهد الذي قطعته لها لأنني لم أتركها أبداً. لطالما فصلت الرغبة العنيفة المتعذّر كبتها عن لحظات السعادة في الحياة الثنائية. يمكننا أن نختار البقاء في الشقة عينها طوال حياتنا، كما يمكننا أن نرغب فجأة في البحث خارجاً. فلا نبقى في الشقة عينها...

بالنسبة إلى أغلبية الأزواج، يعلّل الحب الوفاء. «بشكل عام، يضمن الحب الكبير الوفاء»[216]. قد يلتزم أحد الشريكين بالوفاء بفعل قوة الإقناع التي يتمتع بها الآخر. كان كل من لويس وأديل في الاثنين والعشرين من عمرهما عندما حملت أديل فتزوجا وأقاما في ستراسبورغ. ومنذ أن تزوجا، أي منذ ست وعشرين سنة، هما وفيان لبعضهما. توفق أديل أفكارها وأفكار لويس، وتقول: التقينا في كلية نانت؛ كنا في عز شبابنا. كنت أخرج مع العديد من الشبان. كان لدي صديق مميز. ما إن رأيته حتى وقعت في حبّه من النظرة الأولى. بعد سنة، خرجنا معاً. قلت في سري: هذا الرجل سوف يكون زوجي. كان ذلك حدسي. هل لأنه كان من النوع الذي يستهويني؟ برغم أنني كنت مغرمة برجل آخر، لكنه بقي في ذهني. كان نحيلاً جداً، يرتدي سروالاً لا يصل إلى كاحله، ويلبس معاطف قديمة. لقد ولّد فيّ انطباعاً قوياً. كان يجب أن أفسخ علاقتي بالآخر، استغرق ذلك وقتاً وكان متعباً. أمسكت لويس بيده: هو لم يحظَ بصديقات! كان صديقي السابق يغمرني. مع لويس، اختلف الأمر. التجانس كان سيد الموقف. كان يغار، ولا يزال. لا يتحمل أن أتكلم على أصدقائي السابقين. وأنا لا أفعل ذلك البتة. قبل زواجي، تحررت من ضغط محيطي المعنوي. كنت أقول: قد أواجه أنا أو زوجي مشاكل صغيرة، إن تمكن كل واحد من المسامحة. لم أكن مقيدة بفكرة الوفاء، لكن لويس

كان متشبّثاً إلى درجة أنني عملت على ألا أقوم بأي خطوة خاطئة. فذلك قد يتسبب له في الكثير من الألم. كان هناك عهد وفاء بيننا. تعرضت في العديد من المرات لتجارب قوية جداً، لكنني لم أستسلم أبداً. من وقت إلى آخر، كنت أدغدغ لويس وأمزح، لكنه كان يأخذ المسائل بجدية صارمة. كان الأمر كالرعب بالنسبة إليه. كان على وشك أن يُصدم لفكرة أنني خرجت مع سواه قبله. هو يعجز عن مشاهدة أفلام تروي قصة زنى. يصبح مجنوناً! في البداية، رغبت في خرق القواعد، أما الآن فلا. عندما تزوجت، وددت لو أحتفظ بجزء من الشقة يكون خاصاً بذكرياتي ورسائلي. كان في رأسي العديد من الاستيهامات. عندما رأيت ردود فعل لويس، أحرقت كل شيء. لم أعد أملك أي صورة لمن أحببت في السابق. ضربت صفحاً عن كل شيء. وبفضل لويس، أحرزت تقدماً كما أصبحت أكثر تشدداً في اعتقاداتي الدينية. كان مثالاً اقتديت به.

قد يكون الوفاء خياراً. اليوم، الحجة الرئيسية هي الخوف، وخصوصاً احتمال التقاط السيدا. تخشى بعض النساء المعاناة نفسياً. تقول باتريسيا دي لاهي: تمثل الخيانة بالنسبة إليهن تهديداً بالفوضى واختلال التوازن. هي خطر يهدد بفسخ العلاقة. لم تتجرّب موربيل في أي نزوة. عندما بلغت الخمسين من عمرها، كانت لا تزال جميلة ونحيلة وسمراء وظريفة ومبدعة وتحب زوجها: ارتباط قصير الأمد؟ قد تشتعل شرارة ما في البداية، لكن من الصعب عيش علاقة مع رجلين. وهكذا، فالبقاء مع زوجي: هو أفضل من الآخرين. إن أي نزوة عابرة تضيع أحياناً في الوقت. أظن أن المهم في الأمر هو الحفاظ على حياة جنسية جيدة مع الشريك. أرغب في الحفاظ على ذلك. تقول ناتالي، التي تشعر بسعادة أقل في حياتها الزوجية: لم ألتقِ برجل يثيرني بما فيه الكفاية. كنت أخشى أن يجذبني أحدهم. الخوف من الشغف، والخوف من زعزعة نمط العيش أو العائلة، يفسران أحياناً وفاء المرأة. تشير باتريسيا دي لاهي إلى أنه: هناك أيضاً جمالية في الوفاء نعيشها معنوياً كأنها شكل من اللباقة. «كي نبقى أوفياء، علينا أن نرغب في ذلك؛ الوفاء الفعّال يحمّس الثنائي. فضلاً عن ذلك، الزنى ترف لا يستطيع سوى القليل من الأشخاص اقترافه»[217]. الواقع، كي نخون، علينا أن نحظى بمناسبة ووقت لذلك. التقت باتريسيا دي لاهي بنساء لا يفكرن في ذلك، فحاجة الاعتراف موجودة في مكان آخر. هناك أخريات لا يرغبن، أو لم يعدن يرغبن في ممارسة الحب. هن يفضلن زوجاً يحبهن كما هن، ويستوهمن ويستغرقن بالأحلام على الأكثر. تكتفي ديان بذكرياتها قبل زواجها. تحب أن تعجِب كي تطمئن ليس أكثر. بعد أعوام من التحرر الجنسي، يبدو أن عصرنا قد عاد إلى فكرة الوفاء الزوجي. الانطواء على الذات، الانعزال العائلي؟ «إننا نراهن بكل شيء على الثنائي. ففي قلب هذه المجموعة الاجتماعية الصغيرة، الخانقة أحياناً لكثرة الدفء، نكون أبطالاً. وقد يصل الأمر بأن نشعر بالضيق. (...) ماذا لو أصبح الوفاء الزوجي مدمّراً؟»[218]. ومن النادر أن نجد الحالة التالية: «نبقى مندهشين، حنونين، ومتأثرين، وحتى حسودين عندما يحصل الآتي: عندما يعيش رجل وامرأة في حالة حب دائمة، ولا يلبثان يتبادلان نظرات الاهتمام، حتى إنهما يربيان أولادهما بتجانس نادر. غنّى ليو فيري هذه الحالة بطريقة رائعة في Ca t'va، التي تضمنت جملة من وحي الموضوع، هي «هذا الجو من السعادة الذي يعيشه الحبيبان الباقيان على عهد الوفاء»[219].

إن كلارا البالغة من العمر 27 سنة، وباتريس، وعمره 31 سنة، مثال عن الشريكين اللذين يتبادلان الثقة. كل منهما يواجه إغراءات في عمله، لكنهما وفيان لبعضهما البعض، وهذه ضرورة يومية حقيقية. تتكلم كلارا بصراحة: يجب التحلي بالثقة، هناك العديد من التجارب في العمل. لسنا في ظل الخيانة. أنا أعي الأمر، وباتريس كذلك. ولقد ناقشنا الموضوع. خيانة؟ أنا أفضل ألا أعلم بذلك، ولا هو. إن حدثت خيانة ما، فذلك يعني أن ثمة مشكلة في حياتنا الثنائية. على المرأة أن تؤدي ثلاثة أدوار في آن: دور العشيقة، ودور الأم، ودور «سيدة الأعمال». أحياناً، يكون الأمر صعباً! وهي بالضرورة لا تؤدي جيداً أحد الأدوار. لا يجب إنكار الخطر، بل يكفي التهاون والتعب. عليها أن تتمالك نفسها. أنا أقول لصديقاتي العازبات: «أنتن لا تتوصلن إلى إحراز الهدف أبداً!». وفي كل يوم أقول لنفسي: «من حظي أنني تزوجت بباتريس، إننا نتكامل، وندعم بعضنا البعض. لا أدري ما كنت لأفعل من دونه. أنا أشكر السماء لأنني معه. في الوقت عينه، أقول: هذا يوم جديد، ما الذي سيحدث في الغد؟». أفكر في الجهود التي يمكنني بذلها. أستعيد ذلك كل الأيام.

الخيانة: الكثيب الأيمن يبدو أجمل لمَ نخون؟

أين تبدأ الخيانة؟ تبادل نظرات، استيهام، قبلة بالخلسة: هل هذا خطر؟ الاسترسال لإغراء شخص آخر، هذا من طبيعة الإنسان. أن نستسلم للتجربة، في مساء ما، خلال سفرة ما... فقط لمرة واحدة... لنعترف بأنه حتى من هم مستقيمو الرأي إلى أقصى حد، يجدون صعوبة في مقاومة جايشا جميلة. إنهاء محادثة طويلة في غرفة لأحد الزملاء في أحد الفنادق خلال ندوة ما، مسألة أخرى. الخيانة مسألة درجات. يقول روبير نوبرغر: اليوم، لا تخون النساء أكثر من قبل، لكن الجديد هو أنهن يعترفن بذلك. 54% من النساء قد يخنّ أزواجهن. وهذه ظاهرة لم يسبق لها مثيل! يفسر عمل المرأة وحريتها الجديدة بشكل كبير، الخيانة المتزايدة. ونضيف أيضاً استخدام الحبوب المانعة للحمل وإنهاء الطلاق جراء الخيانة. يرى ألان إتشيغويين أن الرغبة في الجديد وامتداد الحياة والتقلبات المطلقة والعجز عن تحمل المشاكل والحركية الجغرافية وبروز العديد من الخيارات، هي أيضاً من أسباب الخيانة... أحياناً، نغمض أعيننا، وأحياناً أخرى نجد في الخيانة فائدة لنا، لكن لمَ نقع في تجربة خرق «العقد»، أو عهد الحب الحصري؟

استمعت باتريسيا دي لاهي عند النساء إلى «أسباب دفعهن إلى الخيانة»: «بلوغ الأربعين: هذه فترة نعيش ونستمتع خلالها، وإلا فلن نحظى بهذه الفرصة مجدداً. إنها فترة نأخذ فيها نفساً، فترة التسلية واللذة الجنسية...»[220]. وتفسر باتريسيا: هناك نساء يحببن ممارسة الجنس، هنّ يميّزن جيداً بين والد أولادهن وينحرفن في مغامرات صغيرة تؤمن لهن اللذة. ماذا عن الرجال؟ عندما يتكلم الرجال حول نزواتهم، يقولون إنهم يعيشون علاقات جنسية خارج الزواج فقط، ولا يحسون بأي مشاعر. ممارسة الجنس لا تعني الخيانة! «ما دام يجب القيام بذلك، ماذا لو نسمح لأنفسنا بالنزوات خارج الزواج، وكذلك السماح بها لذواتنا بالكامل وعيشها حتى النهاية»[221].

إن الرغبة في التصرف عكس الوالدة والمخالفة، تدفع بعض النساء إلى تخطي الحدود، خصوصاً إن كانت والدتهن متسلطة. والأمر سيّان بالنسبة إلى الرجال الذين يودون الانتقام من أم

غير ودودة كثيراً. فهم يعددون أحياناً العلاقات من دون الارتباط أو منح الحنان. هؤلاء «الخواتل» الذين يكرهون المرأة، يأخذون منها لذتهم ويستعملونها ومن ثم يرمونها.

ومن بين المفاجآت التي اكتشفتها باتريسيا دي لاهي من خلال بحثها: شبح الموت يطوف بشكل واضح حول الخيانة. أكان موت ولد ما أم قريب ما، تصبح الخيانة حاجزاً في وجه اليأس. تتطرق باتريسيا دي لاهي إلى وضع امرأة قد مات زوجها، فعاشت نزوة مع زوج صديقتها الحميمة. وهي تفسر الأمر: إن تمكن الثنائي من أن يعرف أن الأمر مرتبط بالموت، يعِش أقلّ درجات الزنى على أنها خيانة. لا تكون الرغبة قوية إلى درجة فائقة سوى في ما هو جديد. إننا نتجه نحو شخص يأخذنا في اتجاه الحياة لا صوب العادة. الخيانة من طبيعة الإنسان. نحن لم نولد لنقسر أنفسنا. في دواخلنا حس الواجب والـ «أنا» المثالي والـ «هذا» المليء بالغرائز الجنسية واللذات المتعددة والمشوشة، في كافة الاتجاهات. يجب أن نؤلف باستمرار. أظن أنه علينا التوقف عن تعظيم أمور واقعية جداً. تتكلم ماري فرانس حول صديقها بارتران، وهو خطاط بياني مقيم في تولوز: هو مع زوجته... وبناته. يعود دائماً إليها، هي مرساه. تغمض عينيها وتتعلق به. بدأت خيانته بعد الصدمة الرهيبة التي تلت موت زوجته الأولى، ناتالي، التي عانت مرض السرطان. كانت الخيانة نوعاً من الهرب إلى الأمام، هرباً من الموت.

الرغبة في البحث بعيداً تأتي أحياناً من الرغبة في الوقوع مجدداً في الحب، وعيش لحظات انتظار اتصال هاتفي أو رسالة بريدية مجدداً، وعيش إثارة الموعد الأول، أو فقط الإحساس بمتعة لقاء على الإنترنت. صحيح أننا نشعر بذلك، بأننا وُلِدنا من جديد، وأن الشريك الجديد قد يفتح لنا أحياناً آفاقاً جديدة ويُدخل البهجة إلى حياتنا ويعطيها طعماً ويُشعرنا بالارتياح، لكن علينا أن نتساءل أيضاً إن كنا لا نأمل أكثر أو الكثير من هذه اللحظات العابرة.

تهدد الخيانة الشريكين أيضاً عندما تكون نسبة عدم الرضا في الثنائي قوية جداً: نقص في الإصغاء والاهتمام، الروتين، الملل، الضجر، الشعور بالوحدة، خيبة الأمل... نرغب في ألا نُعتبر فقط أماً أو أباً. تبدأ الحالة باللامبالاة، والمسافة التي تفصل بين الشريكين عندما يهمل أحدهما الآخر. تقول لويز: يمضي مارك وقته يشاهد التلفاز، وهو لم يعد يلمسني. ويقول جوزي: إن عشيق زوجتي هو عملها، هي لا تخصص دقيقة واحدة حتى لي... أنام باكراً، وهي تسهر كثيراً. نحن نسير بالعكس. يعاني أحد الشريكين دائماً هذه المسافة؛ هو يفسرها بأنها «نكث للعقد (...). فسوء التفاهم بين الشريكين لا يمكن أن يتطور إلا إن توصلا إلى الإعراب عن رغباتهما العميقة، التي قد تكون بعدم البقاء معاً. (...) ومع الكبت، والانزعاج، تتحول العوارض إلى مرض، لكن لا أحد يعلم... لأن الثنائي يظهر بمظهر «لائق»[222]. وجراء النقص في الحياة الجنسية والحياة الحميمة، نقع في تجربة البحث بعيداً...

من الأسباب الأساسية المؤدية أحياناً إلى الخيانة، التفاوت الكبير في التطور. عندما يتقدم أحد الشريكين، ويخضع لمعالجة ما، والآخر لا يتبع أي علاج، ويعيش على تصوراته القديمة، لا تدور الكلمة في المستوى نفسه. وتكون الحياة الجنسية مهددة بخطر الروتين. قد يسأم الآخر، ويكون بحاجة إلى فسحات جديدة من الحرية.

لا نكون دائماً غير أوفياء ضد الآخر، بل لنا نحن. تعاشر المرأة عشيقاً لتحس بوجودها كامرأة، وتجد هويتها من جديد. هي تبحث أحياناً بعيداً من علاقتها الزوجية عن وسيلة للتحرر من الصورة المقللة من شأنها، بدلاً من أن تمنح نفسها وسائل الفرح وبناء الذات. الخطر الذي تحس به هو من دون شك خطر خيبة الأمل: لا يمكن العشيق ملء الفراغ، أو يمكنه ذلك بعض الشيء...

تولد الخيانة أحياناً من حاجة إلى الانتقام بعد شعور بالظلم، أو تراكم للمؤاخذات، أو حالة زنى... فنقنع أنفسنا بأن شيئاً آخر يتوافق أفضل ورغباتنا. تعرف لورانس صيدلانية تترك زوجها ينام كل مساء لتخرج مع عشيقها...

أحياناً، نقع في التجربة لنستعيد الوقت الذي أضعناه. وهذه هي الحال مع بوريس، المطلّق ولديه ولدان، والذي حبس نفسه طويلاً لينهي دروسه. بالنسبة إليه، «هناك رجال زانون بالفطرة. أنا أنتمي إلى هذه الفئة. أنا أستطيع أن أحسّ، لكنني مثل ولد صغير قد شبع، لكنه إن مرّ بالقرب من مخبز ما ورأى حلوى شهية يسرقها! وإن قُبض عليه، يَكُن تعيس الحظ. وفي حال العكس، فسوف يعيد الكرّة. كنت زانياً في بعض الأحيان. لكن الأسوأ في الأمر لا يكون للزوجة بل للعشيقات، خصوصاً عندما نكذب عليهن: «أتعلمين، سوف أهجر زوجتي...». لطالما شعرت بالحيرة. كنت أتصرف بتأن وأقول: «هذه مجرد نزوة». لكن بعضهن لم يصدقن. إحداهن قالت لي: «هذا ما تقوله كلماتك ولكن أفعالك تبين العكس». من البديهي أنني لن أقول للمرأة وأنا أمارس الجنس معها: «إننا نقيم علاقة معاً، لكننا مجرد صديقين!». بعد فترة من الوقت، طرحت على نفسي هذا السؤال: أليس من الأفضل أن أكون نزيهاً وأعترف لزوجتي بأنني أريد الطلاق لأفسح المجال أمامها كي تعيد بناء حياتها؟ وهي كانت شاكرة لي، وأحسّت بأنها تحررت. نحن صديقان مقرّبان، وهذا ما كنا عليه أصلاً. أكثر ما آسف عليه، هو دعوات العشاء مع الفتيات «البريئات» اللواتي يردن عيش قصة جميلة، ويكنّ أكثر حذراً فيرفضن ممارسة الجنس على الفور. هو التفكير عينه دائماً. أجهد لإيجاد موضوع نتحادث فيه. هن ساذجات ولطيفات ويتحدثن عن أنفسهن. يجب طمأنة هذا النوع من النساء. أنا أتناول العشاء وفي رأسي هدف واحد. وهن لديهن استراتيجيتهن: لا يمارِسن الجنس في الليلة الأولى، كي لا أظن أنهن عاهرات، في اليوم التالي يسمحن بتلقي رسائل هاتفية وينتظرن مكالمة من الرجل. وبعد مشاهدة فيلم في السينما، يخضعن أخيراً. أما أنا، فأحاول الدخول في «صلب الموضوع» منذ الليلة الأولى: وذلك يزعزعهن! فقط الذكيات قادرات على ممارسة الجنس فوراً، فإحداهن قالت لي مرة: على الأقل، نتفادى جلسات العشاء التي لا تُحتمل؛ فنحن نخوض تجربة الواقع على الفور!

قد تنشأ الحاجة المتعذر كبتها للنزوات من رغبة في توطيد الخيار. إن ستانيسلاس باحث متقاعد. لقد تزوج عندما كان في الثانية والعشرين من عمره، وهو كان، ولا يزال، يخون زوجته. لماذا؟ أولاً ليتأكد من أنها امرأة حياته... ثم إنه اعتاد على ذلك. لكن ما إن يتعلق بعشيقة ما حتى يلوذ بالفرار... وهو يروي كيف أن حياته أصبحت سلسلة من الخيانات: أنا أبحث مع بعض الأصدقاء عن فتيات لإمضاء الليلة. تشاجرت كريستين مع صديقها، فانتهزت الفرصة لمداعبتها، لكننا لم نقم علاقة كاملة. أحببت لطافتها وبرغلة جسمها، وأُغرمت ببشاشتها وروحها المميزة. أنا من رجال الفكر، وهي فنانة من عائلة حرفيين تستخفّ بالدراسة. بعد مرور فترة من الوقت، حملت. تزوجنا على الرغم من الفضيحة. ورُزقنا بثلاثة أطفال. لطالما خنّا بعضنا منذ البداية، حتى خلال مرحلة

الخطوبة. لم أخنها مع الكثير، فعلاقاتي كانت دائماً تستمر ما بين ستة أشهر وسنتين. لم تكن تعلم بذلك. في كل مرة، كنت أرتاح إلى فكرة أن زوجتي هي الأفضل. كان الهدف ممارسة الجنس فقط. كانت مجرد نزوات. كنت أسعد عند إنهاء العلاقة! فضلاً عن ذلك، تغار زوجتي كثيراً. وهي اكتشفت أمري مرتين أو ثلاثاً. عندما كنت أخبرها أنني في ندوة، كانت تتصل فيقولون لها إن الندوة قد انتهت... فتروح تمزق ثيابي إرباً إرباً. في ليلة من الليالي، عدت إلى المنزل عند الساعة الثانية فجراً، استقبلتني بلطمة، فصرعتها بضربة على رأسها! انزعجت! كانت تستفزّني. عندما نكون في سهرة ما، تقول لي: «لا أريدك أن تتكلم مع هذه الفتاة أو تلك». لا أتحمل أن يعطيني الآخرون الأوامر! في أحد الأيام، صفعتني أمام ثلاثين شخصاً. خلال أزماتنا الزوجية، أنام على الكنبة، وأرجع زحفاً أجمع الإرب. عند الساعة الرابعة فجراً، تصارحنا بكل شيء، وتحسنت الأمور! لكنني لم أخبرها بعلاقاتي. هي أيضاً كان لديها عشيق أو أكثر. حتى إنني حثثتها على الرحيل مع واحد منهم: فذلك حررني من الشعور بالإثم! كنت أجد نفسي رديئاً. أحسست لفترة طويلة بأنني تزوجت في سن مبكرة جداً: هل كانت كريستين حقاً امرأة حياتي؟ منذ بلوغي الثلاثين وحتى الخامسة والأربعين، رحت أبحث عن امرأة حياتي قبل أن أنتبه إلى أنها هي. هجرتها مدة أربعة أشهر لأعاشر امرأة متزوجة تدعى بولا. نزلت في فندق. عاشت كريستين هذه المرحلة بصعوبة. كانت العلاقة مفسوخة بيننا. عند عودتي، لم نعد نمارس الحب إلا قليلاً. استمررت في مقابلة بولا، واعتبرتها امرأة حياتي الثانية. وما إن كنت أحس بأنني واقع في الحب حتى ألوذ بالفرار. تسببت في الألم للعديد من النساء. كنت أخشى بشكل رهيب التعلق بإحداهن. قمت بتحليل، وفهمت أن الأمر مرتبط بوالدتي، وأن زوجتي كانت الأساس. تغلّب الحنان على الجنس. أنا ما زلت أعاشر نساء غير زوجتي، لكن قليلاً. تعددت أوجه نظرتي إلى الحياة بفضل النساء. هن بحاجة إلى الأمان العاطفي والأمان المادي. وهذا هو عدد النساء اللواتي يبقين مع زوج لم يعدن يحببنه!

متى يكون العشيق مناسباً؟

إن سمحت لنا نزوة ما برؤية الشريك من خلال نظرة مختلفة، فهي أيضاً تحثنا على إيجاد ذواتنا. لنأخذ مثل الرجل الذي لا يستطيع مقاومة إغراء امرأة غير زوجته، في حال كبح هذا الرجل رغبته، كي لا يتسبب بجرح لشخص آخر، يكون بذلك يجرح نفسه، وينتهي به الأمر، بطريقة أو بأخرى، بجعل شريكة حياته تدفع ثمن ذلك. وفي حال استسلم لغريزته الجنسية، يكتم الأمر وتستفيد زوجته أحياناً مما يسميه الشيوخ الروحيون الأفريقيون: «عودة العاطفة». الأسوأ في الأمر، هو الشعور بالذنب: قد نشعر بالذنب لأننا لم نقع في التجربة، والذنب لأننا لم نخضها! فلا نربح شيئاً! بالنسبة إلى باتريسيا دي لاهي، ما من جواب واحد: هي نزوة لا نعلم نهايتها، وهي خطر للذات وللثنائي. نجد أشخاصاً يجدون إفادة فيها، وآخرين لا يستطيعون القيام بأمر آخر. استمعت إلى نساء قلن لي: «لم أخن زوجي مرة، لنقل خنته قليلاً». هنّ نسين؛ الأمر ليس بمهم. أفصحت لي هؤلاء النساء أنهن يعانين نقصاً في الاهتمام. وفجأة، يظهر رجل يعبّر عن مدى جمالهن، في حين أن أزواجهن لا يرون سوى هالاتهن السوداء يوم الأحد وهن ينظّفن المنزل. وفي سرعة البرق، يصبحن نساء شابات مثيرات. يرتمين في أيدي هؤلاء الرجال الذين يمدحونهن ليرتحن. يشكل العشيق العابر مصدر اطمئنان وملاذ وطاقة جديدة، وهو قد «ينشط الثنائي (وخصوصاً الشخص

جنسياً من جديد، ويعيد دوران الرغبة الجنسية والنفَس، لكنه لا يستطيع البتة أن يحل مكان العالم النفساني»[223]. وقد تساعد النزوة الغرامية التي نعيشها بسلاسة ولامبالاة على تخطي مرحلة صعبة، وتحفزنا ذهنياً، وتحرر كبتنا وتطورنا، بيد أنها لا تحلّ مصاعب الثنائي: فهي فقط تغيّر وجهة المشكلة. قد يحدث خلال نزوة ما، أن تنتبه المرأة إلى أن الرغبة التي اكتشفتها لا تكفي لتحويلها. فهي تنتظر سماع كلمات حب... لا تسمعها أبداً. تفهم حينها أن تحوّلها الحقيقي مرتبط بها، وأن العشيق كان مجرد كاشف لذلك.

في الارتباط القصير الأمد، يصعب على بعض النساء النظر إلى وُجوه أزواجهن، ويخشين وجهة نظر الأولاد. وعندما يقعن في الحب بجنون، تتشوّش أفكارهن، ويطرحن على أنفسهن آلاف الأسئلة مسرورات بحلم عيش وضع آخر. في الوقت عينه، يكنّ أحياناً مكبوتات، ويعانين فكرة تعذّرهن عن تقاسم وقت أكبر مع العشيق. عندما يكون هذا الأخير يحب التملك، تتضاعف المخاطر: يصبح الكذب ضرورياً، وكذلك الاختباء، وإخفاء المكالمات الهاتفية والحفاظ على المظاهر. قد يحدث أن يهدّم العشيق الثنائي، ويخرّب العلاقة. وعندما تتحوّل النزوة العابرة إلى علاقة وطيدة، تتجيش المشاعر إلى درجة تتسبب في أضرار من جهة واحدة: فيصبح الشريك شخصاً غريباً ومصدر إزعاج.

المثلّث الغرامي

بحسب العلماء النفسانيين، الارتباط العابر جواب خاطئ عن سؤال جيد. هو تجربة لتسوية أزمة شخصية أو زوجية من دون أي حذاقة. يتخذ الارتباط أحياناً شكل الخيانة الزوجية الغامضة، التي تفترض تنظيماً استراتيجياً بأكمله: التهاتف في ساعات العمل، اختلاق اجتماعات متأخرة، استئجار شقة، اختلاق ندوات وهمية في نهاية الأسبوع... أفضل السيناريوهات السينمائية تتناول موضوع الخيانة الزوجية: Scènes de la vie conjugale لإنغمار برغمان، Nous ne vieillirons pas ensemble لموريس بيالا... بالنسبة إلى البعض، لذة الحياة السرية مثيرة بحد ذاتها. وبالنسبة إلى البعض الآخر، العكس تماماً. انتبه، خطر! احذروا الخطوات الخائبة المحتومة. قد يفضحكم خطأ من قلة الانتباه: خصلة شعر، رائحة، كلمة صغيرة، بيان بطاقة الاعتماد... كلها أمور تثير الشبهات. عاش نوبير التجربة، وهو رجل متزوج منذ خمس سنين، وفني في المعلوماتية مقيم في بايو: عندما كنت أعيش مع كامي، عاشرت ديان التي فقدت قرطها في سريرنا الزوجي. اضطررت إلى اختلاق قصة وهمية لتفادي وقوع المصيبة! اكتشفت سوزان بيان بطاقة اعتماد، مدوناً فيه سعر غرفة في البندقية في جيب مارتين: وكانت الفضيحة!

يفسر رينيه جيرار أن المثلث الغرامي بين الزوج - الزوجة - العشيق، يرتكز على الرغبة المتأتية من رغبة الآخر. عندما تقع المرأة في حب رغبة عشيقها في زوجته، تحسد هذا الثنائي وتطمح أحياناً إلى التمثل بالزوجة سراً. فتكرر هذه الصلة بين الولد تجاه والديه، وتعمل باستمرار على أن يهجر العشيق زوجته، لكن، عندما تخرج المنافسة من الإطار، تتغير وجهة اهتمام العشيق. تشكل التركيبة المثلثية للرغبة، مصدر إلهام بالنسبة إلى الروائيين: ستاندال، بروست،

دوستويفسكي... قد يبقى هناك استيهام فعال. فبطريقة أو بأخرى، قد يتيقظ الشريك حين يعرف أن شخصاً آخر يرغب فيكم. يمكنكم على سبيل المثال القول: «تناولت الفطور مع شخص غازلني!»، فذلك مُجْدٍ!

لمَ تتسبب العلاقة الطويلة الأمد في هذا الكمّ من الأضرار؟ يقول سيرج إيفيز «إنه لم يلتقِ بثنائي قد توصل إلى الاستقرار بشكل يُرضي من الناحية العاطفية في هذا النوع من الحالات... الأمر دائماً بمثابة تجربة. (...) إن إقامة علاقة خارج النطاق الزوجي علامة عن نقص في الحياة الحميمة داخل الثنائي أكثر من كونها نقصاً في الحياة الجنسية»[224]. تولد النزوة أحياناً من صعوبة الشريك غير الوفي، في جعل نفسه سعيداً. فيرمي على شخص آخر حلمه الأبدي بالحب المثالي. وهو، إذ يكون غير راضٍ بحياته، يلجأ إلى من يعكس طموحه. إن ملء فراغ النقص مع عشيق ما، يؤدي إلى حالة تعلّق قد تتحول إلى شغف مدمّر. داخل الثنائي، تنكشف الأمور التي لا تُرضي الشريكين وتتفاقم. «لاحظوا ما يوفره العشيق، تَعَلَّموا ما ينقصكم في حياتكم الزوجية. وهكذا تتلخص الخيانات الناتجة من التعاسة. هي تعاسة نسبية، وإلا فسوف تنفسخ العلاقة، لكنها صماء، بكماء، تتخفى بألف طريقة وطريقة...»[225]. يوظف الشريك الزاني طاقته في مكان آخر. عندما نحب الشريك، قد تزداد حدة الأزمة الزوجية الموقتة. يوهمنا الشخص الثالث بأن الأمور تتحسن، لكن في المنزل، تبقى الأمور على ما هي عليه. نشعر بالعيش من جديد بأن الحياة الزوجية تفقد لذتها فجأة، إن قارناها بلحظات اللذة المسروقة. الزاني يُلقي على شريكه مسؤولية خيانته، ويعلل بذلك هذه الخيانة. وهو يميل حتى إلى مفاقمة اللاتواصل لتبرير الابتعاد. «يشوّش العشيق الإشارات الطبيعية الخاصة بالثنائي التي تبين ضرورة استعادة الذات أو التخفيف من المطالب. فنجد حلولاً خارجية لمشاكل داخلية (...). عند العودة إلى المنزل، ماذا نفعل بهذه الاكتشافات»؟[226]. وبرغم ذلك، لاشعورياً، يلجأ الكثير من النساء إلى عشيق لا يختلف كثيراً عن شريكهن. ماريان امرأة غير راضية من الناحية العاطفية. فزوجها، لوك، نادراً ما يعبّر عن أحاسيسه. هي تأمل إيجاد بعض الحنان عند عشيقها، لكن هو أيضاً يبقى بعيداً. ومع الوقت، تحوّلت النزوة إلى علاقة ثنائية ثانية... مع المشاكل عينها. في الواقع، نحن نعيد المشاكل نفسها التي واجهتنا. تقيم ليا، وهي امرأة أعمال، علاقة مع صيرفي منذ ثلاثة أعوام. يريان بعضهما ثلاث مرات في الأسبوع، ويتهاتفان يومياً، ويذهبان معاً في نهاية الأسبوع. هي تتكلم على حبها الشغفي وحياتها الجنسية التي وجدتها من جديد مع هذا الرجل: زوجي بمثابة صديق لي، الأمور على ما يرام، أنا معه من أجل الأولاد... استأجرت شقة، لكنني سوف أعيدها: السحر يتلاشى، وأشعر بأن الروتين يتخذ مكاناً له شيئاً فشيئاً. الفندق أفضل. كما أنني أحس بأن الجفاء بدأ يدخل العلاقة. عليّ الانفصال... تميل العلاقة إلى اتخاذ شكل آخر في حال انتظر أحدهما أن ينفصل الآخر عن شريكه. انتظرت فيكتوار عشر سنين قبل أن ينفصل سيرج عن زوجته. هو هجرها، لكن متى يطلب الطلاق؟

أين الشريك في كل هذا؟ هو أحياناً المنسي الوحيد. حتى لو جهل أسباب تغيّر الآخر، يشعر بأنه يبتعد. يبحث الزاني من دون أن يشعر، عن طلب السماح، لكن رغبته بعيدة، هو لا يلتزم كما

قبل، هو يبخل أمام الشريك ويتكارم مع العشيق. فينشأ حينها عدم استقرار لا يلبث يزداد. وتكون غيابات الزاني حتماً مصدر قلق وشك وخوف. أنا لا أؤمن بالثنائي المنفتح، حيث النزوات متاحة بين الشريكين. هناك دائماً واحد يعاني ويخشى خسارة الآخر، وهناك دائماً واحد يحس بأنه مهمَل ووحيد وقَلِق. يرى الآخر نفسه محروماً من الطاقة والرغبة في تطوير العلاقة. ينغلق على مهل حتى لو لم يعِ ذلك. هذه الطريقة تعيق التبادل الفعلي وتجنب التطرق إلى المصاعب ومعالجتها وبذل أقصى الجهود لإعادة بناء الرابط. بعكس سيرج شوميه، أنا لا أظن أن الشخص الثالث بديل مناسب لإحياء الثنائي من جديد: إن فكرة التكتم جزء من الرغبة، والإعلان عن العشيق يولّد حالات من الغيرة. ألا يستخدمه الثنائي كمجرد غرض إثارة، سواء لتدمير الرابط أو لاستبعاده بعد استعماله؟

باسم التحرر الجنسي المقدس، ننسى أحياناً أن الحب والالتزام يفترضان المسؤولية. وباسم التطور الشخصي، وتأكيد الذات، ننسى الآخر. فنحن لا نعود إليه سوى بعد خيبة أمل مع العشيق، أي بعد تدهور العلاقة، منهوكي القوى ومكسوري الجناحين. يلزمنا بعض الوقت لاستعادة توازننا وإعادة تأسيس تواصل حقيقي. نعي أننا رحنا نبحث بعيداً عما لم نستطع إيجاده في دواخلنا، كما نعي أن من نحضنه ليس أباً أو أماً، وأن الوقت قد حان لنحب أنفسنا ونقدّرها. ليس أنانيةً، بل لأن حالتنا تنعكس على الآخر. وليس للظهور والنجاح ونيل التقدير، بل لنحس بأننا أحياء بكل معنى الكلمة، وموجودون في كل لحظة، وليس في النزوات فقط. عرفت نساء لا يعشن سوى لهذه اللحظات المسروقة، ويشعرن كأنهن في «فندق داخل منزلهن».

«من يبقوا أوفياء يسافروا في الخيال»[227]. قد نعيش قصص خيانة نتخيلها على الورق، فنكتب عنها، ونعبّر عن رغبات عيش نزوة ما.

لا تفصح أبداً...

ينطلق ألان إتشيغويين من مبدأ أن وضع الثقة بالآخر، يعني قبول عدم معرفة كل شيء عنه: «لا يحتمل الخوف من الخيانة فكرة تكتم الآخر. من جهة أخرى، تختفي حرية الآخر في حال عجزت عن الاحتفاظ ببعض الأسرار وكتمها. الالتزام الذي يشكله الوفاء يكمن في القيام بأي أمر بتماسك مع هذا الوفاء الخاص، وليس في الإفصاح عن كل شيء وكشف كافة الأوراق»[228]. هو يشدد على فكرة أن الوفاء لا يمكن فرضه بالقوة بين الشريكين، بحثاً عن الأمان. حتى باسم مبدأ الشفافية «الشاذ» هذا. «الوفاء بحاجة إلى الحرية، هو يتغذى بالحرية، وهو لا يستخلص قيمته إلا من هذه الحرية»[229].

كل يتصرف بحسب مزاجه وقيمه. بين الإفصاح عن افتتان ما، أو الإفصاح عن نزوة ما، يوجد هامش معين. أن نشعر بأننا مجبرون على الإفشاء أننا أمضينا بعض الوقت مع زميل للمرة الأولى في حياتنا، ينمّ عن سلوك غير مسؤول وصبياني، يعيدنا إلى صورة وجوب إخبار الوالدة بكل شيء... يحظى الثنائي في هذه الأيام، إذ يتساعد أكثر فأكثر، بتكوين مماثل... وراتبين. يعيش

الشريكان كصديقين يتحادثان في كافة الأمور. هذا الشعور بالتحرر، في جو من الثقة، يعطي انطباعاً بأن الآخر قد يتقبل كل شيء. بالتالي، لمَ لا نفصح للشريك مثلاً أننا أقمنا علاقة مع صديقه الحميم... منذ سنة؟ بعد احتساء بعض النبيذ، في سهرة حميمة بين اثنين، يبدو الوقت مؤاتياً. حذارِ! بلمحة بصر، قد تنقلب الأمور رأساً على عقب. الاعتراف قد يؤدي إلى تصرفات غير متوقعة. فجأة، يتبين أن حدس الشريك كان صحيحاً. يدرك أنكم تفضلون أحداً آخر عليه، فيصر ويستفسر عن التفاصيل: مَن، أين، متى، كيف؟ وها أنتم قد قمتم بخطوة خطأً. هذا الاعتراف بمثابة تعنيف، هو حقيقة تصيب نرجسية كل واحد. تحاولون عبثاً التخفيف من حدة الأمر: الشريك مجروح. «لم أُرد جعلك تتألم»؛ هو من دون شك التعليق الأكثر حساسية في هذا الوضع. «إن قانون الإفصاح عن كل شيء في الحياة الجنسية يتسبب في كوارث (...). إن اخترنا ألا نقول كل شيء، فهناك ضرورة احترام الذات والآخر...»[230].

في الواقع، لمَ نتسبب في الألم للآخر؟ تقول باتريسيا دي لاهي: الإفصاح مدمر للغاية، نحن بحاجة إلى أن نكون فريدين بالنسبة إلى الآخر، خصوصاً أن الخيانة بالنسبة إلى العديد من النساء، مسألة تعنيهن. قد تكون طريقة لتفادي الانهيار العصبي: هي لا تمت إلى حياتهن الثنائية بصلة. قد يكون العمر، العمر الذي توفت فيه الوالدة. من المؤسف المجازفة بكل شيء، يجدر بنا الانتظار وفهم الأمور وتحليلها. وبعكس خيانة عهد الزواج، تكشف النزوة نفسها، لكن من الجدير بنا تكوين أفكار في أذهاننا، بدلاً من أن نُحرَج. «الاعتراف يساعد على رؤية الخيانة. هو يخلق صوراً. (...) هذا من دون الأخذ في الاعتبار الإذلال وجرح الكرامة وإعادة طرح المسائل، لا الحاضرة فقط، بل كل ما حصل سابقاً. من الأفضل لنا أن نشك عوضاً عن التفكير في صور موسوِسة»[231].

فضلاً عن ذلك، عندما يعلم الشريك بخيانة ما، من خلال «فاعل خير»، أو زميل ما، أو رسالة هاتفية مشؤومة، لا يمكن القيام بأي شيء، غير الطمأنة. أفظع الآلام هو أن نعرف أننا مخدوعون، لكننا نحس بأننا مهددون بخيانات حميمة أكثر من الخيانات الجنسية. هذا الجرح النرجسي يوقظ فينا الخوف الطفولي من التخلي، ويُفقدنا ثقتنا بأنفسنا، «الخوف من ألا نحظى بالحب؛ الخوف من ألا يُرغَب فينا؛ الخوف من النبذ؛ الخوف من الوحدة... تدفع إلى العنف»[232]. الألم الذي نعرب عنه، قد يؤدي إلى انهيار عصبي، ويستغرق سنين قبل أن يشفى. الألم فظيع، ولا سيما عندما تصبح النزوة مُعلَنة، ويعلم الناس عن هذا الشريك المخدوع. تقع الفضيحة، وتتدخل العائلة وتتخذ المسألة نطاقاً يتخطى الثنائي. «النزوة تقحم معنى الثنائي بحد ذاته (...). خيانة الآخر تعني أحياناً اتهام المكانة التي يشغلها...»[233].

مع أو ضد؟

لا يتعلق الأمر بالخيار ما بين الحقيقة أو الكذب، بل بإعطاء العلاقة الأولوية. «لو أردنا أن نسمح لأنفسنا ببعض النزوات، فليس بالضرورة مجدياً البوح بكافة التفاصيل. قد يصبح التبرير عن

الشفافية التي تمحو باسمها «الصراحة» الخيانة، فخاً ينعكس ضد الثنائي. تدخل هنا بعض الأعمال الشريرة: فنتحول إلى شخص ينظر إلى العلاقة على أنها ليست لنا، وعلى أنها علاقة تولّد الإثارة والرفض في الوقت عينه»[234]. في المقابل، تشيد نادين غران جان بقول الحقيقة: كي يتطور الثنائي، يجب الميل نحو الشفافية. ليس الشفافية التامة، لأننا لسنا شفافين أبداً بالكامل، لا مع ذواتنا، ولا مع الآخرين. وبحكم مهنتي كمستشارة في أمور الثنائي، في كل مرة كنت أسمع فيها كلمات حقيقية، كانت هذه الكلمات كلمات حب. الخيانة هي موت الثنائي: حياة مجبولة بالكذب. على أي حال، الآخر يعلم ذلك. الحقيقة تجعلنا أحرار، أحياء.

كيف لنا أن نتصرف؟

فرضاً أنكم اكتشفتم أن الشريك يخونكم، ماذا تفعلون؟ لا صراخ، لا دموع، لا خطوات خائبة، كل ما تستطيعون فعله ممكن. لكن الصمت هو طريقة أسهل للكلام من الفعل. حاولوا وضع مسافة بينكم وبين الحدث، وحتى بعض الكبرياء بعدم إيلاء الأمر أهمية. أفضل ما يمكنكم القيام به: تابعوا على الفور ما كنتم تقومون به تماماً، كي تعطوا الآخر صورة استقرار عكس صورة عدم الاستقرار التي قد تبدر منكم، ثم أعيدوا التركيز على أنفسكم من دون أن تُلقوا الذنب على ذواتكم، واهتموا بأنفسكم، واخرجوا، وتمتعوا. بعدئذٍ، تكلموا مع الآخر بكل هدوء، ومن دون أي مؤخذات أو عدوانية. إن كنتم أكيدين من أنفسكم، يمكنكم اللجوء إلى أسلوب التناقض الذي يكمن في حثّ الآخر على تكرير فعلته: «أنت محق، اخرج مع هذا الشخص متى تشاء، كل مساء...»، من دون موانع ومع إغراء أكبر. قد تتحول الخيانة إلى كابوس إذا نخرت الغيرة قلب الشريك...

الغيرة

كيف لا نشعر بالغيرة؟ وهل من شعور طبيعي أكثر نحس به عندما يخوننا الآخر ويتخلى عنا ويستبدلنا؟ وبرغم ذلك، في La jalousie amoureuse[235]، يفسر لاغاش أن الأمر يشكل حالة مرضية. فهو حتى يقول إن من يشعر بالغيرة يرغب لاشعورياً بعشيق زوجته. خلاصة الأمر، قد تكون الغيرة علامة مثلية جنسية مكبوتة. هو يميّز بين الحب الغيري المرتكز على التضحية بالذات، والحب التملكي أو المستأثر وهو بطبيعته عصابي ونرجسي. الشعور بالغيرة والشك في الآخر ينمّ عن قلة ثقة بالذات وبالآخر. إننا نغار «من شخص يملك شيئاً ما يسحر من نحب بطريقة تتعذر مقاومتها»[236]. إننا نعاني هذا الجذب لأننا لا نقدر أنفسنا كفاية، ونقلل من شأننا. الغيرة نكوص. هي علامة جرح لم يلتئم جيداً؛ علامة تخلّ؛ علامة نقص. من يشعر بالغيرة يبذل ما بوسعه لاستعادة الآخر، لكنه في الحقيقة، يجرح نفسه. «كوْني أغار، فأنا أعاني أربع مرات: لأنني أغار؛ لأنني أعاتب نفسي على ذلك؛ لأنني أخشى أن تجرح غيرتي الآخر؛ لأنني أدع نفسي تخضع لتفاهة: أعاني فكرة الاستبعاد، والتصرف بعدوانية وجنون، وفكرة أن أكون مشتركاً»[237]. تُظهر الغيرة خوفاً من المجهول، من اللامعقول. قد يخترع شريك متملك تنافساً وحالات استيهامية ليغذي قلقه

وعصابه. إننا نخسر دائماً الكثير من الطاقة في «تجسسنا» على الآخر، بدلاً من العودة إلى العلاقة واستعادة الحياة الحميمة المفقودة.

لا تكون الغيرة سلبية للغاية، إن قبلناها وعزّمناها، إن اعتنينا «بالطفل المجروح» الموجود في داخلنا، المحتاج إلى الطمأنينة، إن حاولنا البحث من حولنا وفينا عن وسائل لاستعادة الطاقة. الحب الحقيقي يقضي بحب الذات وحب الآخر فوق كل شيء، لإيجاد السلام الداخلي، وعدم مفاقمة الوضع. يظن الكاتب كلود هانري دي بور أنه يكفي الانطلاق من مبدأ ما: إن العلاقة، حتى المتميزة، التي أقيمها مع شخص ما، لا تمكن مقارنتها بحد ذاتها بأي علاقة أخرى: هي فريدة من نوعها. وبالتالي، إن فهمت إلى أي درجة هي فريدة، لن أُجرح أبداً من العلاقة التي يقيمها الشخص الذي أحبه مع آخر. هذا الشخص يعيش حالة مختلفة لا تمكن أبداً مقارنتها مع الذي أعيشه معه. هذا شكل من الاحترام بدلاً من القول: لست أنت فقط من أحب بل حريتك أيضاً. ثقتي بك كبيرة إلى درجة أنني لا أشعر بالخيانة أبداً.

في حال أضعفت أحدَ الشريكين صدماتٌ نفسية تتأتى من الطفولة، كالخوف من النبذ، والشعور بحاجة التأكد تماماً من أن الآخر لن يتخلى عنه أبداً ولن يتركه وحيداً يتألم، يجدر به مشاركة الشريك هذا الخوف العميق كي يفهم أن بعض التصرفات غير المضبوطة قد تولّد جروحاً.

فن السماح الدقيق

«إغماض الجفنين»: دليل جبن أم راحة؟ ليس أياً من الاثنين. ليس علينا الوقوع في شرك المقولبات. لربما علينا مراجعة الوضع كي تتطور العلاقة. أفضل ما يمكننا القيام به هو عرض أسباب خيانتنا ومحاولة بناء الثقة... التي تطول لتلِد من جديد. بعد ذلك، علينا أن نفسخ علاقتنا تماماً بالشخص الثالث. إن روز المتزوجة منذ ثمان وعشرين سنة، وفية لزوجها. وهي تظن أنه في حال واجه أي من الشريكين حالة خيانة، يجدر به الاعتراف بذلك لنفسه والسماح: في حال خان أحد الشريكين الآخر، رد الفعل الأسمى هو السماح. لم أصادف مثل هذا الوضع مرة، لكن أظن أن من يعيشونه يمرون في حالة لم يمر بها الآخرون. أعتقد أنه من الضروري الإفصاح عن الخيانة، وأحياناً يدق الآخر الباب ليحصل على الجواب. إن اتخذ الكذب مكاناً له، فقد تحدث العديد من الأضرار. في حال، على سبيل المثال، عرفت الزوجة أن زوجها عاش نزوة لثلاث سنين من دون أن يبوح لها بذلك، الأمر أكثر فظاعة من الشعور بغش الآخر. تعرضت لعدة مرات للتجربة، لكنني لم أتفوّه بكلمة. كنت لأجرح زوجي. على أي حال، علمت أنني سأتفادى الاستسلام. الكثير من الأشخاص يتوهمون.

السماح ليس سهلاً، بحسب سيلفي، وهي وصيفة في فندق كبير في باريس، ومتزوجة منذ عشرين سنة بـ طونيو، البرتغالي الأصل، الذي يعمل حرفياً في المبنى. لهما ابنة في الثامنة عشرة من عمرها، وابن في ربيعه التاسع. «بعد زواجنا، لم يكن لدينا ما نأكله، لكننا لطالما تساندنا. لطالما كنا متفاهمين... إلى أن انقلب الوضع منذ سنتين. أنشأ طونيو مؤسسة، وعندما أفلس أصبح لا يطاق،

وكثير العصبية. كنت أنتقده بشدة، كما كانت لتفعل أي امرأة. كان يخرج ثلاث مرات في الأسبوع، ويعود إلى المنزل في الساعة الرابعة فجراً، وكان أصدقاؤه عشرة سوء. عندما كنت أسأله أين أمضى ليله، كان يجيب بأنه ذهب إلى الملهى مع بعض الأصدقاء... الرجال. دام هذا الوضع سنة بأكملها. كانت الشكوك تراودني إلى حين اكتشفت رسالة هاتفية موجهة له قد بعثتها امرأة لتفصح له عن حبها. كما علمت أن أشخاصاً رأوه مع امرأة أخرى... أنكر كل شيء. قال إنها مجرد صديقة. لكنني لست بمغفلة! تصرفت معه بقسوة، وطردته من المنزل: «دعني بسلام!». رحل لأربعة أشهر، وكان يعود من وقت إلى آخر. كنت أطلب منه الطلاق. رفض. أحس بالذنب، واعترف بأنه «تلفظ بحماقات»، لكنه استمر في إنكار خيانته لي. بعد مناقشات عديدة، قبلت عودته، فقط من أجل ولدينا اللذين راح سلوكهما يستاء. فكرت: كان ابني الصغير يسألني متى سيعود أبي. فقلت في نفسي: لا داعي لتدمير هذا الثنائي بسبب هذه المسألة! عندما عاد طونيو ليسكن في المنزل، قال لي: «أنا نادم، وآسف لأنني تسببت لك في الألم، ولأنني جرحتك. أطلب منك السماح، لكنني لم أخنك مرة». كان يفضّل أن أبقى في الشك. حاول استعادة مكانته. هو لا يساعدني كثيراً في الأعمال المنزلية، لكنه يتصرف بلطف. وعلى الرغم من ذلك كله، لا يزال الشك يراودني. لكن الأمر مختلف. كأنه خيانة. أنا أحذر أكثر، ولا أثق به كما من قبل. أنا لا أنسى، لكن يمكنني أن أصفح عنه: ما حصل له قد يحصل لي. أنا في الأربعين من عمري. لطالما كنت وفية له، لكنني كنت أصارحه بأنني في حال وقعت في حب رجل آخر فقد أرحل معه. الخيانة أسوأ الأمور. هو يحس بذلك، ويخاف. أنا مستعدة لخيانته لأنتقم منه! لكن فكرة التخلي عنه؟ هو لا يتحملها، قد يتحول إلى إنسان في غاية التعاسة. لربما لم أعرف في السابق كيف أصغي إليه. هو حاول أن يخبرني عن مشاكله المادية، بيد أنني كنت أنكبّ على عملي. من الناحية الجسدية، تحسنت الأمور: في السابق، عشنا روتيناً، أما الآن، فنمارس الحب أكثر من مرتين أسبوعياً. هو أكثر إبداعاً، ويداعبني حين يمارس الحب معي... أنا أحس بالرغبة أكثر الآن. لربما قد خاض تجارب غيّرت حياته الجنسية كثيراً وأعطته بعض الأفكار. إنه يحاول أن يستميل قلبي مجدداً، ويبرهن لي أن بإمكاني الثقة به. خشي كثيراً أن يخسرني. كانت الفكرة تعذبه، حتى إنه كان يذرف الدموع في كل مساء».

تشهد نادين غران جان بقوة السماح: كل شريكين قد تسامحا انطلقا بقوة أكبر. أظن أنه قبل السماح، يجب أولاً أن نسأل أنفسنا عن مسؤوليتنا في وقوع الخيانة، سواء أكنا من تعرّض لها أم قام بها. لا شك في أن جزءاً ما في دواخلكم غير راض، لا يشعر بسعادة كبيرة. ابحثوا فيكم أو بفضل مساعدات خارجية عن وسائل جلب السعادة إلى قلوبكم، وإعادة بناء ذواتكم. لا يجدي نفعاً أن نسامح شكلاً فقط: لا يمكن ألمكم أن يزول إلا إن عاملتموه برقة. تستطيعون التحدث عنه مع الشريك من دون إلقاء الذنب عليه.

الإقرار بالخيانة: محرك للبناء مجدداً

البوح بكل شيء قد يتسبب في الألم، وهذه تجربة قد تخطاها لوران وإيلوييز المتزوجان منذ خمس عشرة سنة، وخرجا من المأزق متدعمين بقوة أكبر ومتوحدين أكثر بفضل التواصل، وهو سر حياتهما الثنائية، من بين أسرار أخرى... تخبر إيلوييز، وهي مصممة أزياء تعمل في دار أزياء في باريس، كيف هجرت رومان بعد أن أقر لها بخيانته، وكيف نجحت، شيئاً فشيئاً، في إيجاد نفسها وإعادة تأسيس حياة جنسية وعاطفية سعيدة و... مثيرة. كانت فترات حملي شنيعة. كان عليّ

النوم طوال الوقت. لازمت المستشفى، أتلقى الحقن باستمرار... كنت شابة، واضطررت حينها إلى التوقف عن العمل. كنت أعيش في حالة رعب من خسارة طفلي. بعد ولادته، تغيّرت. شخت فجأة. بعد ذلك، عطل رومان عن العمل. فهو قد طُرد من عمله في فترة حملي الثانية. تعرض رومان لانهيار عصبي. أنا لم أره. هو متكتم، يسيطر على نفسه. كانت تلك أزمة رهيبة قد خانني خلالها. لا شك في أنه قام بذلك ليطمئن على ذاته. وهو إذ شعر بالتشنج، باح لي بغلطته. ما عاد يتحمل العيش على هذه الحال. كان الأمر فظيعاً. عشنا سبع سنين معاً، وكان لدي انطباع بأنني لا أعرف هذا الرجل أمامي. اكتشفت فيه أموراً أخافتني: علاقة جنسية مع أخرى. كان يخبرني كل شيء، كما لو كان يدمر نفسه. كان يحس بأنه يقوم بعمل سيئ، لم يعد يتحمله. فُجعت بالخبر وتحطم فؤادي. أحسست بأن سمعتي قد تشوّهت. كان رد فعلي الأول: «اغرب عن وجهي!». شعرت بأنني سأموت من الحزن. كنا نمضي العطلة عند جدتي، فعاد إلى باريس.

ـ كيف أنقذتما حياتكما الثنائي؟

أخبرت جدتي بما حدث، فراحت تتكلم معي طوال الليل. قالت لي: «في يوم أو في آخر، لا بد من أن يتعرض أحد الشريكين للخيانة، أياً يكن شكل هذه الخيانة. لا تحكمي بسرعة على رومان، لا تطلبي الطلاق. لقد عشت مع جدك حالات مؤلمة، لكننا من جهة أخرى، أمضينا خمساً وخمسين سنة من السعادة المطلقة. انظري إلى الحسنات والسيئات: لقد أفصح لك بخيانته، هو يحبك بعمق». كنت أتلقى يومياً رسائل من عشرات الصفحات من رومان. كان يكتب لي أنني المرأة الوحيدة في حياته، وكان بحاجة إلى أن يطمئن. في غضون ثمانية أيام، طلبت منه العودة... ارتميت بين ذراعيه وبكينا. لقد اشترى لي معطف أحلامي. وعلى الرغم من كل ذلك، استغرقت الكثير من الوقت لأعود إلى طبيعتي. هو اعترف، ما لم يكن ليحصل له أبداً. حافظنا على الحوار بيننا، ومع الوقت، التأم الجرح. خرجنا منتصرين من المشكلة. بعد ذلك، كنت أنا من خانه. أردت أن أختبر قدرة جذبي للرجال. فهمت بسرعة أنه ما من منفعة في الأمر، وأنني أعجِب كثيراً. أردت أن أحس بطبيعتي كامرأة. فهم رومان. وعيت أن هذه المغامرات لا تساوي شيئاً مقارنة مع ما أعيشه معه. لكن هذه التطورات تسببت في تداعيات في حياتي. عندما بلغت الأربعين، مررت في أزمة المراهقة. كنت أشعر بأننا منغلقان كما في فترة اكتئابه. من الناحية الجنسية، كانت علاقاتنا خجولة، كما لو كان جدار برلين يفصل بيننا في السرير. لكنني وعيت فجأة، وعزمت على مواجهة المشكلة. فذهبت في نهاية الأسبوع في نزهة مع رومان وبُحت له بما عندي: «نحن لا نتكلم، لا نتلامس، ما الذي يحدث؟». تحدثنا لأربع ساعات، وأعدنا كل شيء إلى نقطة الصفر. أظن أن الشريكين اللذين يعمّران هما من يعرفان التصارح بالأمور. إن عجزنا عن التعبير عن استياء ما، أو انزعاج ما، أو سعادة ما، نقعْ في شرك الروتين، ويحتل العمل مركز الأولوية. نعي أنا ورومان عيوبنا وسبب تواجدنا معاً. هو شخص مطمئن، وصلب! لقد دعمني في عملي. أدى دوره كأب بكل ما في الكلمة من معنى. هذا هو سرّنا بعض الشيء. نحن نتكلم كثيراً على أولادنا. ومقارنة مع أغلبية صديقاتي المطلقات، الحظ يرافقني. إننا نشكل فريقاً جيداً. البطالة وخياناتنا دلّتنا على الطريق الصحيح. أنا أؤمن بالمستقبل، وأعمل مع رومان على تحقيقه.

ـ ما هي أسرار حياتكما الجنسية الناجحة؟

عندما يذهب الأولاد في عطلة، تتحول الشقة: شموع، غداء رائع، موسيقى، شامبانيا. نمارس الحب، ليس في الغرفة بالضرورة... نجد وقتاً لنحبّ بعضنا. ليس الزواج درباً طويلة ساكنة. أنا أعرف ما أملك: «ثروة» عزيزة على قلبي، وأنا مستعدة لأبذل ما بوسعي للمحافظة عليها.

لا يمكن أحداً أن يعد شخصاً بالوفاء طوال حياته، إلا إن وعد بذلك على الورق. قد يصبح الوفاء خياراً مناسباً للذات، وللثنائي الذي نضع فيه كمّاً وفيراً من الطاقة. وهو غير ممكن إلا في حال تواجدت حاجة النوعية والعيش الأفضل والتطور من الجهتين. في حال توقف أحد الشريكين وبقي في عالم الماضي وفقد الرغبة الجنسية ورفض الذهاب في اتجاه البهجة المتبادلة، يخسر الوفاء معناه. هو ينمو إن عاش كل من الشريكين علاقة جنسية مبدعة، تكون مصدر ثقة معزّزة. الوفاء علامة النضوج. وهو يأتي عندما لا نكون بحاجة، أو لا نرغب في البحث عن الحب في نزوات خارج الزواج والتشتت والشعور بالاطمئنان. عندما نتأكد أكثر من أنفسنا، ونعي قيمتنا، نركّز على مشاريع تهمنا من الداخل والخارج. إن اكتساب نوع من الحكمة الداخلية والبحث عما هو جليل، يسمح لنا بالاتجاه صوب الجوهر: الوجود لا الامتلاك، الوحدة لا التعددية، العمق لا السطحية.

يعتمد الوفاء على: «نوعية الثنائي». إن أصبح الثنائي على مر السنين متوازناً وتطوّر وسمح لكم بتحقيق ذواتكم وإيجاد اللذة مع الشريك وتحقيق اللذة لذواتكم، فلن تجربكم الخيانة. «يعزز احترام حرية الآخر الوفاء»[238]. إن أحس كل واحد بحرية خوض نزوات إلى درجة التكلم حولها، تختفِ التجربة وحدها. وفي حال أخطأ أحد الشريكين، لا يجب أن تغيّر هذه النزوات علاقة الثنائي المتينة. يشبه هذا التسامح مفهوماً في الثنائي، حيث لا ينتمي الآخر إلينا. «في الواقع، الخيانة الحقيقية للذات هي العيش من دون استقلالية، أي في الخضوع، أو التضحية بشخصيتنا وميولنا ورغباتنا ومشاريعنا ومواهبنا واستقلالنا الذاتي للآخر»[239]. عندما يُكبت أحد الشريكين من أجل الآخر، ويعيش في جوّ الموانع الأبوية، ينحلّ.

عندما نسامح على الخيانة، تتمهّد الطريق أمام علاقة تهيمن فيها الحقيقة أكثر. يندرج ذلك ضمن إطار إرادة احترام الالتزام وقصة العلاقة والحب. يضع أندريه كونت - سبونفيل الذاكرة في قلب هذه الثقة: «إلامَ نحن بحاجة كي نحبّ الحاضر ونخون الماضي؟ (...) أقسم لك، لا أن أحبك أبداً، بل أن أحب دائماً هذا الحب الذي نعيشه. الحب الوفي، ليس الحب الحرّ: هو الحب النسيّ، الحب الخائن، الحب الذي يكره ما أحبه فيكره نفسه. لكن، هل هذا بحب؟ أحبّني قدر ما رغبت، يا حبي، لكن لا تنسني»[240]. الوفاء «يحب الحب والتعلّق والرابط المختار. هو يظهر الرغبة في أن يحبنا الآخر. (...) يطرد هذا المنظور الحديث والمحمّس الشعور بالغيظ والبغض[241]. هو يبعد العلاقة المبنية على القوة ويسمح «بالتخفيف من وطأة الخيانات» واستباقها.

الفصل التاسع

العزلة

إن فترات العزلة في الحياة الثنائية متعددة الأنواع. تظهر بعضها عندما تتخذ «الأحياء الأربعة» مكاناً لها، وعندما تفشل محاولات التقارب. ما من كلام، أو بالأحرى، لا نتفوه سوى بالانتقادات وكلمات الاحتقار والدفاع عن النفس والتهرب. نفقد الاندفاع الأولي، فاسحين المجال أمام الروتين ليسيطر، فتغيب الشهوانية، ويترسخ الملل والتعب والاكتئاب والشعور بالفشل. تتباعد الدروب. كما أن ظروفاً خارجة عن نطاق الحياة الثنائية، تفرض هذه العزلة الموقتة، فتضاف إلى أحاسيس الاستياء والإحباط ولحظات الصمت والخيانات، المشاكلُ المهنية وحالات المرض والحداد... فترات العزلة جزء من رحلة الحياة. لربما علينا أن ندرك بكل بساطة أننا سنواجهها. بشكل عام، «الثنائي الذي يواجه مصاعب كبيرة حظه أوفر من غيره في الاستمرار (...). قد تشكل فكرة مواجهة مشكلة مشتركة معاً بالنسبة إلى الثنائي طريقاً نحو حياة ثنائية أبدية»[242].

القُتار: الانفصال عن النماذج الأبوية

قد يحدث ألا نتحمل الآخر. كل شيء فيه يزعجنا. لا نرى سوى عيوبه. نقاطع حديثه، نوجه إليه ملاحظات لاذعة. هو هنا، كما لو كان بيّنة. ترتبط أسباب هذا التدهور في شعور الحب أحياناً، بخضوعنا لاشعورياً للنموذج الأبوي. وأثّر والد بريجيت فيها كثيراً. اعتبرته رجل حياتها. ومقارنة معه، يبدو لها فريديريك تافهاً. ما دامت لم تقرر الوقوف في صف زوجها بدلاً من والدها، فلن تكفّ عن التقليل من قيمة زوجها. أما لويك، فيصبّ على زوجته كافة عيوب والدته. هل نستطيع التوصل بأنفسنا إلى فهم هذا الثقل الذي يسحق نوعية علاقتنا مع الشريك؟ لا شك في أن استشارة عالم نفساني هي الوسيلة الأفضل لتحديد هذه العقد التي تعيق تقدّمنا. إن اتهام الآخر والتوقف بعنف، يزيدان من ضحالة المسافة بين الشريكين. لا يمكن النور أن يشرق من جديد إلا عندما تسوون مشاكلكم الشخصية. لا تفكروا في أن الأمور ستجري على ما يرام وحدها، مع الوقت. تصرفوا بحماسة. الحل المناسب: العمل على الذات للتخلص من الـ «أنا» الخطأ والمظاهر والاعتقادات

والتصرفات التي يفرضها الوالدان والمربون لإيجاد الـ «أنا» الحقيقية، أي مشاعركم أنتم وحاجاتكم الشخصية وسلوككم الفعلي، والثقة بها، ولإيجاد قدرتكم الحقيقية. وذلك كله يعني أن تكونوا أوفياء لأنفسكم»[243]. يتعلق الأمر بكل بساطة ببلوغ درجة معينة من الحكمة، والتحرر من المخاوف. أنا أعلم كم أن العمل على الذات يستغرق وقتاً، وأحياناً يكون ملزِماً. حتى إننا قد نفكر في التخلي عن الآخر. أنا أستطيع حلّ مشاكلي وحدي! لكن في الواقع، عندما نواظب، تتضح الأمور، ويعكس العالم والآخرون تطورنا من دون أن نبذل أي جهود. بالطبع، إننا نقع أحياناً في الفخ عينه، لكن في كل مرة نثابر أكثر، فتفتح في دواخلنا فسحة من الحرية. تصبح حينها العلاقة مع الشريك أخفّ، وتنحلّ كافة المصاعب. على الشريك أن يقبل التطور أيضاً.

ضدّ القصور الحراري

القصور الحراري قاعدة ديناميكية حرارية حدّدها بوانكاري: كل شيء يُستخدم! تضاف إلى هذه القاعدة، قاعدة أخرى: كلما كان النظام مقفلاً أكثر، يتكرر أكثر ويؤدي إلى الجمود. قبل رؤية «النير»، فلنغيّر الثوب. في حال تغيّرت العلاقة، فذلك لا يعني أن علينا استبدال العلاقة، بل التفكير بشكل آخر وإعادة إحيائها، وإعطاؤها أهمية من خلال التكلم وإعادة طرح المواضيع. كل واحد منا سر مغلق: ليس طبيعياً أن يتلاشى عنصر الاندهاش الذي يولده الشريك فينا. هناك دائماً جزء من شخصيته تذهلنا وتحفزنا. إن الأشخاص محدودون أقل مما نتصور. إن نظرتنا هي التي تصبح محدّدة. فالحقل المحروث جيداً يعطي ثماراً غير متوقعة. والجمود هو عدو الثنائي اللّدود.

لنستبعد النظام المغلق والروتين: على الثنائي أن ينفتح باستمرار، وإلا فقد تُستنفد منه شحنته: الانفتاح على عالم الأصدقاء، وعلى الأفكار الجديدة، وممارسة النشاطات الرياضية والفنية... وإلا، فسوف يقع في شرك الروتين والضجر. الآخرون يحولوننا ويزوّدوننا بالطاقة والحرارة، ويروننا بشكل مختلف. الانغلاق يعني هلاك الثنائي وانعدام الرغبة، وهو يؤدي إلى «إيمائية» محتومة. «لا فرق من تكون، فإن أصبحت شبيهاً لي، فسوف أشعر بالملل معك»[244]. إذاً، كي لا نحصد الضجر، علينا زرع الاختلاف، وحتى التمرد! على الثنائي أن يحافظ على روح الثورة!

 تخطي المشاكل

عندما تتراكم الاعتراضات وحالات لزوم الصمت، تصبح الحياة الثنائية أشبه بفيلم سيئ، يؤدي فيه الممثلون أدوارهم كإنسان آلي. كل واحد يحقد على الآخر، ويعاير نفسه ويتفحصها. ما من نزاعات: هذا بالأمر الأسوأ! صمت مليء بالمضمرات. الكلمات التي لا قيمة لها تزن أطناناً. الانزعاج يحوم. يهمل الثنائي أحياناً نفسه. قد يحلّ الأطفال والنشاطات والأصدقاء مكان الحياة الحميمة. يجرّد ذهاب الأولاد والمشاكل المهنية الثنائي. حينها، يبرز الإحباط والملل، بالإضافة إلى المرارة وخيبة الأمل. ثمة وسيلة أخرى تساعد على تفادي الوصول إلى هذه المرحلة، هي «تعبير»

التسلية والخصوصية، وتحديد أوقات للتطور وأوقات فراغ مخصصة لتسوية الأوضاع. إننا نشن «حرباً باردة» من لحظات الصمت التي تشكل مصاعب، علينا تخطيها.

إن لم نحذر، فلن نرى الآخر بوضوح. ما كان يُحتمل في بداية العلاقة يتحول إلى قنبلة موقوتة قد تنفجر في أي لحظة. من المقلق إدراك كم أن الطلاق منتشر اليوم بين أبناء الجيل الثالث. فالعبوة لم تفكَّك في الوقت المناسب. ينشأ التصرف بقسوة من خشية خسارة السلطة والتحكم والهوية، وأيضاً الخصوصية. لا يشاء أحد التنازل بحجة البقاء متوافقاً. وبرغم ذلك، فإن تبيان الضعف بحد ذاته قوة «لا تجردنا من شيء»، بل العكس. وفي ما يتعلق بتربية الأولاد، قد يستمر «الانفساخ» بين الزوجين في حال وجد أحد الشريكين نفسه خارج اللعبة.

طفح الكيل!

عندما يحتدّ الخلل في التوازن في التأثير، يصبح أحد الشريكين في موقع الخضوع، والآخر في موقع السيطرة. تسامح المرأةُ الضحيةُ الشريكَ على كل الأخطاء ولا تتجرأ على انتقاده، وتتنازل عن حريتها، وتعتبر أنها السبب في كافة العيوب. تتهم نفسها مقدماً، وتشعر بالذنب لما لم ترتكبه. عندما يضحي أحد الشريكين بذاته في سبيل الآخر، يعاني الثنائي. يمضي سامويبل وقته في مساعدة باميلا، وهي إذ تشعر بالاكتئاب، تتهاون. يُسديها سامويبل النصائح ويدللها. يظن أن دوره ضروري، ولا يرى أنه يجعل منها امرأة خاضعة. هذا النوع من الرجال يحس أحياناً أنه يفوق من يساعده، فيُبقي المدينين له خاضعين له. إن استطعنا دعم الشريك، فعلينا العمل على ألا نخسر ذواتنا: ساعد نفسك، تساعدك السماء! يفعل الشخص المكتئب ما بوسعه ليستميل الآخر: العتاب، التهديد، وحتى محاولة جذبه نحو طريقة تفكيره. الحب المرتكز على التضحية بالذات مضر. من كان ليتجرأ على أن يزعم أن أحدهما عليه أن يكون العكاز الذي يتكئ عليه الآخر؟

يتبدد الحب من نقص التضامن والاهتمام والتواصل. إننا مسؤولون تماماً عن نجاح حياتنا الثنائية. بعيداً من الإرهاق والتسلية، لا شيء سوى لحظات الوحدة والسكون والتفكير. عندما تدونون مذكراتكم، تبوحون للورق عن شكوككم ورغباتكم، وتكونون قريبين كثيراً من أنفسكم. وبدلاً من إخفاء ما تشعرون به والظهور بأنكم أقوى، خاطروا بأن تظهروا كما أنتم. حينها، تتفاجأون لرؤية الآخر يصغي إليكم، وأن التوتر يزول، وأن صراحتكم ترهف قلبه وتحثه على اتباعكم. وكلّما عرفتم كيف تظهرون تعاطفاً أكثر، واهتماماً صادقاً بالآخر، تلِد الثقة والطاقة من جديد بشكل أكبر.

مآسي الحياة

عند مواجهة اللحظات العصيبة - البطالة، المرض، الاكتئاب، وفاة قريب ما، أو حتى الكلل -، المهم هو أن نشعر بأننا معنيون حقاً بما يحصل للآخر، وأن نُظهر له ذلك من خلال إشارات حب تدل على أننا ندعمه. من دونها، سوف يشعر بالوحدة والنبذ والمرارة. من الضروري بشكل خاص تقويم الشخص المحبط.

الفشل المهني

قد تكون البطالة والمشاكل المهنية سبباً للاكتئاب الذي ينعكس سلباً على الثنائي. ما العمل؟ تقبّل الوضع. من يعاني فهو بحاجة إلى التفهم والاعتبار. إن أراد الانعزال، فلنحترم إرادته. علينا ألا نشعر بأننا قادرون على كل شيء. لنصبر ونثق بأنفسنا ولا ندع التشوّش يتغلب علينا، ما دام الشريك يخجل من الجلوس من دون عمل و«يقلل من قيمته». يحلل روبير نوبرغر ما يشعر به العاطل عن العمل عندما لا يأخذ الشريك طلباته في الاعتبار: «لا تجد حاجته إلى الاطمئنان من جديد - الحاجة إلى إيجاد شعور بالانتماء إلى الثنائي مجدداً - صدى عند الآخر، وبالتالي قد تحاول تصرفات «غير منطقية» تنمّ عن غيرة، بلوغ هذا الهدف على الرغم من كل شيء، وحتى إدخال الثنائي في منطقة الخطر عبر فصله عن محيطه»[245]. فُصل نويل من عمله في الحقل الاقتصادي، وهو يحسد سابين الناجحة في مهنتها كمصممة أزياء، لكنه يمنعها من العمل في المنزل، ويعيق تطورها بمؤاخذاته التي لا تنتهي. وهذا الضغط الذي يمارسه شخص مجروح، بحاجة إلى تفهم كبير من جهة الآخر. يتعلق الأمر بالإصغاء أولاً، وخرق الوقائع لرؤية الجروح الداخلية التي تفتّحت من جديد. لا تؤثر النصائح سوى قليلاً، فقط التعاطف يسمح للعاطل عن العمل بالارتياح كي يستعيد الطاقة.

الاكتئاب، المرض

الأمراض الخطيرة أو الحوادث تضع الثنائي أمام تحدّ: البعض يواجهه والبعض الآخر يتيه. في حالة التعب المزمن أو الاكتئاب، يواجه الشريك السليم مشكلة أساسية: قد يرفض الآخر أحياناً مساعدته وينغلق ويستسلم للأفكار السوداء. النتيجة: لا يعلم الشريك كيف يدعم الآخر الغارق في ظلام مصيبته. حتى إن هذا الأخير قد يذمّ جهود شريكه. هل يجب حينئذٍ أن يكفّ الشريك السليم عن الاهتمام لأمره؟

قد يدرّ المرض، بجعل أحد الشريكين خاضعاً والآخر «معالجاً»، بـ «منافع ثانوية». «كلما انخرط الثنائي أكثر في سير الأمور هذا، قلّت إمكانية الهرب منه لأن المرض هو الذي يعلّل علاقة الثنائي. إن تحسن المريض، يضع الآخر في موضع خطر خسارة مكانه ودوره، فتتخذ العلاقة منحًى تناقضياً: إن شفي، أكُن أنا في خطر... وإن زال مرضي، فسيكف عن الاعتناء بي»[246]. قد يوضح المرض كافة الصعوبات، فيصبح سببها. وقد يسمح أيضاً بتخطي المشاكل، وتحويل الانزعاجات إلى رضا. قد يرى الثنائي الذي توقف عن إقامة العلاقات الجنسية، أو حيث أحد الشريكين عاطل عن العمل، في المرض تعليلاً لعدم التمكن من الخروج من الحالة المحبطة. وفي حالات أخرى، يشكل المرض عاملاً إيجابياً يسمح، في مدى معين، بتقريب الشريكين فعلياً.

هؤلاء من يقوّيهم المرض

اكتشفت بينيلوبي يوماً ورماً في ثديها. كانت حينها في الخامسة والثلاثين من عمرها. خضعت للمعالجة الكيميائية ولعملية استئصال... وهي منذ أعوام تقاوم مع لاديسلاس. تعاني أحياناً

بعض الانتكاسات. استمر المرض، لكن إيمان الشريكين قوّاهما.

- كيف قرّبكما المرض؟

بينيلوبي: لقد هزّني الخبر. خلال السنتين اللتين أعقبتا اكتشافي إصابتي بالسرطان، كنت أذرف الدموع في كل مرة أتواجد فيها وحدي. لكن حياتي الثنائية ما لبثت تلتحم بفضل إيماننا. كما تعززت حياتنا الحميمة. نحن نصلي معاً. أتجرأ على أن أقول للاديسلاس إنني أود الموت أحياناً. لقد قربنا المرض للغاية. بالنسبة إليّ، الأمر صعب. أُعطيت مضادات لمولّد النزوة، كما لو أنني أصبحت امرأة يائسة في الأربعين. أنا أحس بلفحات حر وبشرتي جافة جداً. لكن ذلك لم يغيّر البتة حب لاديسلاس. بالنسبة إلي، الأمر أصعب. رغبتي أقل. عندما أفكر في أحلام الشباب، والحب المجنون، أقول في نفسي إن كل ذلك هو التجربة الأبدية. لقد بذل لاديسلاس الكثير من الجهود؛ دعمني في أوقات يأسي. سمح لنا المرض بأن نتخطى نفسينا ونتماسك. أنا أفصح للاديسلاس بكل شيء تقريباً. قلت له إنني، في حال خارت قواي، لا أريد أن ألازم المنزل وأخضع للآخرين، أبداً. لا أريد أن يتحمل زوجي وأولادي سقوطي. أتمنى لو أطبَّب بالعلاجات المسكّنة.

- وهل هو يوافقك الرأي؟

كلا، هو يريد البقاء إلى جانبي. حتى إنني طلبت منه الزواج مجدداً. أجابني: استحالة. هو يؤمن بأن الحب يأتي مرة واحدة. طبعه عنيد جداً.

- كيف تفسرين فكرة أن حبكما يكبر على الرغم من المرض؟

عندما قابلت زوجي المستقبلي، كان قد غاص عميقاً في تفكيره الروحي، أما أنا فكنت لم أنضج بعد من هذه الناحية.

- هل كان هو من دلّك على درب الإيمان؟

نعم، ونحن في الواقع نتكلم كثيراً حول الموضوع مع أولادنا، وهم مؤمنون كثيراً. حتى إنني ذهبت للحجّ. اكتسبت سلاماً داخلياً لا يُعقل. قلّ قلقي، برغم أنني لست بحال جيدة. في العشرين من عمري، كنت أرى كوابيس، وأشعر بعدم الارتياح. الآن أحظى بلحظات حقيقية من السعادة. من دون الإيمان، لا أعلم كيف أستمر في العيش. عانيت لحظات عصيبة من الآلام، والقلق، بيد أنني حافظت على هدوئي. أحياناً أرتبك، لكنني لم أعد أحس بهذا الهلع الشنيع. الآن، أتقبل وضعي. حتى إنني عشت لحظات أدرك فيها العالم الثاني بالكامل. تلقيت رسائل قوية إلى درجة لم أستطع معها الشك. كان هناك صوت يقول لي: «تحلّي بالثقة». منذ ذلك اليوم، توقفت عن تناول المهدّئات. كان لاديسلاس يقول لي أحياناً: «لقد عقدت اتفاقاً مع الرب: قلتِ له إنك لن تموتي». إيماني لا يتزعزع! وزوجي صلب كالصخر! في خضم هذه التجارب الكبيرة، نحن على المستوى نفسه. أنا أعلم أنه لن يرحل، وأنه لن يقوم بما قد يجرحني.

من لا يصمدون

بعكس ما قد نتصوره، قد يفاقم مرض أحد الأبناء مصاعب الثنائي. في الواقع، يكفي أن يعتني أحد الشريكين أكثر من الآخر بالطفل المريض، ليحس الآخر بأنه منبوذ. أظهرت الإحصاءات أن القليلين جداً من الأزواج الذين يربون ولداً مصاباً بإعاقة، يصمدون. في قلب الثنائي عينه، لا يشكل المرض الخطير عامل تماسك. أصيبت سيفرين بداء السرطان، وقررت طلب الطلاق. كان السرطان بمثابة كاشف للأمر. تشكل الإعاقات أحياناً دافعاً إلى فسخ العلاقة. يعطي ريشارد، وهو طبيب في مستشفى للمصابين بحوادث، الشهادة الآتية: قابلت حالات كثيرة، حيث، بعد حادث ما، يجد أحد الشريكين نفسه على الكرسي بعد أن أصبح كسيحاً، أو يستيقظ من غيبوبة بطبع مختلف. هذه التجارب لا تبقى أبداً باردة: إما الاستمرار، وإما الانفصال! أغلبية الأزواج يفسخون العلاقة. فأحد الشريكين يعجز عن الاستمرار، ويهجر الآخر.

الحداد

وفاة ولد من أصعب التجارب. الإجهاض أو الموت الفوري أو حادث ما، قد يولد ألماً لا يوصف، ولا يمكن تخطيه، إلا إن خفّف الآخر من حدته وحاول تقاسمه. تكون المرأة في فترة معاناتها ضعيفة، وقد تحمل الحداد في قلبها لسنين إن لم تحس بالدعم والتعزية. خسر جيرار وفيفيان، المتزوجان منذ أربعين سنة، ابناً في الثانية والثلاثين لإصابته بسرطان في البنكرياس. تتكلم صديقتهما جويل عنهما: إن موت ابنهما قد شد أواصر علاقتهما. هما يعيشان على ذكرى دانيال. يفكران فيه طوال الوقت. لا يستطيعان الافتراق عن بعضهما البعض: دانيال وثاق حياتهما الثنائية.

إن وفاة أحد الوالدين تزعزع العلاقة الثنائية أيضاً. كلما كنا أقرب من والدينا، نشعر أقل بالذنب عند وفاة أحدهما. علينا ألا نقف أمام زيارات الشريك لوالديه، فيكون غمّه أسهل. حالات الحداد مليئة بالمشاعر، هي تمهد الطريق أحياناً، سواء أمام الانفصال أم الاتحاد.

كيف نخرج من حالة الحداد؟

العمل على الذات مخرج مناسب، لكنه يستغرق وقتاً طويلاً، وفي البداية، علينا أن نعيد بناء الثقة. إن كنا ما زلنا نحس بالصداقة تجاه الآخر، ينجح الأمر. علينا ألا ننسى أن من بين الأمور التي قد تخدعنا في الحياة الثنائية، الظن أن الحب لا يتبدل، وأن الآخر هنا ليغمرنا. في حال كان الخلاف مستوراً، أو كان عدم التواصل دائماً، علينا في البداية التطرق إلى مواضيع غير ذات أهمية كبيرة. شيئاً فشيئاً، إن خيّم جوٌّ من الارتياح، نتكلم على أنفسنا. علينا أن نغيّر نظرتنا، وأن نعيد النظر في اللحظات الجميلة الماضية من دون أن نخشى المستقبل. إن كنا صادقين، نجدْ نقاط تلاقٍ في العلاقة. المهم هو الكلمات التي نستخدمها لما نعيشه، والطريقة التي سنعيد تنظيم أنفسنا بها. علينا ألا نسمع نصائح «الأصدقاء الحميمين» الذين يدفعوننا إلى طلب الطلاق. فهم أحياناً يعكسون استياءهم الشخصي. كما علينا أن نحذر من المحامين الذين يحرضوننا على الشريك، ويعدوننا بمصدر غنى. وحذارِ من الوالدين اللذين قد يسعدان لاستعادة ابنهما/ابنتهما! الأصدقاء المقرّبون يحاولون تخفيف الحمل في الأوقات العصيبة. لقد ثبت أن الأزواج الذين يعاشرون القليل من الأصدقاء، ويلقون القليل

من الدعم، «هم من يصدرون أقسى الأحكام غير المرضية حول العلاقة»[247]. الوالدان أو الجدان أو الأعمام أو العمات قد يساعدون على ترسيخ «الاستقرار العاطفي».

الانطلاق من جديد

كيف للثنائي أن يخرج من أزمة ما، وأن يتفادى الانفصال؟ الذهاب في رحلة ما، تبديل المنزل، تغيير الديكور، تغيير العمل، وخصوصاً طريقة أخرى في التكلم تكون أصدق. ترغمنا الأزمة على تقبّل الآخر كما هو، وعلى استمداد القوى الكامنة فينا كي نثبت ذواتنا. حينها، نلاحظ أننا كلما اختلفنا، يكبر الاهتمام المتبادل، وتعرف الرغبة طريقها مجدداً نحو الطاقة الأولية. بالإجمال، بعد فترة من العزلة، يعيش الثنائي في استقلالية ذاتية أكبر، ويعرف كيف يجد نفسه بشكل أفضل. ويكمن أحد الحلول في عدم العيش في مكان واحد. فأن يعيش كل على حدة، أمر يصبح علامة إرادة للتجاذب مجدداً وتمهيد الطريق أمام انطلاقة الثنائي مجدداً. كل واحد يتنفس ويرى من جديد أصدقاء قديمين، ويحظى بوقت أكبر لشتى أنواع النشاطات. بالطبع، يفترض ذلك التدعم بقدرة على ذلك، لكن أحياناً، بعد أعوام من الحياة الثنائية، يكون هذا النمط من العيش طريقة كي يولي كل شريك فسحة حرية للآخر. «هو أن نعيش الواحد من دون الآخر، لكن أن نختار العيش معاً»[248]. من الممكن أن ينتقل أحد الشريكين إلى الريف، وأن يعيش الآخر في المدينة، أو قد يعمل أحدهما بعيداً ويعيش موقتاً في شقة منفصلة... وبدلاً من اللجوء إلى الخيانة، يعزز الابتعاد الموقت الرغبة. أن نحب طويلاً هو أن نتقبل حرية الآخر، وأن نمتنع عن مساعدته، «وأن نشجّع الاستقلال الذاتي واتخاذ المبادرات (...)، لا أن ندمر ذواتنا في التضحية بل الارتقاء في التفوق على الذات (...). في الأعماق، يكون الحب سخياً وأنانياً في الوقت نفسه، لأنه يُسعد الآخرين كما يسعدكم أنتم»[249].

مرت سيفيرين وزوجها مارك في أزمة خطرة في حياتهما الثنائية، عندما أفلست الشركة التي كان يديرها مارك. انفصلا مدة عامين، استطاعت خلالهما سيفيرين تدبّر أمرها. بعد انقضاء الأزمة، قررا تنظيم حياتهما بشكل آخر. اليوم، تترك سيفيرين المنزل الزوجي ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع لتعمل في ليون حيث تقطن في شقة. وهي تلتقي بمارك في نهاية الأسبوع في مارسيليا، وينشطان حركة التجاذب بينهما، وهذا ما نشّط حبهما.

- هل وقعت في حب مارك من النظرة الأولى؟

ما إن رأيته في سهرة من السهرات. المشكلة كانت أنني كنت حاملاً في شهري الثامن، ومتزوجة منذ ثلاث سنين. قلت له: «أمهلني الوقت كي أنجب طفلي، ومن ثم ألحق بك». قابلته مجدداً، وحصلت على الطلاق، ومن ثم تزوجنا عن حب. لم يوافق أحد على هذا الزواج، لا من جهة عائلتي، ولا من جهة عائلته. كان عازباً، ولديه ولدان، مثلي.

- كيف كانت اللحظات الأولى؟

صعبة جداً. كنت آمل أن أعيش لحظات رومانسية: لا يعيش الشريكان لبعضهما بوجود أربعة أولاد. لم أختلِ بزوجي في نهاية الأسبوع ولو مرة. لم أذهب معه مرة إلى الفندق: كان هناك دائماً مرتبة على الأرض ينام عليها ولدان معنا في الغرفة. لم نحظَ بحياة مفعمة بالحب.

- لكن، ماذا عن حياتكما الجنسية؟

علاقاتنا الجنسية ممتازة، وحياتنا الجنسية كذلك. رُزقنا بولدين. الحياة الجنسية هي الوحيدة التي نجحت بيننا. استمر الأمر ثمانية عشر عاماً! الرجل الذي يولي عمله أقصى الاهتمام يكون أقل هشاشة من غيره. ليس لديه الوقت ليحظى بعشيقة! لقد عشنا لبعضنا: ما من شيء كان أهم من بناء حياتنا. بعد ثمانية عشر عاماً من الزواج، أفلست شركة مارك، ما أفقده صوابه. انفصلنا لسنتين. في يوم، جاء ليراني فقال لي: «لا أدري ما أفعل من دونك». أجبته: «حالك مثل حالي». عاد، لكننا اتفقنا على ألا نعيش الحياة نفسها مجدداً. لإنجاح الزواج، لا يجب تقاسم كل شيء. في فترة انفصالنا، استشرنا طبيباً نفسانياً. بعدئذٍ عدنا معاً بشكل مختلف، وقررنا أن نبذل ما بوسعنا كي لا نفترق من جديد. لم أعد أنتظر مارك بهيئة ربة المنزل المرهقة. بنيت حياتي الخاصة، فرحت أخرج وحدي وأعمل في ليون، في حين قرر هو أن يبقى في مارسيليا طوال الأسبوع. لم نقطع الرابط الزوجي على الرغم من هذا الانفصال الموقت. فتمضية نهاية الأسبوع معاً ليست بالأمر السيئ، لأنه ما من أحد منا يعرف أن يعيش «حياة ثنائية». نحن نذهب إلى اللقاءات العائلية، ونادراً ما نتواجد وحدنا. إننا نعيش وفق نمط مناسب، وليس رومانسياً. إننا لا نتعلم هذا النمط في العيش في سن متأخرة. هو مثلي. حبنا قوي، يقاوِم ما لا يقاوَم، يَكسح ما لا يُكتسح. إننا أكيدان من أننا نستطيع الاعتماد على بعضنا البعض، خصوصاً في الأمور الخطرة. لكن، إن اكتأبت لا أفصح، وهو يعاملني بالمثل. إننا نبقى ثنائياً حقيقياً نعيش حياةً ثنائية. أنا لا أؤمن بالنزوات التي لا مستقبل لها. أظن أن الحياة الجنسية تصبح أقوى فأقوى بالوفاء والروتين، عكس ما قد يعتقده الآخرون. تقلّ بذلك المشاكل. ومن خلال تجاربنا في الحياة والعوائق التي نتخطاها، نحن نبقى كحصانين، نفهم بعضنا من إشارة، ونتكامل. لسنا بحاجة إلى التفسير عما نود التعبير عنه. كان خلافنا الزوجي الأساسي هو أمه. أما الآن، فقلّما يهمني الأمر. مع الوقت، تقلّ الخلافات. لقد وجدنا تسوية موقتة. لي أصدقائي الخاصون وحياتي المهنية الخاصة. أنا موجودة بحد ذاتي. المهم في الأمر هو تفادي الروتين والعيش لبعضنا البعض كل الوقت. نحن نختار نفسينا، ما من ضغوطات الآن. إننا مولعان بالسينما. نذهب كل مساء سبت لمشاهدة فيلم، ومن ثم نتناول العشاء في أحد المطاعم. نتحدث عن الفيلم ونتناقش أمور حياتنا بحماسة.

- ألا تخشين أن يخونك زوجك في غيابك؟

إلى حدّ ما. لم يقل أحدٌ لي مرة إنه رأى زوجي مع عشيقة ما. فذلك يُعرف! لدينا الكثير من الأصدقاء، غير المشتركين: أصدقاؤه لا يثيرون اهتمامي، وهو لا يحب أصدقائي. نرى أننا خُلقنا لبعضنا. لو لم أكن أتغيب عن المنزل لثلاث أو أربع مرات في الأسبوع مخلّفة ورائي القليل من الغموض... لما كان الوضع كما هو الآن. حسناً، الاستقلال ليس بالأمر السيئ!

التفاوض في «العقد» من جديد

يستوجب قرار العيش بانفصال التفاوض في العقد الأولي من جديد. خلال كافة مراحل الحياة، يُساق الثنائي إلى إعادة التسوية هذه. وبدلاً من الخضوع للأحداث، هو يستبقها ويسيطر عليها وفق تطورات كل شريك وخفايا الحياة. أرى من الضروري أن نعي هشاشة الرابط، وأن نولي أوقاتاً معينة، ليس فقط لوضع خطة مناسبة، بل للتساؤل حول ما علينا تعديله في نمط حياتنا. ومع الوقت، كل ما يميل إلى الاستقلال الذاتي ييسّر العلاقات بشكل متناقض: العطل المنفصلة، الخروج المنفرد، الانتماء إلى مجموعات متنوعة. يترك النموذج الانصهاري المكان لثنائي مفعم بالطاقة، ومنفتح ومنخرط أكثر في الواقع.

الوسائل الست الضرورية للخروج من العزلة

- التحرر من التأثير العائلي؛

- الحوار: التكلّم بصدق والبقاء متضامنين؛

- الاعتماد على تنظيم معيّن؛

- الانطلاق من جديد؛

- الاستقلال الذاتي؛

- التفاوض مجدداً في العقد.

يصبح الثنائي ما نحن عليه. هو يعكس قدرتنا على تخطي الأزمات وفترات العزلة. إننا نستنتج العلاقة، ولا نخضع لها. إن عرفنا كيف نتطور، تتطورْ حياتنا الثنائية معنا. وإن بحثنا عن التسوية، نجدْ دائماً فسحات من التفاهم. خلال تجارب المرض والحداد والفشل المهني، قد يتقوّى الثنائي ويتخطى نفسه ليصل إلى بُعدٍ روحي حقيقي.

الفصل العاشر

البقاء... على الرغم من كل شيء

في فيلم بيار غرانييه - ديفير، Le chat، بقي جان غابان وسيمون سينيوريه معاً متجاهلين بعضهما البعض، وكانت تلك حال إليزابيت تيلور وريتشارد بورتن في فيلم Qui a peur de Virginia Woolf. كل واحد بحاجة إلى الآخر، كمرآة لشرّه الخاص. كل منهما غير قادر على الاستغناء عن فريسته. في الحب المجنون والبغض المكونات عينها: الحاجة إلى امتلاك الآخر حتى تدميره. اليوم، على الرغم من الميل إلى الفردانية بشكل حازم، يبقى الكثير من الأزواج معاً لأسباب غير الحب: الارتباطات المالية، الأولاد، المحيط الاجتماعي، العمل، العصاب، العادة، المازوشية السادية، التضحية، الواجب... الشريكان مرتبطان ببعضهما البعض، كل منهما يجرح الآخر، ويتحاسدان، ويسيئان معاملة بعضهما البعض... لكنهما عاجزان عن الانفصال. لماذا؟ «الأسباب التي تدفع الشريكين إلى البقاء معاً، هي أحياناً سلبية: لعدم إلحاق الأذى بالأولاد أو عدم إلحاق الأذى بنفسيهما»[250]. ونستشهد في هذا الصدد بتعريف لروبير نوبرغر الذي يعتبر أن: الثنائي عبارة عن شخصين لا يجدان أسباباً كافية لفسخ العلاقة بينهما. ويضيف: عندما درّست في كلية بروكسيل، اغتظت قليلاً لأن معدل الطلاق في بروكسيل كان أعلى من المعدل في باريس. سألت زملائي عن السبب، فأجابوني معاً: «نحن لا نعاني مشكلة السكن!». ومن بين الأسباب السيئة للتواجد معاً، الواجب والعقد والكبت والغيظ. لنحاول توضيح هذه الروابط الخاصة، وهذه العقد المبهمة، المنتشرة كثيراً. أما الأسباب المألوفة التي غالباً ما نجدها، فتجتمع في: الأولاد زائداً الأمان المادي، زائداً الروتين. كل من الشريكين ينتمي إلى المحيط الاجتماعي نفسه، ويتمسك بالآخر وبعائلته، للحفاظ على المنزل ونمط العيش، وإدارة هذه الممتلكات الزراعية أو ذلك المقهى أو ذاك المتجر، أو حتى للنجاح سياسياً. هما يشكلان فريقاً ويعملان معاً ويضعان لهما الأهداف عينها. يبقيان تحت سقف واحد، أو في مسكنين منفصلين، بحسب ما تسمح الماديات، من دون ممارسة الحب. على أي حال، وبحسب فيليب برونو، «نادرون هم الأزواج الذين لا يعيشون معاً من أجل فكرة الزواج الأحادي بحد ذاتها، المرتكزة على التعاضد، وبالتالي التفهم والحصول على فائدة ما في العيش معاً. نحن لا نختار الشريك صِدفة»[251].

لمَ البقاء معاً؟

الأزواج الذين يبقون معاً، يظهرون أحياناً بمظهر لائق. من الخارج، لا يلاحظ أحد المأساة في الداخل. حتى أن الشريكين يعتادان على الوضع في النهاية: «كل واحد يعرف أن الآخر يبتعد أكثر فأكثر، ولا يفهم السبب. يتوصلان إلى خلاصة أن الزواج يتمّ بهذه الطريقة ويرفضان التكلم حول الموضوع مع أصدقائهما، فيبينان صورة الثنائي السعيد، صورة شخصين يتعاضدان... المهم والضروري والقطعي هو التصرف كما لو أن شيئاً لم يكن، فبرأيهم لقد فات الأوان على التغيّر»[252].

الأولاد

لم يعودا حبيبين، بل صارا والدين فقط. التقيا في ريعان الشباب أو العكس، ويتشاركان تربية أولادهما. بالنسبة إليهما، المهم هو إسعاد الأولاد. وسواء أكانا والدين صالحين أم لا، فهما شريكان. أفصحت لي امرأة جميلة، وهي مديرة لسلسلة من المتاجر، أنها لا تقيم أي علاقة جنسية مع زوجها، وأنها تعيش حياة مزدوجة. هي تبقى مع «والد ابنتها» من أجل الطفلة فقط. في برنامج جان لوك ديلارو، Faut-il tout faire pour sauver le couple?، يعطي بول وهانرييت، المتزوجان منذ سبعة وعشرين عاماً، ولديهما ستة أولاد، شهادتهما. هما يشكلان ثنائياً «متفجراً». لا يمر عليهما يوم من دون خيانة زوجية. لكل منهما غرفته. لماذا؟ لأنه يشخر وهي تشاهد التلفاز. هي لا تدعه يدخل غرفتها. يقولان: كي تدوم الحياة الثنائية، على الشريكين أن يتشاجرا. هما يتواصلان أحياناً من خلال رسائل مكتوبة على ورق. كانت فكرة الانفصال تخطر في بال هانرييت أحياناً، بيد أنها تسلّم بأنها لا تستطيع العيش وحدها. هي بحاجة إلى عائلتها لتشعر بأنها على قيد الحياة. هي تبقى كي لا يتعكر الجو العائلي، حتى ولو كان محزناً من وقت إلى آخر. هي لا تريد أن تضع حداً لذلك. ما الذي يُبقي هذين الشريكين من دون انفصال؟ هل هو التشارك؟ كلا، هو واقع كون الزوجة أماً والزوج أباً. وبرغم ذلك، يبدو أنها تربي وحدها أولادها، فبول لا يساعدها البتة. أربع ساعات يومياً في المطبخ، وساعتان من الغسيل! «أودّ لو يساعدني بول، لكنه يعمل في المرأب». يحس الأولاد بهذا التوتر بين والديهم، ويضيفون: إن انفصلا فسوف يضجران. فالمشاجرة هي طريقتهما في التواصل. في نهاية البرنامج، تكاتف بول وهانرييت الأيدي وقالا: لقد استمر زواجنا سبعة وعشرين عاماً، ويمكنه أن يعمّر بعد عشرين سنة على الأقل!

الظروف المادية

قد يبقى الشريكان معاً لأنهما، بكل بساطة، لا يستطيعان تأمين مسكنين، أو هناك من يبقون معاً من أجل التخفيف في الأعباء الاقتصادية. وفي هذه الحال، يرتبط الحب أكثر بالحسابات والديون لا بالتضحية بالذات. لا بد من أن شيئاً من المنفعة يخيّم على جو الثنائي الذي يعمّر طويلاً، لكن عندما نقوم بحساباتنا، يصبح القلب مجرد درج في الصندوق! أحياناً، لا نفصح بما لدينا، وتكون

الصداقة مهيمنة: نسوّي وضعنا، ونجد فائدة لنا في ذلك. بالنسبة إلى الأزواج الذين يشهدون مصاعب ويبقون معاً، تبقى نفحة من الحنان بين الشريكين أحياناً. يحمل البحث المقتصر على الأمان في أساسه، إبادة للرغبة. وكي تولد الرغبة من جديد، على كل واحد أن يحاول الاستقلال مادياً، فذلك يوفر إمكانية للتخلي عن كل شيء...

لسيسيل ونيكولا أربعة أولاد. يعيش نيكولا، بفضل وضعه المادي المريح، في منزل في سانليس، وهو في تقاعد مبستر، أما زوجته فتسكن في شقة في باريس. هما لا يمارسان الحب، لكنهما متحابان ويجتمعان في نهاية الأسبوع مع الأولاد. هل حدث أي انشقاق عن الدرب الزوجية؟ رُزق نيكولا بطفل من امرأة في المغرب حيث كان يعمل، وكان لسيسيل عشيق. منذ ذلك الحين، تكرّس ذاتها لولعها بالرسم، وتعلم أنها ستشيخ مع نيكولا.

«عندما قابلتُ نيكولا، وجدتُه مختلفاً عن غيره: فناناً، يتمتع بحس الإنسانية. هو لا يشبه أحداً. حدثت الأمور بسرعة كبيرة: دامت خطوبتنا ثمانية أشهر، من ثم تزوجنا. لم نكن نعيش حينها معاً. لطالما شعرت بأنني أعرفه. ثمة أمر عميق جداً يربط بيننا. إننا نحترم بعضنا البعض، ووضعنا لنفسينا طريقة جديدة في العيش. إن نيكولا بمثابة أخ لي بعض الشيء. لم نعش أبداً معاً. كنت أذهب إلى باريس خلال الأسبوع لأتابع دراستي في تاريخ الفن، فأسكن عند والدتي، أما هو فكان يعيش في سانليس. وعندما حملت، اضطررت إلى النوم طوال الوقت. لطالما كان نمط حياتنا على هذا النحو: معاً وليس معاً في الوقت عينه. أظن أن الثنائي يعيش دائماً كما كان في بداياته. كان نيكولا يُطمئنني، ويؤمن لي التوازن ويحبني، فلم أشعر بالقلق. كانت كل ولادة صعبة. يعيش نيكولا في الوقت الحاضر، لا في الإغراء. هو حقاً يحب الآخر. هو طبيعي وسخي، حتى لو كان طبعه صعباً بالنسبة إلى امرأة لأنه يعيش في عالمه الخاص. عندما سافر إلى المغرب، علمت أنه عاشر مغربية ورُزق بطفل منها. لا تزعجني فكرة أن يعيش نزوات ما، لكن هذا الطفل غيّر الوضع بأكمله. كانت هذه المرأة تريد المال. حينها، كان لدي عشيق، وكان نيكولا يشعر بالذنب. لطالما تصارحنا بكافة الأمور، لم أكن أحس بالغيرة، لكنني لم أكن أتحمل فكرة أن يعطيها المال وأن يعيش نصف وقته معها. بعد أربع سنين، وضعت النقاط على الحروف، قلت له: إما ترحل للعيش معها، وإما لا تراها مجدداً! منذ خمس سنين، لم يعد إلى المغرب. اليوم، أنا وفية له، ولا أرغب في عيش أي نزوة. نيكولا أبٌ صالح. هو يعتني بعائلتنا ويدعمنا من الناحية المالية. إننا نمضي نهاية الأسبوع معاً. نحن نشكل عائلة. انطفأت شرارة الرغبة بيننا، لكن الحب والحنان والثقة أحاسيس لا تزال قائمة. يدعمني نيكولا وهو معجب بمعارضي. هو أكيد من أننا لو لم نعش في مسكنين منفصلين، ولو لم تكن أوضاعنا المادية جيدة، لما تمكنّا من إيجاد هذا التوازن. يضع لي نيكولا في حسابي ما يكفيني لأعيش. فبفضله، أنا أحقق ذاتي. بعد ثلاثين عاماً من الزواج، من المستحيل أن نحظى بحياة جنسية حقيقية: أنا افتقرت إليها. هل أطلب الطلاق؟ ذلك أشبه بالانفصال عن ابني، أو كلبي! لا أتخيل أبداً أنني أبني حياة جديدة مع رجل آخر! عندما يرمقني نيكولا بنظرة حب، أعلم أنني أستطيع أن أفصح له بكل شيء، وهو كذلك. يتصل بي ثلاث مرات في اليوم. لقد استعدنا ثقتنا ببعضنا البعض».

التضحية وهمّ التوافق

من الممكن أن يستمر الزواج جراء الاعتقادات الدينية والمبادئ الأخلاقية. بالنسبة إلى هذا النوع من الثنائي، الزواج أبدي، مهما حصل. حتى لو أحبطا بعضهما البعض إلى حدّ كبير، يبقيان معاً، ويبحثان من دون شك عن شكل من عدم الرضا لاشعورياً. تاريخهما العائلي يوضح سلوكهما: والدان يتقيدان بالمبادئ بصرامة، تربية مقسِرة، نقص ما... هما يشكوان إلى الله معاناتهما، ويرفض كل منهما جرح الآخر، وفسخ العلاقة، ويحسان بأنهما مسؤولان عن سعادة أولادهما، ويوليان أهمية قصوى لصورتهما في المجتمع. كانت جدتي الألزاسية من هؤلاء النساء اللواتي يتحملن زوجاً منحصراً بطيبة خاطر، وتذهب للمشاركة في قداس كل صباح. هل كانت سعيدة؟ حينها، لم يكن الطلاق محبَّذاً. وحتى إنه كذلك في أيامنا هذه. إننا نفضل أحياناً أن نحقّن العذاب في قلوبنا بدلاً من أن نفسخ العلاقة. تصبح التضحية في سبيل الثنائي شكلاً من الابتزاز. «أنا أتنازل عن ذاتي وعن لذتي، وبالتالي أنت مَدينٌ لي. أنت لا تعي ما أقوم به لأجلك...». يشعر الآخر في هذه الحال بأنه سجين وضحية تنكّد عليه. فالضغينة والمؤاخذات تحبس الثنائي داخل سجن.

تزوجت ناتالي بستيفان منذ عشرين سنة. وهما قد رُزقا بثلاثة أولاد. هما ثنائي ينتمي إلى الطبقة الوسطى الميسورة، ويبدو سعيداً، لكن وراء هذا المظهر الاجتماعي تختفي خلافات يتعذر تسويتها. تحس ناتالي بأنها تضحي بذاتها: فتشددها الديني البروتستاني منعها من هجر ستيفان. بقيت وفية له حتى لو لم يلمسها.

- كيف تقابلتما؟

كنت أعمل ملحقة صحافية، وكان ستيفان يدير دار نشر صغيرة كان قد امتلكها مع شريك. وكان مدير شقتي قد أجّرهما شقة. كنا نلتقي في الرواق. وذات مرة، دعتنا صديقة مشتركة بيننا إلى الغداء. بدا لي ستيفان خفيف الروح وجذاباً، لكنني لم أقع في غرامه من النظرة الأولى. بعد أسبوع، دعانا شريك ستيفان إلى العشاء. وفي هذا المساء، أبدى لي إعجابه: كان ظريفاً ويرمقني بنظرات من الإعجاب. حينها، كنت أعيش حالة فشل عاطفي وحب عذّبني. أشعرني ستيفان بالانتعاش والارتياح. هكذا بدأت قصتنا: عكس ما هو رغبة. هو فهم أن الأمور لم تكن بهذه السهولة بالنسبة إليّ، وأنني لست من النوع الذي سيرتمي بين ذراعيه. رحت أدرس كافة ميزاته: الإصغاء، الرقة. قلت في نفسي: هذا الرجل لا يشبه غيره من الرجال. وشيئاً فشيئاً، غمرتني السعادة وسلام روحي، وهما أمران كنت أحتاج إليهما للغاية، ومن ثم تحوّلا إلى شعور من الحب. تواعدنا مدة ثمانية عشر شهراً، كنا حبيبين، هذا جميل. في وقت من الأوقات، قلت في نفسي: عليّ أن أحرّك شيئاً في حياتي. كنت أرغب في الزواج كي أُرزق بأولاد. قلت له مرة حين كنت في الخامسة والعشرين من عمري: «خيرٌ لنا أن نفصح عن نوايانا الخاصة». فأجابني: «أجل، علينا التفكير فيها». لم أشأ أن أُرغمه على اتخاذ أي خطوة: لكنه لم يقم بأي خطوة بعد هذه المحادثة. بعد خمسة أشهر، حسمت أمري فقلت له: «إن كنت غير مستعد للخطوة الأكبر، فمن الأفضل لنا أن ننفصل». صعب عليه خوض قرار كهذا. كان في السادسة والثلاثين في ذلك الحين. بعد خمسة عشر يوماً، حسمت الأمر معه: «لا أريد أن نتقابل مجدداً. أظن أنك غير مستعد بعد، وأنا بدأت أحس ببرود في مشاعري». انتظرت أن يعلن عما في قلبه. في اليوم التالي، دعاني إلى رحلة صغيرة. اصطحبني إلى مونبولييه، وجاء بوالديه وبوالديّ أيضاً. (هنا تضحك) هناك، أمام البحر، على الشرفة، قال لي: «هل تقبلين الزواج بي على الرغم من ترددي؟». كان الأمر بغاية الرزانة، من دون جنون. كنت في حال جيدة، فأنا لم أمرّ إلا

بتجارب مؤلمة. كان رائعاً، بأناقته الخدّاعة. كنت مولعة به. تزوجنا بسرعة كبيرة بيد أنه لم يلمسني في شهر العسل. قلت له: «أنا لم أعقد معك قران الزواج لأعيش كما لو كنت راهبة». فقرار الزواج الذي صعب عليه اتخاذه راح يُرجع إلى ذهنه حالات القلق الحياتية. كان الأمر رهيباً! قلت في نفسي: «لقد أخطأت، هو نجح في إخفاء كافة هذه المشاكل، والآن، إذ تزوجنا، ها هي تبرز من جديد». كان واهن القوى، لا يتكلم خلال العشاء. كانت أوضاعه المهنية سيئة. كنت أرغمه على الخروج من ذاته، لكن الأمر كان صعباً. في السابعة والعشرين، كنت أعجز عن حضن رجل في الثامنة والثلاثين. كانت حياتي تنهار. كنت أقتدي بمثل والديّ، فهما ثنائي سعيد تغمره حرارة الحب. كانت البهجة دليلي في الطفولة، حتى لو كانت أمي، البروتستانية، لا تمنحني سوى القليل من العاطفة. أحسست مع ستيفان بأنني أُدفن حية. ما كان يشعر بالرغبة أبداً: أو في كل ستة أشهر مرة! في يوم ما، قلت له: «أنا زهرة من دون ماء، بدأت أذبل». طمأنني، لكن شيئاً لم يتغير. كنت أعيش مع هذا الطفل الوحيد المنزوي. ها قد مضت عشرون سنة، وها إنني أُرزق بطفل وراء طفل وأنا لا أزال أقاوم. منحت أولادي كل الحب الذي حُرمت منه. قررت الاستمرار بزواجي لمجرد فكرة الثنائي الرائع الذي كان يشكله والداي. وأيضاً، لأن أختيَّ قد طُلقتا. لم أشأ الاستسلام. كنت مستعدة لأشق الجبال من أجله، ومن أجلنا. بعد أن وُلد ابني، مررت في فترة انهيار عصبي. كنت أقول في نفسي: أنا أضيف طفلاً آخر داخل هذا الثنائي المتزعزع الأساسات. حسّنت أحوالي مجدداً، لكنني وصلت إلى مرحلة توقفت فيها عن حب ستيفان. كنت محبطة للغاية، يائسة لرؤية أن هذا الثنائي يشبه كل شيء إلا الثنائي. كان ستيفان يمر في حالات من الاكتئاب، ويفصح لي باستمرار عن ذكريات من طفولته. أمضيت حياتي أعالج مشاكله. سلبني كل شيء... ولم يمنحني شيئاً. كنت أجني القليل جداً من المال، وهو لم يكن يعمل. كنت أشعر بأنني وحيدة. كنا نعيش بمستوى مادي يفوق قدراتنا الفعلية لنخدع الآخرين: كان عاجزاً عن العمل. لطالما نمت باكية في كل عيد زواج لنا. في النهاية، تساءلت إن كنت أنا المخطئة، فلمَ أغمر ستيفان إلى هذا الحد؟ اعتبرت أنني في حال انفصلت عن ستيفان، ستتضاعف مشاكلي. لكنت وجدت نفسي من دون مال، وبراتب غير كافٍ، وطفلين صغيرين. بقيت كما أنا، لكن جزءاً مني قد يبس. مات طفلي الرابع بعد أن وُلد قبل أوانه. في هذه المرحلة، عشت فترة شنيعة من الحسرة. صببت كل حزني، لكن إيماني قد خلّصني. خضع ستيفان لعلاج بطلب مني، ونجح في ذلك. لم أخنه يوماً. أظن أن وهنه الجسدي قد نتج من مشاكل كانت تلتهم كيانه، كمثل تأثير والدته. كنت أعي أنني أُدفن حية، لكنني أردت أن أفسر لأولادي لاحقاً لماذا صمدت. هم أولويتي في الحياة. لقد ازددت إيماناً، فذلك قد أضاء بصيرتي حول قيمة الحياة ومعني المشاركة. لقد تشرّبت الدين المسيحي جيداً. صحيحٌ أن زوجي قد أمّن لي حياة ميسرة من الناحية المادية، لمَ الكذب؟ لقد حظيت بأمان مادي معه. حتى بالنسبة إلى الأمور الخطرة والقاسية، كان كل شيء واضحاً بيننا. لم استطع العيش على نحو مختلف. لم يكن العلاج إعجازياً، فهو لم يؤدّ إلى تحويل جذري. ما من مرة كانت حياتنا الجنسية عادية. كنت أعزّي نفسي متذكرة حياتي قبلاً. بعد ذلك، عشنا في عزلة. حتى إنني لم أعد أشعر بالرغبة مع ستيفان. لحسن الحظ، تمكنت من البوح بما في قلبي لصديقة. فذلك جنّبني أن أصبح امرأة ثائرة. أنا أخاف الفشل إلى حد الهلع. أظن أنه عليّ أيضاً الخضوع للعلاج. كانت مبادئي تسيطر عليّ. إن وقعت في الحب، أعتقدْ أنني أستطيع هجر ستيفان. عليّ أولاً أن أجد لي عملاً. بالمال الذي أجنيه، يمكنني شراء شقة باسمي، حينها أستطيع تأجير الشقة والحصول على مورد للمال. إنني مرتبطة به كثيراً من الناحية المادية. أنا فريسة بالقوة لرجل يريد بناء حياته من جديد. أخاف أن أعيش شيخوخة مأساوية، وأن أقول لنفسي في خريف

حياتي: فاتني كل شيء، كنت تعيسة في حياتي الثنائية على الرغم من أولادي. في ذكرى زواجنا الخامسة عشرة، رفضت هديته. قلت له: «سئمت من أن تشفي غلّتك بتضحياتي، عليك منحي حريتي». ركع أمامي وراح يبكي فرضخت. وبقيت. أشعر بأنني أعيش مع صديق أو حتى مع أخ. هو يساعدني في المنزل. ما زالت الرغبة موجودة لأننا نمارس الحب أحياناً. ما أعطاني حافزاً للمتابعة هو الأمل. وبرغم ذلك، كان عليّ أن أنتحر أو أرمي نفسي من الطبقة الخامسة. لحسن الحظ، رغبتي في العيش قوية. ذنب زوجي أنه ورث من والدته مشاكله. هو يميل إلى إعطاء الأعذار لكل الأمور، وإلقاء المسؤولية على أمه. إنه يعيش في الفشل. نواياه صافية، لكنها ليست سوى ضعف إرادة. عندما يزول الإعجاب، تزول معه الرغبة. أنا أنتظر معجزة ما... لقد شكلنا والدين صالحين، وذلك جمعنا. أولادنا أنقذونا، وحتى لو أنهم أحسوا بأنني توقفت عن حب والدهم. أنا لا أقوم الآن سوى بواجبي!

على الرغم من الحياة المزدوجة...

قد يحدث أن يستمر أحد الشريكين في الكذب على الآخر لأعوام، سواء أليقيم علاقة أخرى أم ليدير أموالاً غير مباح بها. لنأخذ مثلاً مسألة رومان: هذا الرجل الذي أخفى عن عائلته فراغ حياته، وجعل أقرباءه يظنون أنه يحتفظ بأموالهم في سويسرا. أما أنطوان، فأخفى عن زوجته ديوناً متراكمة طائلة، إلى أن اضطر يوماً إلى الاعتراف بذنبه. لم يستطع الثنائي الصمود في وجه الوضع. بالنسبة إلى جان وفرانسوا، المتزوجين منذ عشرين سنة، اكتشفت جان أن زوجها يقيم علاقة مع أخرى، وهي قلقة في هذا الشأن: إذ تخشى أن يهجرها فرانسوا بعد رحيل الأولاد ليعيش مع المرأة الأخرى. كيف وصلا إلى هذه المرحلة؟ كيف عاشت جان هذه السنين كلها من دون أن يتسرب الخبر، لا أمام الأولاد ولا حتى أمام المجتمع؟

تقول جان: كنت في السادسة عشرة من عمري حين دُعينا إلى حفل زفاف. كان متزوجاً. وقع في حبي، انتظر بعض الوقت ثم طلب الطلاق. كنت قد بلغت السادسة والعشرين عندما تزوجنا. كان وسيماً وكريماً ولطيفاً. كنت أنا مدرّسة تاريخ. دفعتني والدتي إلى الزواج به. بسرعة كبيرة، أصبح الانسجام الجنسي مشكلة في حين أننا كنا نتشارك في العديد من الأمور والأصدقاء. كان يعتبرني «شيئاً» يملكه. كان مثلاً يعنّفني، ثم بعد قليل يمارس الحب معي، حتى من دون أي تحضير نفسي، كأنه يقول لي: «عندما أريد، أنت أيضاً تريدين غصباً عنك». بسرعة، شعرت بأنني أصبحت «شيئاً». كنت أشعر بأنني أُغتصب بكل معنى الكلمة. عندما أبصر طفلنا الثاني النور، قلت له: «لا أريد أن نمارس الحب بعد الآن!». كنت حينها قد بلغت الثلاثين. فكانت المأساة الكبيرة: طلب مني البقاء معه شرط ألا أعاتبه إن أقام علاقات مع أخريات. ظننت أن هذه الأمور لا تهمّ الرجال. لم أشعر بالغيرة. لم أحس بأنه زير نساء، بل رجل امرأة واحدة. بعد سنة، في حين كان تعيساً جداً، التقى بامرأة وراح يعيش حياة مزدوجة. باح لي بالأمر، فكان أمامي: إما فسخ العلاقة وإما البقاء. بقيت. التقيت بالمرأة الأخرى. كانت والدة صديقة ابني، وهي امرأة أعمال لامعة. هو لا يزال معها، بانتظار أن يرحل الأولاد من المنزل. لست أدري ما الذي سيحصل... أنا لا أشعر بالاستقرار في داخلي. كان على فرانسوا منحي حريتي في الثلاثين. لكنت حينها تمكنت من بناء حياتي من جديد. هو الآن يمضي نصف أوقاته معها. الأولاد لا يعرفون شيئاً عن الموضوع. هو مهووس جنسياً بهذه المرأة، وأنا أخشى أن تطلب يوماً إعلان العلاقة بينهما. في الوقت الراهن، هي تهتم لعملها، وليس

لها حياة اجتماعية معه. أرفض أن أكون المؤتمنة على أسرار زوجي. كيف ستسير الأمور عند رحيل الأولاد؟ برأيي، سوف يبني حياته معها: فهما أصلاً يتقاسمان شقة. أثرت خلافاً معه، لكنه ألقى اللوم عليّ، معتبراً أنه لَما اضطر إلى إقامة علاقة مع أخرى لو كانت حياتنا الجنسية منسجمة. هذا ليس بعدل: أنا لم أخنه يوماً. كنت أنطلق من مبدأ أن الأمر خطير. أردت حماية قلب العائلة. وعلى الرغم من ذلك كله، كان والداً صالحاً للغاية. لقد اتحدنا حول الأولاد، وكانت أفكارنا حول طريقة تربيتهم متشابهة. نحن نتكلم ونتسلى كثيراً. إننا صديقان حميمان. فهو يطلب مني أحياناً إسداءه النصائح. أنا أعلم بكل أموره، لكنني أشعر بقلق: لا أرغب في أن يتخلى عني. هو يتبع عشيقته حتى في رحلاتها إلى الخارج. يقسّم وقته بينها وبيننا. هي تمسك حتى ببعض الحسابات، كما أنها تريد طفلاً منه... لا أريد أن أترك مكاني لأخرى. أنا أعمل على نشر السعادة داخل المنزل كي يشعر هو بالسعادة ويرغب في البقاء. المال يربطنا، لكنني لم أعد أجني فلساً. أنا لا أتحكم في مصاريف زوجي. لا أزال في مكاني، وسوف أنتظر بصبر.

ثقل المظاهر

سواء في الطبقة الوسطى الميسرة أو العاملة، الانتماء الاجتماعي ضروري، ويفترض إيلاء أهمية للمظاهر. لا يجد الثنائي، بصفته ثنائياً، الصعوبة نفسها في الانخراط في المجتمع، مقارنة مع العازبين، المشبوهين بعض الشيء في أيامنا هذه، خصوصاً عندما يشيخون. إن مظهر الثنائي المنسجم المعمّر يطمئن حتى لو لم يرتكز هذا المظهر على شيء. تختلف الرموز بين التمثيل العائلي للطبقة الميسورة والطبقة الشعبية. فأي محامٍ لامع أو ممثل قد يُظهر زوجته للمجتمع، أما مجرد موظف صغير فيخرج مع زوجته، أو بكل بساطة يعلن أنه متزوج. في الأوساط الشعبية، يفقد الشخص اعتباره عندما يكون وحيداً. وفي العائلات المسلمة، تشكل العائلة جماعة. وفكرة الانفصال غير واردة: يا للعار!

في برنامج جان لوك ديلارو، تعطي أغات شهادة. فهي واظبت على إنقاذ زواجها مدة ثماني سنين. هي من الطبقة الميسورة، حيث ينظرون إلى الطلاق نظرة سيئة، فيبدأون بالثرثرة وإطلاق الأحكام. في يوم زواجها، شعرت بأنها ترتكب حماقة. كان عليها فسخ خطوبتها بيد أن كان ضغط عائلتها عليها خانقاً. كان خطيبها أول رجل في حياتها. تقول: كنت أظن أن الأمور سوف تجري على ما يرام، وأنني سأكون امرأة متزوجة. بسرعة، انقطع التواصل. لم تتجرأ على البوح لوالديها عما يحدث طوال ثمانية أعوام. هي لا ترى سوى أصدقاء زوجها، وتشعر بالذنب، وتظن أنها السبب في كل المشاكل. وأضافت: اتخذ جسمي قراراً. لقد أصبحت خافية. كانت مسألة استمرار في العيش! عندما أبلغت والديها قرارها بفسخ العلاقة، صرخا: هذا عار! الطلاق غير مسموح به في وسطنا! في النهاية، حصلت على الطلاق، لكن لولا مرضها لكانت قد بقيت في كنف زواجها.

الثنائي الذي يولي المظاهر أهمية كبيرة يعيش أحياناً حالات من الخيانة. يملك جان لويس صالة عرض، وهو يخون زوجته وسعيد بالأمر، لكنه لا يمنحها الطلاق لأنه معروف جداً في

وسطه الاجتماعي، ووجود زوجته ضروري بالنسبة إليه من خلال الروابط المهنية التي يتشاركان فيها.

الروتين

Comme d'habitude، أغنية سمعناها بصوت كلود فرانسوا...

هما لا يؤديان أي دور اجتماعي، لكنهما سعيدان معاً، كأي صديقين يتشاركان في المسكن عينه، يلتقيان للغداء، ويمضيان العطل، ويمارسان الرياضة، ويذهبان إلى السينما. يتدبران أمرهما... كأنهما أخ وأخت. هنا أيضاً، كل منهما يجد فائدة له! لا يستطيع داميان وفاليري العيش من دون بعضهما البعض. هما يشغلان المنزل نفسه، لكن ليس الغرفة عينها. ما الذي حصل؟ شيئاً فشيئاً، انقطع الرابط بينهما. حينها، ساءت الحياة الجنسية بينهما. لكنهما في النهاية اتفقا على البقاء صديقين، وهما أيضاً متفقان على الصعيد المهني. انتهت قصة حبهما بسلاسة، لكن الروتين لا يزال قائماً. في حال دخل داميان المنزل مع صديقة، تغمض فاليري عينيها. لقد عقدا اتفاقاً، يصبح بموجبه كل منهما آلة. كل واحد موجود وغائب في الوقت نفسه. وهذا ما يطلق عليه ماركس اسم «الوجود الإجباري» أو «البضاعة»، بلا أدنى شعور ولا أقل مفاجأة، كأي إنسان آلي.

عصابان متكاملان

رجل خاضع، امرأة مسيطرة. امرأة خاملة، رجل مفعم بالحركة. امرأة تثور غضباً بسرعة، رجل هادئ... قد يتوقفان عن التلامس، لكن ما من أحد منهما يستطيع التخلي عن «نصفه»، هذا الآخر الذي يغذي عصابه. في ثنائي المسيطر - الخاضع، يريد المسيطر أن يتحكم في كافة أفكار الخاضع وتصرفاته. هو بحاجة إلى كبش محرقة كي يستمر الثنائي، بأي ثمن كان!

تتقبل إيزابيل أن يسيء زوجها معاملتها ويضربها. هي تبقى، آملة أن يتحسن. عندما يقترن الحب بالألم، يعتادان على الشر ويدمنان عليه، كأنه نوع من المخدرات. «إنها اللذة التي يولّدها خوف الآخر ما يجعل نزاعات التسلط هذه لا تنتهي»[253]. العنف الزوجي منتشر جداً في فرنسا، وهو لا يُحتمَل. فنجد من بين كل عشر نساء، امرأة تقع ضحية هذا العنف. خصصت تينا كيفر برنامجاً تلفزيونيًّا لهذا الموضوع. وقد أعطت امرأة خاضعة لعنف زوجها، شهادتها، لكن كم من النساء لا يجرؤن على البوح بالأمر؟ أفصحت فرانسين مرة، وهي سكرتيرة متزوجة بجزائري، لربة عملها جولييت بما يلي: «سيدتي، لقد أراد زوجي قتلي. هو يظن أنني أخونه. إنه يدقق في عدّاد سيارتي. في الليلة الماضية، راح يضربني بأستون بندقية. كان يريدني أن أفصح أين كنت: كان الفرق في العداد خمسة كيلومترات. لا أستطيع هجره، فهو قال لي إنه سوف يعثر على مكاني». عندما حصلَت في النهاية على الطلاق، ذهب إليها وحاول قتلها. لحسن الحظ، لم تمسّ الشفرة الشريان السباتي: كان شكلها كما لو أنها خضعت لعملية في الغدّة. وجدت فرانسين مرتمية على الأرض تحاول تنظيفها من بقع الدم. سُجن زوجها، لكنها تخاف أن ينتقم منها عند خروجه من

الحبس. لا يتم التطرق كثيراً إلى موضوع العنف الشفهي والتعذيب المعنوي، وهو كارثة يجب منعها بصرامة. يسعى سيرج إيفيز إلى «جعل الأشخاص يشعرون بالمسؤولية تجاه روابطهم وماضيهم... أن نعتبر أنفسنا ضحايا، هو أن نسلّم بأن لا تأثير لنا في حياتنا الخاصة»[254]. في بعض الحالات، لا تكون الضحية مدعّمة بالسلاح المناسب لتدافع عن نفسها، أو تخضع للعلاج. أمضت فاليري حياتها تتعذّب. لم يتوقف زوجها عن خيانتها وعن شتمها. هو لم يمارس معها الحب منذ ثمانية عشر عاماً، لكنها تأمل أن يرغب فيها أحد يوماً ما. أرادت مرة الانتحار. فقدت ثقتها بنفسها، وأهملت ذاتها، فسمنت. ينقصها الحنان، لا الجنس. وهي تقول: لكثرة التكرار، نعتاد على الأمر في النهاية. من قد يرغب فيَّ الآن؟ الحب يخيفني.

الروابط المهنية

لقد اشتريا مقهًى معاً. هما يتشاجران في بعض الأحيان، لكنهما متقيدان بالقروض والزبائن والموظفين. قد يكون هو مدير شركة ما، وهي مساعدته. تنظم أعماله، وتهتم لكافة الأمور. لا يستطيعان التخلي عن بعضهما. وبرغم ذلك، يتعلق الأمر بشركة أكثر مما هو ثنائي. يزداد عدد الأزواج الذين يتشكلون في المحيط المهني. فكل شريكين منهم يزاولان مهنتهما معاً. ما من فاصل بين الحياة الخاصة والحياة المهنية. حتى لو زال الحب بينهما، يبقى العمل والنجاح هما الأولوية. يجد هذا الثنائي الذي يشكل فريقاً واحداً في العمل، حسنات عديدة في الموضوع، منها التقويم وإرضاء الأنانية والحصول على تقدير المحيط والمصالح المشتركة. إن الثنائي، في بحثه عن النجاح، يعطي لنفسه أولويات أخرى غير الأمور الحميمة. تنفك الروابط الشخصية لصالح العلاقات الخارجية. يؤدي كل واحد دوره في اللعبة محاولاً التعويض بلقاءات قصيرة. هما لا ينفصلان. ففي هذا الوضع الكثير من المجازفة. أحياناً، ينحلّ الفريق لأسباب مادية: فمثلاً الإدارة السيئة لملكية زراعية أو مؤسسة عائلية صغيرة، قد تدهور الروابط بين هذين الشريكين.

«حمية من دون علاقات جنسية»

«التعفف عبارة عن حصن من القيم القديمة، في غير محلّه في حياتنا العصرية، إلا في الولايات المتحدة حيث نجد من بين أبناء الكنيسة المعمدانية الشبان من نذروا العفة إلى حين موعد الزواج»[255]. يفسر هانري هاغي وديلفين سوبابر التالي: «في بداية السبعينيات، بيّنت الدراسات أن نصف عدد النساء المتزوجات اللواتي تجاوزن الخمسين، لم يقمن علاقة مع الشريك منذ سنة أو أكثر»[256]. الموضوع محظور! تقول العالمة الاجتماعية جانين موسو لافو: «ليس من النادر أن نجد نساء قد حصلن على شهادات عديدة، ويهتممن بمظهرهن أكثر من اللازم، وينذرن العفة بانتظار الشريك المفترض الشبيه لهن». وبحسب الصحافيين: «يختار البعض التعفف على أنه شكل من الإعلاء، أما البعض الآخر فيخضع له على أنه حرمان». كيف وصلوا إلى هنا؟ هل هو فقدان للرغبة؟ أم تعب؟ أم إرهاق؟ أم بفعل تأثير ما؟ ومع الوقت، يبني الروتين عشاً له، فلا نولي اهتماماً

لجسد الآخر. بعد أشهر من التعفف، من الصعب جداً إعادة تنشيط الليبدو. يقول العالم الجنسي جاك واينبرغ: يحتاج رجل في الخمسين إلى ثلاثة أشهر كي يعود إلى طبيعته بالكامل بعد ستة أشهر من التعفف. عندما يبلغ الخامسة والخمسين يستغرق ضعف الفترة. يعطي الصحافيون مثل أمينة مكتبة، تبلغ من العمر خمسة وخمسين، ومتزوجة بطبيب أسنان، ولديها ثلاثة أولاد: لم أمارس الحب مع زوجي منذ اثنتين وعشرين سنة. هو، في الحياة كما في السرير، يقوم بكل الأمور بسرعة. لم أكن أشعر بأنني امرأة بنظره، كنت أحس معه بأنني امرأة غير مرغوب فيها. لا بد من أنه كان يخونني. ينام جيلبير وفرانسواز في غرفتين منفصلتين: «من الخارج، نظن أنه ثنائي رائع، ثنائي سوف يعمّر طويلاً»[257]. يرى روبير نوبرغر أن عدد الأزواج الذين يواجهون أزمة، يزداد شيئاً فشيئاً: من بين ثلاث حالات، نجد حالة واحدة، انقطعت فيها العلاقات الجنسية. وهذا يشير إلى مشكلة أعمق قد اكتشفها في سياق العلاج. إن خيانة أحد الشريكين، والميول نحو المثلية الجنسية عند الآخر، والنقص في التواصل بين الاثنين، أبواب تنفذ إلى آثار متعددة. يمكن الثنائي أن يعيش حالة امتناع في الحياة الجنسية، تتجاوز الكبت الجنسي، على أنها اعتداء عنيف على الهوية. «أحياناً، تكون المرأة هي من يميل أكثر من الرجل إلى تخدّر الحواس داخل الثنائي»[258]. يفسر الطبيب النفساني ميشال رينو الأمر: للرجل ليبدو بحث وقذف وغرائز جنسية متكررة. أما رغبة المرأة فترتكز على الأحاسيس[259]. بالنسبة إلى فرويد، التعفف «مطهر غير مُجدٍ وقاسٍ في الوقت عينه». إن كان بعض الأزواج يتسامون من خلال الدين أو الأخلاق، فالبعض الآخر يعوّضون بتصرفاتهم. العمل والمهمات المنزلية تشغل حياتنا. نتواجد معاً في السرير، فننام على الفور...

يقول روبير نوبرغر: أجد أن علاقة أكثر فأكثر من الأزواج الشبان تتحول إلى علاقة أخوية، وهم أحياناً لا يملكون ماديات وفيرة. كل شريكين منهم يشكلان فريقاً. إن الفرق بين الجنسين، الذي يصبح أكثر إبهاماً مع الوقت، يفسح المجال أمام هذا النوع من العلاقات. يمثل الرجال ربات منزل صالحات، والنساء يخضن المجال المهني. لكن قريننا لا يجذبنا أبداً جداً[260]. تنتهي هذه العلاقة بجعل «الشريكين» يتشابهان: الطريقة نفسها في اللبس والتكلم والعمل والنظر إلى الحياة.

نادرون هم الأزواج الذين لم يستهلكوا زواجهم، وهذا ما نسميه «الثنائي العذري». قد نجد هذا النوع من الأزواج، حتى إن بعضهم قد أصبحوا أسطورة، مثل أمير بولينياك وزوجته المتحدرة من عائلة سينجر. ثروة طائلة، شهرة لامعة... مثل آخر عن زواج بالشكل، من دون علاقات جنسية. وفق ج. د. نازيو، في هذه الحالات، يكون التعفف بمثابة إظهار لرهاب من العلاقة الجنسية والعاطفية مع الآخر يرجع أحياناً إلى الطفولة. «يتمثل هذا القلق عند البعض في الأيديولوجيا. في الولايات المتحدة، برزت جماعة جديدة تزعم اللاجنسية»[261].

هل «العفة الزوجية» ممكنة؟ اختار تييري بايار أن يكون راهباً شارترياً، تاركاً وراءه حب شبابه، أليكس. وهو منذ ست سنين، يعيش في الظل والصوم والتعفف. قبل أن ينذر العفة الأبدية،

اعترضت الجماعة على أن يمضي قدماً في هذه الدرب، وأرسلته إلى العالم الخارجي مجدداً. «لم أحتمل النقص العاطفي إلى درجة أن أعصابي قد انهارت. كنت تائهاً ما بين مُثلي في الطهارة وحاجاتي، إلى أن انهالت على رأسي أفكار غريزة الاغتصاب. عرفت رجال دين مغمورين بالخشونة... لكن العفة الرهبانية قد تكون جميلة عندما تصبح طبيعية»[262]. عند خروجه، تزوج بأليكس، واكتشف معها ما تسميه الكنيسة «العفة الزوجية»: «أي حياة ثنائية مبنية على الوفاء، ورباطة الجأش التي تتقبل الرغبة من خلال احترام دورات (المرأة) الطبيعية[263]. ما إن تزوجت حتى اكتشفت أن العفة المختارة خصبة. هي هبة نمنحها للآخر»[264].

نجد عاملاً مشتركاً بين أغلبية حالات الأزواج الشكليين الذين يبقون معاً لأسباب سلبية: الخوف من الوحدة والنبذ والحاجة المادية والتغيير وخشية عدم الانخراط في المجتمع. بالنسبة إلى نادين غران جان: ثمة حسنة في عصرنا هذا: تحتيم الحقيقة والتماسك، وتدمير مواقف التقليد والنسخ. الثنائي الذي يتشكل على أنه بديل أشبه بالأموال المزوّرة. يكون أولاد هذا الثنائي في الخطأ. ما الذي نبيعهم؟ علينا ألا نحكم على هذا النوع من الأزواج، بل فقط أن نحذّر من يعانون شتى أشكال العنف. وفي حال عانت المرأة سوءاً في المعاملة أم ازدراءً أم إهمالاً، عليها أن تفصح عن الأمر وتكسر قضبان وحدتها لتدع الآخرين يمدون إليها يد العون. فذلك يساعدها على الاستمرار في العيش.

هل نبقى مهما كان الثمن؟

كيف لنا أن نطوّر علاقة متجمدة؟ كيف لنا أن نتفادى تفكك العلاقة؟ والانحراف عن الدرب السليمة؟ والغرق؟

- الانفصال لفترة من الوقت حل متوسط. فهو قد يشكل وسيلة مناسبة لمراجعة وضع العلاقة والتفكير فيها. لكن الخطر الوحيد قد يكمن في انقطاع التواصل تماماً والابتعاد و... إيجاد شخص آخر! يتطلب الانفصال فترات تلاقٍ جديدة، في السكون. يجدي الانفصال نفعاً إن كانت الرغبة في التغيير والخضوع للعلاج حقيقية، وإلا فقد يعيد التاريخ نفسه. بالنسبة إلى كل شريكين قد تعبا من تشارك عملهما، يكون الانفصال بمثابة تحوّل مهني وتدرّب وانطلاقة جديدة.

- الطلاق: نسمع من حولنا الرأي التالي يتكرر: «في أيامنا هذه، نطلب الطلاق لأسباب تافهة». وهذا ليس بالأمر الأكيد. فإن استمعنا إلى الشهادات، نكتشف أن وراء أغلبية حالات الطلاق تختبئ معاناة ما، وخيبات أمل أو حتى عنف، وعتاب واحتقار... لنتذكر أنه ما من مخرج ممكن عند تواجد الأحياء الأربعة. حينها، يتوجه الثنائي نحو الفشل.

- العلاج: بالنسبة إلى من يتكامل عصابهما، استشارة العالم النفساني هي أفضل وسيلة! يفسر روبير نوبرغر أن الثنائي يأتي جراء نتائج المشاكل أحياناً عندما تجري الأمور بشكل سيئ

داخله: صعوبات ترتبط بولد ما، انقطاع في الحياة الجنسية... هو ينصح بالحرص على اختيار المعالج المناسب، وإيجاد من يستطيع مساعدة الشريكين على بناء مصيرهما.

الحب والإرادة مفهومان متناقضان، لكن الإرادة من دون حب أشبه بغرق سفينة! عندما يتفتح جرح الثنائي، من الأفضل مداواته قبل الخسارة الكبرى: يجب تدارك الانحلال! إن العذاب، أياً يكن شكله، ليس فقط غير مُجدٍ، بل أيضاً هو يؤذي مستقبل الثنائي. إن تألم أحد الشريكين، يغرق الاثنان في المعاناة في نهاية المطاف. كل واحد حر في إيجاد الحل المناسب: نصائح المستشار في الأمور الزوجية، والمعالج، والمرشد الروحي، والنجيّ، تفيد أكثر من نصيحة الوالدين أو الأصدقاء. لا يكون كلام الآخرين فعالاً إلا إذا جاء على لسان شخص غريب عن الوحدة الزوجية المعنية، يكون من جهة أخرى، محط ثقة، وحافظ الأسرار ومشاعر الاستياء، ولا يبوح بتشققات العلاقة. وهذا السكون المضمون يحوي أصلاً وعداً بشفاء محتمل، إلا في حال وجب فسخ العلاقة!

الفصل الحادي عشر

السفر ضمن العائلة

هل يسمح الأولاد للزوجين بأن يستمرا، أم إنهم، بالعكس، يتسببون في تفريقهما؟ تبين الدراسات الاجتماعية أن قرار الإنجاب يتأخر عند الثنائي المتخرج في الجامعة أكثر من الثنائي الذي لا يملك سوى القليل من الموارد الاجتماعية الثقافية. الثنائي الأول يستغرق وقتاً أكبر. كيفما يكن الوضع، يقوّض الطفل الذي يبصر النور استقرار الوحدة الزوجية الأولية: يولّد الطفل هزة زلزالية. بعد ولادة طفل ما، لا يتسنى للشريكين الوقت ليختليا ببعضهما البعض. فجأة، تُفرض مسؤولية جديدة عليهما. تخرج الأمهات للعمل شاعرات بالذنب والقلق. لكل فكرته عن كيفية الاعتناء بالطفل. هل ندعه يبكي؟ هل نُخرجه؟ هل نضعه في مهده؟ تتعارض الآراء في هذا الشأن. كيف لنا أن نحافظ على حياة ثنائية ناجحة مع الأولاد؟ كيف لنا أن نسافر معاً، في حين أننا اعتدنا على الذهاب مع الشريك فقط؟

لقب «الوالد»: حمل ثقيل من المسؤولية

لسنا مهيئين كفاية لنصبح والدين. قد يتدهور الثنائي ويتدمر جزء كبير منه بسبب تضحيات وضغوطات ترتبط بولادة طفل ما. يصعب أكثر على الثنائي المستقل أحياناً تقبّل الانعزال الزوجي والكبت الجنسي.

اختلاف الحياة الجنسية...

ينتظر الثنائي الشاب أكثر لإنجاب طفل، بعكس جيله السابق: الدراسة، الحياة المهنية، صعوبة إيجاد الشريك المناسب أمور تجعلنا نفكر عند بلوغ الثلاثين، في أن الوقت قد حان. لنضف إلى ذلك أن النساء يستطعن التخطيط لحملهن. في كافة الأحوال، يصبح الإنجاب خياراً أكثر فأكثر. لكن، كلما انتظر الثنائي الشاب أكثر، مال أكثر إلى اتباع نمط حياة ثنائية، وإلى عدم قياس حجم النتائج المرتبطة «بالتخطيط» لإنجاب طفل. فجأة، عندما يبصر الطفل النور، تتهدم الحياة الحميمة القديمة: ما من خروج إلى المطعم، أو السينما، وما من قيلولة للتداعب... يصبح كل التركيز مركزاً على الطفل. إن فرحة أن نصبح والدين تعارض الكبت الذي نحس به، بعد أن نخسر ميزة الحياة

الثنائية والراحة التي تؤمنها لنا. فلا يبقى للوالدين، إذ يشردان ويركزان اهتمامهما على الطفل، وقت خاص بهما. يقابل روبير نوبرغر أكثر فأكثر من الأزواج الشبان الذين «يصبحون كالإخوة» جراء المهمات الأبوية... إلى حين تُفجرهم حالات الكبت الجنسي المتراكمة.

يصعب على البعض من الأزواج التكيف أكثر من غيرهم، خصوصاً الأب الذي يُبدي أحياناً عدوانية لاشعورية لمكانة الطفل الجديد التي تدمر التوازن الحميم والتوازن الجنسي السابقين. يتعلق الأمر بنقطة الفسخ الأولى التي تتطلب من الأم الجديدة الحرص على عدم تمييز الطفل على حساب الزوج. لقد تغيّرت حياة غابرييل بالكامل. فزوجته تتّكل عليه تماماً: هو يهتم بشراء الحاجات وبتنظيف المنزل، إذ إن طفلها يأخذ كل وقتها. يقول: وداعاً للحرية، لقد فهمت أخيراً ما معنى أن يكون الشخص «مسؤولاً». هذا التعفف الذي فُرض عليّ يشعرني بالاضطراب! أن نكون مسؤولين عن ثلاثة أشخاص، أمر يقلب الوضع رأساً على عقب. هجر مارتين، وهو ملحق صحافي، زوجته وطفله البالغ من العمر ثلاثة أشهر، لأنه لم يعد يحتمل إهمال زوجته له.

في Le baby-clash، يبين برنار غيبيرويز وكوليت بارّو، أن سبب الانفصال يرجع أكثر فأكثر إلى الطفل. «نادراً ما يحدث ذلك خلال فترة الحمل أو في البداية، بل يحصل بعد إنجاب الطفل بسنتين أو ثلاث. عندما نرفع رؤوسنا لنرى ما لم نعِه من قبل، نجد أن الحياة قد انتزعت من الثنائي، وأن الحياة الحميمة قد زالت تماماً، وكذلك التشارك. (...) فلقد أمضينا أعواماً نصبّ اهتمامنا بأكمله على الطفل... يعود حينها الواقع كحالة مرتدة. (...) نتزوج «من أجل الطفل»، وبالتالي هو من يبني الثنائي أو يدمره. (...) يُوظَّف الطفل في مهمة ضخمة تفوق قدرته: وهي أن يعكس نجاح والديه. إنه «الطفل المضمّد للجراح» الشهير، مرمّم النرجسية الأبوية. (...) وبالتالي، عند العقبة الأولى، نُصاب بخيبة أمل. (...) تتطلب ولادة الطفل براعة بهلوان، أي أن نستطيع التضحية بشخصنا أمس، والقفز من حالة عدم استقرار إلى أخرى»[265].

التشاور

على الرغم من كافة النصائح التي تستفيد منها المرأة الحامل، سواء أجاءت على لسان أمها أم الطبيب النسائي أم صديقاتها الأمهات، هي تميل إلى الارتباك. فضلاً عن ذلك، هي لا تدري كيف تتابع حياتها الجنسية بتجانس. عند ولادة الطفل، تتضاعف الأسئلة والمشاكل. على الأم الجديدة أن تصمد في وجه كافة الضغوطات؛ أي ضغوطات محيطها أو زوجها. وينتهي بها الأمر بإيجاد الطريق الصحيح يوماً بيوم، من خلال حدسها، واللجوء إلى مراجع مختصة. يتعلم الأزواج المتحدون بعمق بسرعة، تقاسم المهمات، وبالتالي يحافظون على التماسك الذي ينظم الحياة الحميمة. إذاً، المهم هو ألا نحصر الأب بدوره كرب العائلة، بل أن نشركه في المهمات كلها. إن لم يحس بأنه مستبعد، يستمرّ في اعتبار المرأة التي أصبحت أماً الزوجةَ التي يرغب فيها. على الأم الجديدة أن تتعلم التفويض. فالأب الجديد يُسَرّ كثيراً بدوره، ويبيّن حناناً يكون أحياناً مكبوتاً. المرحلة الأولى، منذ بداية التربية، هي التشاور. يسمح هذا السلوك بعدم الشعور بأن الترحيب بالمولود الجديد سلسلة من التضحيات المفروضة. لا شك في أن تسوية الخلافات قبل إنجاب الطفل، أفضل، وإلا فقد يأتي

هذا الكائن البشري ليسلط الضوء عليها أكثر. وبغية الحفاظ على التوازن، على الوالدين الشابين الانطلاق من النماذج ومن نقطة الصفر، وابتكار فن جديد في العيش. ومع نمو الطفل، يجب أن يتثبت مبدأ التشاور بدلاً من أن ينحل. لا يعني الرهان هذا مستقبل الطفل فقط، بل أيضاً مستقبل الثنائي بحد ذاته. وفي إدارة الحياة اليومية، تصدق النساء العاملات اللواتي يتفقن مع الشريك لاتخاذ القرار السليم: دار الحضانة أو المراضعة؛ مدرسة رسمية أو خاصة...

الأمر سيان؛ أكان بالنسبة إلى التربية أم الثنائي: ما من وصفات سحرية. يرتبط الأمر بقصتنا، ومحيطنا... المهم هو الاستمرار في التفكير معاً، وعدم المواجهة، وتقبل آراء الآخر ومواقفه. تؤدي الخلافات الزوجية إلى تداعيات في علاقات الأطفال في ما بينهم. وثمة نصيحة هنا: لا تسوّيا أي خلاف أمامهم. بوجودهم، عليكما التعاضد والتضامن.

صورة من الانسجام: الفسحات الخاصة

إن كان من الضروري أن يكرس الوالدان الكثير من الوقت لأولادهما، والاتفاق على تربيتهم، فعليهما ألا ينسيا أبداً أنهما قد أصبحا، من دون علمهما، قدوة ومرجعاً. ونتيجة ذلك، تكون صورة الثنائي المنسجم من أجمل الهدايا التي يمكنهما تقديمها إلى أولادهما.

انطلاقاً من هذا المنطق، من المهم إفهام الأولاد أن الأب والأم هما أيضاً زوج وزوجة، وأن كلاً منهما بحاجة إلى فسحة خاصة به ووقت خاص به. تمثل بعض النساء دور الأم أكثر من المرأة، فيمِلن إلى تخصيص دور نسبة إلى الآخر، إلى أن يجعلن من الزوج «أماً». والعكس أيضاً عصابي. إن المرأة المجردة من أي حس للأمومة، تحكم على أولادها بالحرمان من التركيبات اللاشعورية الضرورية لتشكيله. لمَ تعيق الأمومة أنوثة المرأة؟

بما أن توازن الثنائي مرتكز على القصة التأسيسية، لا شك في أنه من الضروري تمديد هذه القصة من خلال عادات جديدة. لا يتعلق الأمر بالتمكن من ممارسة الحب متى يحلو لنا، بل حين يكون ذلك ممكناً. وهذا الضغط، بدلاً من أن يكون كابتاً، قد يتحول إلى فسحة جديدة من الحرية والخصوصية. المسألة مسألة تنظيم! هذه الفسحات الخاصة مهمة للغاية لتجانس الثنائي. في الواقع، كيف لنا أن ننجب أولاداً آخرين من دونها؟ الاختلاء مع الشريك خلال أمسية ما، والذهاب معه في رحلة في نهاية الأسبوع، يسمح لنا بأن نرجع إلى الحالة الأولية، وأن نحس بأننا لا نزال حبيبين. تقول لورانس، وهي أم لفتاتين: عندما تصبح المرأة أماً، عليها أن تخلق توازناً، خصوصاً في ما يتعلق بالمداعبات. الوضع يتغير! نعطي بعضنا أنا ومارك فسحات خاصة بنا، فنذهب معاً في رحلة مرة أو مرتين في السنة. من وقت إلى آخر، نضع الأولاد في عهدة حماتي لأسبوع. من المهم أن يختلي الشريكان ببعضهما البعض، وألا يتهاونا... من المهم أن تشعر المرأة بأنها لا تزال امرأة.

التقدم

في أيامنا هذه، تُعتبر التربية المشتركة أحد «المقولبات»، بحسب روبير نوبرغر الذي يفسر أنه: أجد شخصياً الأمر في غاية الخطورة. وأرى أنه من الأفضل التمتع بأهليات متكاملة بدلاً

من أن نكون في الموضع نفسه. أنت تعتني بهذه الناحية، وأنا بتلك. على سبيل المثال، إن توفر أحد الشريكين أكثر من الآخر كي يتابع عمل الأولاد، يهتم الآخر باصطحابهم لممارسة الرياضة. علينا ألا نشعر بأننا مجبرون على تشارك كافة المهمات، المهم هو ألا نقلّل من قيمة ما يقوم به الآخر، وألا نقوم بتصرفات متناقضة تماماً.

يعلّمنا الآخر الكثير، بتصرفاته واعتقاداته وحس المجازفة فيه والمواقف التي يتخذها وردات فعله. من المجدي أن نربي أولادنا بانسجام، من دون أن نعارض الآخر بالضرورة، بل من خلال استيعاب أفكاره.

ساندرين وأوليفييه، والدان لطفلين، في الثالثة والرابعة من العمر، وهما يعملان. تفسر ساندرين كيف تمكنا من خلق التوازن المناسب: أنا أهتم بكل ما يتعلق بالحاضنة والتبضع والحضانة، من تنظيم ودفع للتكاليف. منذ شهر أيلول/سبتمبر، قررنا تقاسم المهمات. هو يصطحب الطفلين إلى المدرسة يومين من أصل أربعة، وأنا أهتم بالأمر في الأيام الباقية. الأمر سيان بالنسبة إلى نهاية الأسبوع: أحدنا يستيقظ السبت، والآخر الأحد. هذا يسمح لكل منا بالنوم ساعة إضافية وتفادي المشاجرة صباحاً. هذه قواعد صغيرة تسهّل الحياة. وبالطبع، قد نتبادل الأدوار أحياناً. أوليفييه يشعر بأرق أحياناً: إن لم ينم جيداً، أنهض أنا. إننا نتكامل بشكل كبير. يلعب أوليفييه مع ولدينا: هو والد متساهل، يحب تنظيم الألعاب لهما؛ أما أنا فأفضل التعليم. أحس بأنني أوبخهما أكثر منه: أطلب منهما عدم مشاهدة التلفاز كثيراً وطلب إذن الانصراف عند الانتهاء من الطعام... أحب كثيراً أن أقرأ لهما قصصاً في المساء وأعلّمهما الأبجدية. يثق أوليفييه بي، ويحترم مبادئي. لم يشكل ولدانا مصدر خلافات. عندما يعود أوليفييه في الساعة التاسعة والنصف مساء إلى المنزل، ويوقظ الطفلين ليراهما، أنزعج، لكنني الآن أقول له: «افعل ما يحلو لك».

تقول جويل (40 سنة وأم لثلاثة أولاد)، عن زوجها: عيبه الوحيد هو تساهله المفرط مع الأولاد. يوفر لهم كل شيء، ولا يغضب أبداً. يقول إن الأولاد دائماً على حق. لا يتمتع بأي سلطة. الأولاد هم الملوك بالنسبة إليه، كما كان الوضع في عائلته. نسبتُ الأمر إلى عيب عائلي. في حال جاء أحد الأولاد متسخاً بالغراء، يتصل بالمدير ويقول له: «كيف تسمح بأن يتسخ ولدي بالغراء؟». انتهى بي الأمر إلى تقبل طبعه هذا، وأعوّض عنه من وقت إلى آخر...

تقول ماري (54 سنة، وأم لأربعة أولاد): لسنا دائماً على اتفاق، لكننا نفصح لبعضنا عن كل الأمور المتعلقة بالأولاد. إننا نشكل الركيزتين.

يكمن سر الوالدين الجيدين في أن يبيّن كل واحد قيمه، ويحترم قيم الآخر.

يؤثر نمط الثنائي، شأنه شأن فلسفتنا في الحياة، في علاقاتنا مع الأولاد. في ما يتعلق بالتربية، المهم هو إيجاد تماسك بين أفكارنا وتصرفاتنا. داخل الثنائي المستقل، يأتي الانضباط بعد الإبداع. القليل من الضغوطات، القليل من الموانع. يكون التشديد على التحفيز والاقتراح والانفتاح على العالم الخارجي: الأصدقاء، المدرسة، المسائل الجارية، الجمعيات... لا يتردد الثنائي في الاستعانة بمساعدين: المعلّمين، العالم النفساني... هذا النمط من التربية يفسح المجال أمام تواصل

جيد بين الوالدين والأولاد. في المنزل، تكون المناقشات كثيرة، والتبادلات دافئة. وفي المقابل، الوالدان المتسلطان يشددان على الطاعة والانضباط. يفرضان الأمور من دون تفسير، ويميلان إلى التحكم في الأمور. لا يستطيع الولد اتخاذ القرار بنفسه»[266]. في هذا النوع من العائلات، يكون التواصل محدوداً. يتدخل الوالد للتوبيخ، أما الوالدة فتتكفل بالتعليم. تكون العائلة متحرّزة بالنسبة إلى المدرسة، التي تعتبر أن دورها هو التعليم، ليس المرح، فلا ترحب بالأصدقاء. وهي تحافظ على الأولاد من التأثيرات السيئة. في العائلة التي يؤدي فيها الوالدان دور «الأم»، الطاعة ضرورية أيضاً، لكن الوالدين والأولاد قريبون من بعضهم البعض كثيراً. «يمكننا الاعتبار أن كل نوع من العائلات بحاجة إلى نوع من الأولاد: الولد المستقيم والشبيه والخاضع للمجموعة في وضع عائلة «الحصن»، الولد المفاوض والشريك المستقل والمبدع في وضع العائلة «التضامنية». إننا نفضل طبعاً هذا النوع الأخير الذي يحترم أكثر شخصية الطفل ويحضّره لبناء حياته الثنائية المنفتحة والمتوازنة.

من الضروري هنا التشديد على فكرة أن الأولاد أمر مثير وغريب، بحد ذاتهم، هم سعادة تتجدد في كل يوم، والصورة الحية لحب متبادل. حضورهم وحنانهم وانتظارهم تلزمنا وتفرض علينا المسؤولية.

من الوالدين اللذين يَحمِلان كيس أولادهما إلى اللذين يُحمّلانهم كيسهما

ينتج أحد الانشقاقات في الثنائي من اللبس في أدوار الوالدين/الأولاد. وفي وقت يؤدي فيه الوالدان دور الرفيقين، أكثر فأكثر من الأزواج، يفتحون قلوبهم لأولادهم، خصوصاً عند بلوغهن سن المراهقة. يعاملونهم كشخص راشد ويحمّلونهم مسؤوليات كبيرة جداً. اعتادت جوديث، التي تعاني نقصاً في العاطفة من جهة ناتان، على الاشتكاء أمام الأولاد الذين أصبحوا طرفاً قابضاً في خلافاتهما. تنتقد جان زوجها وهي تخبر ما يحصل لها لابنتها البالغة سبعة عشر عاماً. أما مارتين فيفصح لابنه أن أمه لا تتمتع بأي سلطة. في أوضاع مماثلة، يشعر الأولاد بالاضطراب، فيحملون إحساساً يمتلئ بحقد والديهم. حتى إنهم قد يؤدون دور المخفّف من هول المشاكل، فينصحونهما ويطمئنونهما. يمرّ أنطوان وماري لور في أزمة، إلى درجة أن أنطوان قد استأجر شقة. ونتيجة ذلك، لم يعد ابنهما داميان يحرز أي تقدم في الدراسة. طلبت ماري لور من أنطوان الاهتمام بالمسألة على أمل أن يعود إلى بيته. ما إن تحسّن داميان، حتى ابتعد، ثم توقف الابن من جديد عن إحراز أي تقدم. هو يعلم أن علاماته السيئة تقرّب ما بين والديه.

في المقابل، نجد نوعاً من الوالدين يحيط ولده من كافة الجوانب، ويقوم بكل شيء بدلاً منه. يعتبر أنه دائماً على حق، ويريد معرفة كل شيء عن حياة الولد الخاصة: من يعاشر، من يحب، كيف ينفق ماله. يتعدّى على فسحة الولد الخاصة. من جهة أخرى، الكذب عنصر مهمٌّ عند الأولاد، فهم ليسوا مضطرين إلى الإفصاح عن كل ما في قلوبهم. الكذب هو الخطوة الأولى نحو الاستقلالية الذاتية.

يظهر تشابك الأجناس انزعاجاً. الأدوار تنقلب، والوالدان يتجاوزان الحدود التي تبيّن خطّ كل واحد. هما بالتأكيد والدان، لا نجيّان أو بديلان. لنكن متيقّظين. الجوّ العائلي بحاجة إلى الثقة والاحترام المتبادل كي لا يدخل خانة الدراما النفسية. لكلّ مكانه! لكلّ مستودع أحاسيسه.

إن كانت طريقة عيش المراهقين تزعزع أحياناً حياة الثنائي الحميمة، فعلى الوالدين التشجيع على استقلالية المراهق الذاتية واحترام حريته، وإفهامه أن عليه ألا يتعدّى على حرية والديه. هذا التحرر الجديد، عند نجاحه، يسمح بأن يصبح نمط الثنائي مناسباً: يبقى متحداً بالتأكيد، مع رغبة مشتركة في «التحرر» من الأولاد.

أبناء الآخرين

فكرة العيش مع أولاد من زواج أوّل، تتكاثر. عائلات معاد تشكيلها، أو مفكّكة؟ كيف لنا أن نجد مكاننا؟ كيف لنا أن نعيش داخل مجموعة ما؟ التفضيل، التمييز... نشعر أحياناً بالحيرة. يصعب على هؤلاء الأولاد تقبّلنا، فهم يتقافزون بين عائلتيهم ويجبروننا على تشكيل عائلة. وفي حال تكفّلنا أو تبنّينا طفلاً ما، تبرز مشاكل أخرى. يصبح ولدنا، لكن إلى أي حد؟

تقبّل ماضي الآخر

قد يكون الشريك قد عاش علاقة زوجية قبل التي يعيشها معنا، وحالات من الحب يصعب علينا أحيانا تقبّلها، خصوصاً إن كان لا يزال على اتصال بأطراف العلاقات السابقة. في برنامج جان لوك دي لارو، Comment accepter le passé de l’autre[267]، نسمح شهادات لبعض الأزواج. هناك رب عائلة قد طلّق ثلاث مرات، وهو يستمر في الاعتناء بعائلاته السابقة، ويؤمن الإيجارات والمصاريف وكافة النفقات، وهو قد وظّف زوجته الثانية لديه... لم يفصح لشريكته الجديدة عن حقيقة الأمر، بيد أنها عرفت وهي لا تتحمل الوضع. هذا الرجل لا يستطيع قطع اتصاله بزوجاته السابقات. لا يريد خسارة أي منهن، كما يود أن يبقى متعلقاً بجميعهن. في وضعه هذا، السخاء المفرط يضرّه، وأكثر من ذلك كله، ولّد كذبه الشك في قلب زوجته الأخيرة، فهجرته. إن إيجاد الحلول المناسبة والحفاظ على علاقات جيدة والتفسير، أمور تسمح للمرأة بأن تأخذ مكانها الصحيح بالقرب من الرجل وأولاده من أي زواج سابق.

أحبّت أوفيلي رجلاً قد خسر زوجته في حادث سير بعد ثلاثة أشهر من لقائهما. وهو إذ يشعر بالذنب يعجز عن تخطي موت زوجته الأولى.

عندما نتزوج مرة أخرى، ليس علينا أن نقارن أبداً أو نندم، بل أن نعيش الحاضر. ليس علينا أن نتطلع إلى الحلول مكان الأم الحقيقية. فلنحافظ على المسافة المناسبة.

التبني والتصارح

التبني مسيرة مُكافح! تنشأ المشاكل في سن الأسئلة. ليس علينا أن ندع الشك يخيّم. على الولد أن يعلم الحقيقة، لكن المهم في الأمر هو فن الإفصاح عن السرّ والطريقة لذلك. علينا أن نكلّمه على بلده، واصطحابه إليه. علينا إخباره قصة تبنيه. يأمل جان باتيست وآن، المتزوّجان منذ أيام الدراسة، بناء عائلة كبيرة. ما من حمل حتى الآن. استشارا الطبيب. تقول آن: لم يتهمني جان باتيست يوماً بأنني امرأة عاقر. انتظرنا عشر سنين قبل أن نقرر تبني فتاة آسيوية صغيرة. أردتها فتاة لأنني أعلم أن في الرجل جانباً نرجسياً. يحب أن يجري دمه في عروق ولده. يرى فيه صورة عنه. لم أكن أتخيل صبياً فيتنامياً أمام أبيه: رجل أشقر بعينين زرقاوين. تبنّينا فتاتين. علاقتهما بوالدهما ممتازة. أحياناً، تقول لي الصغرى: «أنت لست أمي الحقيقية». أجيبها: «أنت محقة، أنا لم أَلِدك، بل أنا أمك».

الحموان: تضامن المجموعة

إن كان ضرورياً بالنسبة إلينا أن نستقل، فأولادنا بحاجة إلى الانتظام حول نماذج مختلفة: أجداد يخبرونهم عن الماضي، أبناء عمومة متضامنون... «تشكل شبكة العائلة والأصدقاء درعاً من حول العائلة النواة (...) هي تزوّد الثنائي بعدد من النماذج والآراء ووسائل التواصل التي تحدّ من نشوء المشاكل. (...) ما يُشعر الشريكين بإحساس من تقدير الذات والتفاؤل، يساعدهما على مجابهة مصاعبهما (...). من جهة أخرى، قد يشكل تدخل الأقرباء والأصدقاء المفرط بين الزوجين، ضغطاً يمنعهما من اختيار حلولهما الخاصة، والتركيز على علاقة الثنائي وحدها»[268]. ثمة حالة تصبح نادرة أكثر فأكثر في أيامنا هذه، وهي امتناعنا عن الاتكال على العائلة. علينا نحن أن نرى الجانب الإيجابي في الشبكات، وأن نحذر من تأثيره السلبي!

علينا أن نحذر «أثر المافيا»، وألا ندع الآخرين يستولون علينا، وإلا فسوف نقع في خطر خسارة أنفسنا. وعلينا أيضاً ألا ننسى الشريك، فهو هنا لحمايتنا.

مقاومة الضغوطات

علينا أن نصمد في وجه محاولات التلاعب العائلية. علينا ألا نقبل نقدهم لنمط تربيتنا. حليفنا الوحيد هو الشريك. عندما سمحت والدة كلير لنفسها بإبداء رأيها في ما يتعلق بتربية الأولاد، تدخل سيباستيان وقال لها: «هذا ليس من شأنك!». إن سمح البعض لأنفسهم بتملك أولادنا، فعلينا الحذر! تضع ماري، التي تعمل كثيراً، ابنتها في عهدة حماتها. وهذه الأخيرة تعتني بالفتاة متبعة العادات القديمة ولا تؤنبها البتة. وشيئاً فشيئاً، راحت الحفيدة تشعر بالذنب، وابتعدت. تؤدي سيطرة الغير إلى ضغينة تؤثر في الثنائي. لنعلم كيف نكسب احترام الآخرين، ونحتمي من الدخلاء. فهم يطوفون ويكونون أحياناً أكثر مكراً مما قد نظن. للمعلّم والعالم النفساني والطبيب والأهل والأصدقاء، فكرتهم الخاصة عما قد يكون لخير أولادنا. إننا نربي أولادنا كما نكون نحن. علينا ألا نفقد حس التحكم في زمام الأمور، ونوكل مسألة تربية الأولاد ومتابعة دراستهم إلى الآخرين.

وسواء أكان في العائلات المعاد تشكيلها أم المفككة، نحن نواجه أكثر فأكثر غياباً للنماذج. كل الأمور تُعالَج، حالةً بحالة. تترك البنى العائلية القديمة مكانها لكتلة من الوحدات، حيث يعيش أعضاء الثنائي الأخير عدة أدوار، ما لا يعني إطلاقاً أن ما هم عليه لا يؤدي إلى دوامهم. في أيامنا هذه، ليست العائلة أسرة كثيرة الأفراد بقدر ما هي مجموعة من الأشخاص المجموعين حول الثنائي. ما هو بنية العائلة الرئيسية.

الفصل الثاني عشر

الثغرات في مسائل العمل والمال

سبق ورأينا أن العمل كفريق قد يشكل وثاق الثنائي، وأن المنفعة المادية والمال يدخلان في حساب الوحدة. فالحياة المهنية لكل واحد هي من دون شك عامل مهم آخر لجلب السعادة. في كافة الأحوال، علاقتنا بالمال شأنها شأن علاقتنا بالجنس، بليغة الدلالة. الدين، العجز، الأسرار، القروض: كلها كواشف.

كيف نوفّق بين العمل والحياة الثنائية؟

العمل ضرورة. يختلف وضع الأزواج المعاصرين عن الأزواج السابقين، إذ نجد أن المرأة تعمل في 80% من الحالات. عندما يعمل الشريكان معاً، يتوفر المال جالباً معه المشاكل أيضاً، خصوصاً أن علينا النضال للحفاظ على الوظيفة وإشباع حاجتنا إليها بها. تتلاعب الشبكات كثيراً، وهي تفترض نسج علاقات خارج ساعات العمل أحياناً. المجتمع المعاصر أكثر من مرهِق. إن كان النجاح يُرضي أنانيتنا، فتهنئة المسؤول لنا نادرة، وفقط الشريك هنا ليقدّر أداءنا، ويشاركنا قلقنا وخيبات أملنا ونجاحاتنا.

الحفاظ على التوازن

لا يكمن التوازن في أن نضحي بمهنتنا من أجل الآخر. النساء اللواتي يتنازلن عن العمل يقعن في الخطر، فهن في حال الطلاق، يتجردن من أي موارد مالية. استنتجت ذلك من خلال التدريبات التي أجريتها في جمعية إيفلين سييرو، Retravailler. قابلت في الجمعية نساء قد هجرهن الشريك، فاضطررن إلى بناء أنفسهن والانخراط في عالم كنّ يجهلن قواعده. وهناك أخريات، وهنّ ربات منزل، قد أحسسن بالحياد حين يرين مهنة أزواجهن. جميعهن يقلّلن من قيمتهن، وهن قد فقدن الثقة بالنفس. يكمن التوازن في الحفاظ على الجانب المهني والتوفيق بين العائلة والأصدقاء والعمل، كما يقضي أيضاً برفض الاعتماد على الشريك، والتقدم، فالتوجه نحو

مهنة مريحة. من المهم من أجل معنويات المجموعات، العيش ضمن أطر الواقع، وسط الضغوطات والإحباطات الملازمة لكل حياة مهنية، وتشارك لحظات مميزة مع الشريك.

الحب والسلطة

في سباق الأداء والسلطة، قد تنشأ منافسة بين الشريكين. فقد تشعر امرأة ينعم زوجها بالثراء والثروة، بأنها مستبعدة. فزوجات النجوم أو رجال السياسة، يعشن أحياناً في ظل الشريك. وبرغم ذلك، «إن أدت المرأة دور المقيّمة، لا يكن ذلك كما في السابق، على حساب مسيرتها الخاصة»[269]. يشكل الأزواج الشبان المتعاونون ثنائياً استثنائياً، و«مشروعاً مشتركاً لطموحين». يشجع الشريكان ويحفزان بعضهما البعض، وكل منهما يحثّ الآخر داخل العش الزوجي»[270]. هذا «الثنائي المتعاون» يسعى إلى التكامل. أجرت شركة Risc International بحثاً حديثاً حول موضوع: «ما هي الميزة الأساسية في الشريك التي تجعل حياتكما الثنائية ناجحة؟». وقد جاءت الإجابة: ميزته أنه يشجعني ويساعدني على التقدم! ما يميز هذا النوع من الثنائي هو: «الرضا المتبادل والشعور بالتطور وتوسيع آفاق نقاط الاهتمام وعيش فكرة الحياة الثنائية بطريقة أعمق وأقوى». نسير كسير العمل في أي مؤسسة صغيرة. هما شريكان بكل معنى الكلمة، ويزاولان أحياناً المهنة نفسها، ويطوّران في داخلها ولعاً بالثقافة. «القاعدة هي الاحترام وأيضاً الثقة المطلقة. من دون أن نخاف أن يتفوق الآخر علينا ويتركنا وحدنا في منتصف الدرب. كلمات السر بينهما هي: التأثير المتبادل، الشبع، التجانس، التكامل. هما يواجهان العالم معاً (...). يعتبران النقد عاملاً بنّاءً، لا مدمّراً. (...) يتصرّفان ببرود أعصاب (...)، ولا يتوقفان عن الحوار. وهما يبنيان عالم الغد المساواتي جنباً إلى جنب»[271]. هما مثال الثنائي الفائض بالطاقة مثل جولييت (28 سنة)، وماكسيم (35 سنة). تعمل جولييت في شركة إنتاج، أما ماكسيم فمستشار قضائي في شركة. تقول جولييت في هذا الصدد: يكبرني ماكسيم بسبع سنين. أطلب منه العديد من النصائح وهو يسديها إلي بكل طيبة خاطر. أشعر أحياناً - لكن ذلك يخفّ مع الوقت والثقة - بأنه قد يعطيني دروساً كأنه أخي الكبير أو والدي: دروساً في الأخلاق! تزوجت في العشرين من عمري، لكنني أصبحت راشدة. يريدني أن أعمل. هو يعلم أنني سأشعر بالتعاسة إن لم أقم بذلك. لديه الكثير من الطموحات لي أحياناً الكثير الكثير منها! هو يتعاون معي ويسدي إلي نصائح ممتازة. بفضله، تمكنت من المفاوضة على زيادات. يوضح لي بعض النقاط القانونية. أما في ما يتعلق به، فأنا أساعده وأدعمه نفسياً. قصته العائلية ليست واضحة. في حال واجهنا مصاعب مادية، أبذل قصارى جهدي لتحسين الأمور. وعندما يشعر بالسوء، يميل إلى الانطواء على نفسه والتفكير، وأنا أدعه بسلام. أقول له: «أنا هنا إن احتجت إلي». الإعجاب محرك في علاقتنا الثنائية.

من جهة أخرى، لا يتقبّل الشريك المراوغ بالضرورة نجاح الآخر برحابة صدر، خصوصاً عندما يحتل الطموح مركز الصدارة.

كيف يمزج الثنائي السياسي الحب والسلطة؟ بالنسبة إلى ميشال آليو - ماري، وزيرة الدفاع الفرنسية (السابقة)، وشريكها، باتريك أولييه، نائب رئيس بلدية روي - مالميزون، فهما يخصصان لبعضهما لحظات حب ونزهات وعشوات حميمة. يعيش الثنائي السياسي في المقر الوظيفي كي يتواجدا معاً. هل تكون «زوجات الـ ...» سعيدات؟ تصفهن إيران فران بالعاشقات: «بدءاً من إديت دوبير، وصولاً إلى إيزابيل بارنييه، جميعهن يعتبرن أن مهنة زوجهن تعتمد جزئياً على صفاء الجو العائلي (...) ويقوم عدد من زوجات الوزراء بأعمال مجانية، ويؤسسن جمعيات، إرادة منهن لتحقيق الذات. وحدها سيسيليا ساركوزي، لا تخشى الجهد لسحق «عقدة المشرَّف». (ربما أكثر!). عاشقات مازوشيات، إذاً، جميع «زوجات الـ ...» أولئك؟ (...) يلقين نظرات يلتهمها أحد أكثر المشاعر التهاماً: الانتظار (...). يتخيّلن، مهما يكن الثمن، أن بين أوهام السلطة وواقعها، عالماً صغيراً خاصاً بهن، يصنعن فيه لزوجهن، شأنهن شأن كل عاشقات العالم، لحظات للحلم والراحة»[272].

تقول سيغولين روايال لميشال مانسو: تتشابه الجهود التي يجب بذلها من الجانبين. طاقة تفوق الطبيعة، وإرادة شرسة لمعرفة كيفية العودة إلى النقطة الأساسية دائماً. ليست سيغولين متزوجة بفرانسوا هولاند: كنت أرغب فقط في الحفاظ على استقلالي الذاتي واسمي. الثنائي والوفاء ينبنيان. في ما يخص الوفاء، هي تقول: بالنسبة إليّ، من غير المعقول البقاء مع شريك فقط لوجوب البقاء معه، والتقيد بمبدأ الوفاء، في حين أن الحب قد انتهى. انتهاء الحب يعني الانفصال. (...) أنا أعيش وفرانسوا بطريقة انصهارية لأننا نزاول المهنة عينها (...). الأمر محفّز (...). نحن نعرف معنى الحب الحقيقي عندما نتقبل عيوب الآخر، من دون أن نؤاخذه عليها[273].

أسرار عائلة شيراك

برناديت عكس جاك شيراك. «عكس مظهره. هي تعلم ذلك وتتلاعب. يخبرنا صديق حميم للثنائي: «فإذا رغبت في القيام بأمر ما، وتظن أن زوجها سيرفض، لا تخبره به... وتنفذه». ويقول قريب، هي تحب السيادة والصلاة (...). حين سرت إشاعة علاقة زوجها بكلوديا كاردينال في أرجاء باريس، قالت للصحافيين: لمَ كل هذه الأخبار الصحافية؟ أنا لست كلوديا كاردينال أو جينا لولوبريغادا! هذا فن نقل رسائل تصدرها صحف متوسطة (...). وإن برناديت، بفضل ثقابة فكرها في أمور السلوك الزوجي، قد حددت ما يلي: عاد زوجي إلى نقطة الثبات، وأنا قد حذّرته عدة مرات. وفق صديق، تعي «زوجة الرئيس» سحر زوجها، وهي حتى مسرورة لأنه لا يزال يعمل... ولكن الثنائي من جيل أصبح الطلاقُ فيه غير محبذ... العائلة مقدسة! (...) وإن كانت عائلة شيراك قد تمكنت من تخطي مصاعبها الخاصة، فمرد ذلك إلى تشارك قد دام أكثر من أربعين سنة، حياة مضت بأكملها بحثاً عن السلطة. (...) أمام الأصدقاء المقرّبين القليلين، يتهكم جاك «المفعم بالحركة» وبرناديت «الهادئة» على داتيهما بكل طيبة خاطر. يقول شيراك: لا نتمتع، أنا وزوجتي، بالعلاقة نفسها في الوقت اللازم! (...) فبين رئيس الجمهورية وزوجته، هناك سر عائلي آخر ينسج

رابطاً أقوى بكثير من أي روابط أخرى، ألا وهو لورانس. يقول موظف سابق في الإليزيه: هي وثاق الثنائي»[274].

السعي وراء التوازن

تقول إيزابيل، زوجة وزير الشؤون الخارجية السابق، ميشال بارنييه: التقينا في الأول من نيسان/أبريل من العام 1981 عند بعض الأصدقاء، في سافوا. في تلك الفترة، كنت أعمل مع ألان بيريفيت، ورفضت أن أتبعه لتسمية نصب. سمعت أن ميشال ليس بشخص تافه. أحببنا بعضنا من النظرة الأولى، وتزوجنا بعد ستة أشهر. طلب يدي للزواج في البندقية من خلال بطاقة بريدية قد احتفظت بها! كنت أحب التزامه وشجاعته. في التاسعة والعشرين، أحس بشغف حقيقي، وضرورة وحاجة إلى وجود امرأة في حياته. وجدت أنه يتّجه نحو خيار غير بديهي. كنت حينها في السابعة والعشرين. لقد حذّرني والدي من أن الحياة السياسية معقدة. في العام 1981، خلال فترة الانتخابات الرئاسية، شاركت في الحملة على الفور. سنة 1982، وبعكس كافة التوقعات، انتُخب ميشال رئيساً للمجلس العام، وكانت مهمة كبيرة. بسرعة كبيرة، عشت هذه الحياة المليئة بالضغوطات، لا سيما أننا رُزقنا بثلاثة أولاد في غضون سنتين. بدأت أشتكي، إذ كنت أمضي كل نهاية أسبوع وحدي. استمررتُ في العمل. فهمت أن المرأة، عند زواجها برجل سياسي، عليها أن تكون مستقلة إلى حد كبير. وطوال سنين، أكثر ما صعب علي، كان إيجاد التوازن المناسب. مررنا في فترة ستة أعوام لا يعيشها المرء كثيراً. عندما كان ميشال يعود من سافوا، لم أكن أريد إفساد مشاريعي، فلا أرحب به دائماً. فمثلاً، إن كنت حينها قد حضرت لعشاء مع صديقة ما، كنت أذهب. لم أكن أريد أن أبيّن له أنني في انتظاره. كان يعود تعباً، سعيداً بالعودة، وكنت من جهتي، أؤاخذه على غيابه، وعلى عدم تمكني من التكلم معه. كنت أعلم أنه يسمعني ويفكر في ما لو أنه لم يكن يعبّر عن ذلك. أنا المدمدمة في الثنائي! هنا يمكن أن تتدمر العلاقة: قد يعيش كل واحد من جهته من دون مشاركة المشاعر ولحظات الضحك أو البكاء. بعد ذلك، قمنا بتسويات. أرى من الأفضل أن يُنجح المرء حياته العائلية بدلاً من هدم كل شيء. هذا تحدّ، وخيار. من وقت إلى آخر، نختلي ببعضنا لبضعة أيام. ميشال ودود ولطيف جداً. هو بحاجة إلى عائلته. الحياة السياسية آسرة للغاية، قد تُشعر المرأة بالكبت، وبالتالي يجب إيجاد بعض التوازن بين الاستقلال والخصوصية. ونحن حاولنا العمل على هذه النقطة. وشيئاً فشيئاً، نجحنا، وكانت فترة الخمس سنين التي أمضيناها في بروكسيل مرحلة شافية! الضغط الباريسي كان غائباً. أنا سعيدة لعيشي مع شخص يعجبني. أحب نزاهة أفكاره. ما جذبني إليه في السابق، لم يتغير حتى الآن. لطالما وعينا أن كل شيء قد يتوقف بين ليلة وضحاها. ربما ليس بقوة ما بعد تاريخ 29 أيار/مايو، ولغوه. لقد عزز رحيل ميشال من وزارة الخارجية تضامننا. وظل إدراكنا للحياة هو نفسه. نحب أن نطوّر الأمور. نحن بحاجة إلى أن نشعر بأننا نافعان. وهذا أحد محركات علاقتنا.

اللاتماثل

من الممكن أن يتمتع أحد الشريكين بوضع أفضل من الآخر. المهم بالنسبة إليه هو الحرص على عدم جرح شعور من يحرز نجاحاً أقل، كما على الآخر ألا يحسد نجاحات شريكه، أو ينتقدها.

تشغل سوزان منصب المدير في شركة مهمة. أما زوجها، لويك، فمدرّس. هي مديرة على عشرين شخصاً، وتعود إلى المنزل حوالى الساعة التاسعة مساءً، في حين أن لويك يصل إلى المنزل عند الساعة السادسة. هو يعتني بالأولاد ويتابع شؤونهم الدراسية، وهو الأمر الذي يطمئن سوزان. هي مولعة بالدروس التي يعطيها لويك، وبتلاميذه، والحياة المدرسية. بفضله، تغتني فكرياً.

قد تحسب النساء المتزوجات برجال لامعين، أنهن جزء من نجاح الشريك، ويجدن في ذلك مكافأة لهن، مثل زوجات الكتاب اللواتي قد يقلن: «الرواية التي نشرناها». ومع الوقت، يشعرن بحاجة إلى إثبات ذواتهن. يتكلم جان دانيال على شريكته ميشال: «شعرت بحاجة إلى التحرر، وهذا طبيعي. كنت منهمكاً بانشغالاتي، ومسؤولياتي، ونزواتي. (...) الانتصار على الفوارق أهل للتقدير وأهم أكثر من التهاون في التشابهات. لكن ذلك مهمة يومية»[275].

على المدى الطويل، لا شك في أن مشاكل الثنائي تمسي أقل أهمية بالنسبة إلى الذين يجمعون المال والسلطة والمعرفة. هؤلاء الأزواج الأكثر استقلالاً من غيرهم، يتوصلون بشكل أفضل إلى التناسق، بيد أن «الخلافات تتكرر أكثر وتتفاقم أكثر عندما يكون المستوى التعليمي أعلى. (...) تملأ الحياة الحميمة لأهل الثقافة الواسعة مشاكل أكثر من الآخرين»[276]. وعندما يكون أحد الشريكين عاطلاً عن العمل، يواجه الثنائي ذو المستوى الاجتماعي - الاقتصادي الأدنى مخاطر أكثر من غيره. الحوادث المهنية التي ترغم أحد الشريكين على قبول عمل بخس القيمة، تؤدي إلى كبت قوي يؤثر سلباً في العلاقة، في كافة الأوساط.

العمل معاً والشعور بالسعادة

يعمل بعض الأزواج معاً منذ فترة طويلة، وهم قد نجحوا في البقاء سعيدين: هذا وضع رينيه وكورين، والدي الأولاد الثلاثة، واللذين يملكان ملحمة منذ زواجهما، أي منذ إحدى وعشرين سنة، وتعمل والدة كورين معهما. يقول رينيه: المهم هو هذه الالتفاتات الصغيرة والكلمات اللطيفة والهدايا، بالإضافة إلى تفادي الخلافات والتشبث ومعرفة كيفية الشعور بالسعادة. عندما تزوجنا، لم أكن أحب الخردل. فرحت أضيفه من أجل كورين التي كانت تصنع الطعام من دون خردل من أجلي فقط. الأمر جميل. لقد تقاسمنا المسؤوليات. تهتم كورين بوضع الفواتير، وتستلم الصندوق، بينما أهتم أنا بالزبائن. إننا نسلك دائماً الاتجاه نفسه. حين يأتي زبون ما لشراء ثلاثين قطعة من لحم الضأن، ويتحقق من الحساب عند كورين، تسألني إن كانت الكمية صحيحة. مع كل الموظفين والعمل الذي نقوم به، لا نحظى بوقت للتحدث عن الأمور الأساسية، فنفعل ذلك مساءً، في الوقت المخصص للحظاتنا الحميمة. في المنزل، كل منا يقوم بما يحب. تحرر كورين شيكات الموظفين، حتى إنها تحرر الشيك الخاص بي. هي تدير الأمور. قد أبدو عصبياً، لكنني أدعها تقوم بذلك. وعند بروز أي أخطاء، نتصالح في السرير (يضحك). نتكلم دائماً على الأخطاء. نحن كاثوليكيان. أستفظع

الخلافات. وأنا صريح دائماً مع الموظفين. في العمل، هناك حدود لا يمكن تخطيها. في البداية، كنت صارماً قليلاً عند إصدار الأوامر. المشاكل تقلّ مع الوقت.

تقول كورين: نحن نتكامل. في البداية، كان الأمر صعباً. حين ترى الفتاة خطيبها يتحول إلى رجل آخر في العمل، تتفاجأ. الآن، آخذ الأمور على محمل المزاح. ومع الوقت، رحنا نكتشف بعضنا البعض ونتفهم ما نمر به كلينا. المهم هو أن نعرف كيف ننتظر. كبر الأولاد. ولقد علقت جملة في ذهني تقول: «لكل عمر ثماره، المهم هو أن نعلم كيف نقطف هذه الثمار». استخدم والدي رينيه عندما كان في السابعة عشرة، كنت حينها في ربيع العمر.

ويضيف رينيه: كانت كورين بمثابة أختي الصغيرة؛ ثم في يوم من الأيام، اصطحبتها إلى المرقص ووقعت في حبها. بعد زواجنا، أي عند وفاة والدها، أُهديت الملحمة. سمعنا ثرثرات بأنني تزوجت بابنة رب العمل طمعاً في مالها. كان الأمر فظيعاً!

فعلّقت كورين: لكن ذلك قوّانا! ففي كافة التجارب، حافظنا على فسحة من الأمل في داخلنا.

المهمات المنزلية

في 70% من العلاقات، تقوم المرأة بمهمات منزلية أكثر من الرجل، أي بمعدل ثلاثين ساعة أسبوعية مقابل ثلاث عشرة ساعة للرجل... إن كان الأزواج الحاليون يتقاسمون المهمات بشكل أفضل، فهدف الوصول إلى مساواة كاملة قد يؤدي إلى خلق جو من التوتر.

من بين الادعاءات الفارغة الرائجة أنه «على الثنائي تقاسم المهمات المنزلية بالتساوي». بما أن التوصل إلى إنصاف كامل مستحيل، قد يكون الحل الوسط المناسب في تقاسم المهمات، بحسب توفر كل شريك وقدراته وذوقه. قلّما يهم إن عمل واحد أكثر من الآخر، المهم هو أن يشعر كل شريك بالسرور حيال ما يتكفل به الآخر. «علينا احترام مبدأ اللذة. لمَ نغصب الشريك على القيام بما نشعر باللذة في تنفيذه، لمجرد عقابه على عدم تقاسم مهمات بما فيه الكفاية فقط[277]؟» تستلم ميريام مهمة المكنسة الكهربائية. أما جان - بول فينظف البلاط. فطريقة التقاسم أهم من لائحة المهمات. لنتخلص من الأفكار المقولبة: الزوج يعمل، المرأة تعتني بالأولاد... لمَ لا تصلح المرأة المقبسة مثلاً في حين يبدّل الرجل حفاظات الطفل؟ في الواقع، نسبة أكبر من النساء تميل إلى تنفيذ «الأعمال المتعبة». تتقبل سيلفي وضعاً أقل ما يمكن وصفه باللامستقر. هي تحب زوجها كما هو: طونيو ذكوري، شأنه شأن جميع البرتغاليين، لكن ذلك لا يزعجني: اعتدت على الأمر؛ في منزلنا، كان اللوم يُلقى على الفتيات في كافة الأمور، وكن هن من يقمن بالمهمات المرهقة. هو لطيف. إن لم يشأ القيام بالمهمات المنزلية، أو تنظيف الطبق بعد الطعام، فذلك لا يهم.

تسمح المهمات المنزلية بخلق جو من التشارك. لكن ليس بالضرورة. بالنسبة إلى لور، التنظيف مهمة مخصصة للنساء فقط. هذا رأي رجعي للغاية. هي تقول: الأزواج الشبان يتشاجرون لأسباب تافهة. لنتخطَّ ذلك. ليس علينا تحويل الرجال إلى مدبرات منازل. هم لم يطلبوا المساواة! إن

عملت المرأة خارج المنزل، فبالتالي لها وظيفتان. الاعتناء بالأطفال أمر طبيعي! الرجال يحبون الطبخ. لكن ليس غسل الأواني. الأكثر شباباً يهتمون بالرضّع، وهذا جيد! لن نطلب منهم أيضاً غسل الأواني بعد العودة من العمل: صحتهم لا تُعينهم! المرأة أكثر صلابة.

عندما يتعارض مفهوم الشريكين في ما يتعلق بالترتيبات الحياتية، تبرز الخلافات. إن كنتم مهووسين بالمنزل، فبدلاً من أن تستاؤوا، دعوا الشريك يرتّب الأشياء بنفسه: لكثرة التحكم، تنحط عزيمة الآخر. أظن أن النساء، إن قمن بأعمال أقل، يدفعن الرجال إلى تنفيذ المهمات. عندما يشاركون، يبدون كأنهم يقومون بصنيع باهر! وأمام كمّ القمصان غير المكوية، يفضلون رفع الكمّ، أو ارتداء القميص كما هي!

نصائح ثلاث للرجال:

- لا تنتظروا أن تطلب إليكم زوجاتكم التكفل ببعض المهمات، بل قوموا بها من تلقاء أنفسكم تكسبوا كتلة من العاطفة من جهة الشريكة.

- كونوا ليّني العريكة ومتيقظين لحاجات الزوجة. في حال عادت متعَبة إلى المنزل، أعدّوا العشاء، تشعرْ بشيء من الاحترام.

- إن وعيتم أنه من الأفضل المشاركة، فلا تدعوها تلاحظ أبداً، فهذه اللباقة ترفع معنوياتكم.

الوضع المالي

كلما دام الثنائي أكثر، قلّت الخلافات المالية. قد يكون مرد ذلك أيضاً إلى استقرار الثنائي المالي. في الواقع، المال مقياس الثقة المتبادلة بين الشريكين. فالرابط المالي يكشف قلقنا وارتباطاتنا السابقة ومدى نضوجنا. يدير الثنائي المستقل الأمور المالية بشكل أفضل، وهو يحظى بسعادة جنسية أكبر. «المال، شأنه شأن الجنس، له في الواقع وظائف رمزية تتخطى مجرد فكرة إشباع الحاجات الفورية»[278].

المال: كاشف

«يوضّح المال الطريقة التي يبيّن فيها الثنائي الرابط الذي يجمع الشريكين ببعضهما البعض»[279]. حسابان منفصلان... أم حساب واحد. حسابات فردية إضافة إلى حساب مشترك، لكل تنظيماته. تتكلم كارين على الرابط المالي في حياتها الثنائية: هذا موضوع كبير يثير الغيظ. رأينا مختلف في هذا الشأن. الحساب المشترك هو كارثة. لكل منا حسابه الخاص وكل واحد يدير دخله. يدفع فريديريك الإيجار وفواتير الغاز والكهرباء وتكاليف السيارة، أما أنا، فأهتم بمصاريف المدرسة والأولاد والطعام. كل واحد يضع راتبه في حسابه. علينا دفع الضرائب. منذ عطل فريديريك عن

العمل، راح يشعر بالقلق. نهايات الشهر ليست سهلة بالنسبة إلينا. أنا أقبل مواجهة بعض العجز. حتى إننا وضعنا خطط التقاعد، وحددنا رأسمالنا عند الوفاة. هذا موضوع محظور بالنسبة إليه، بيد أنه قام به.

فتح جيل وباتريسيا حساباً مشتركاً، لكن عندما عجزا عن إدارته وحجز البنك عليهما، فتحا حسابين مستقلين. يقول جيل: نحن الاثنين في منطقة الخطر، ما من شيء قد تبدّل! كان الأثر على حياتنا الجنسية واضحاً. أشعر بأن باتريسيا تجعلني أدفع ثمن صعوباتي في جني المال من خلال إجباري على «التعفف». هذه طريقتها في فرض المصاريف عليّ. إن زاد حسابي، ترغب فجأة فيّ!

يقول جاك، وهو طبيب نفساني، إنه قبل طلاقه، كان المال موضوع المناقشات الرئيسي ومسبب الخلافات مع زوجته السابقة: منذ طلاقي وحتى الآن، الأمر أسوأ. لا تأتي ماريا لرؤيتي إلا عندما أحرر لها شيكاً: الأمور واضحة. أحس بأن المال بين الشريكين عامل «خصاء». هو يفاقم عامل الخضوع. إن كان أحد الشريكين لسوء الحظ، يجني كل المال اللازم لإعالة العائلة، وشعر الآخر بأنه مُعال، لا يمكن تفادي الابتزاز الجنسي. كان فرويد محقاً عندما اعتبر أن المال ورطة!

تكشف كافة الخيارات درجة استقلالية كل شريك. تضع سيلفي راتبها في حسابها، ما يسمح لها بشراء الثياب ودفع تكلفة صفوف اليوغا وفواتير المطاعم... هي تضع في الحساب المشترك حصة للرسوم والإيجار. بالنسبة إليها، الحساب المشترك لا يؤمن مشتريات «اللذة». هذا التمييز يسمح بتحديد ما يعود إلى الثنائي وما يعود إلى كل شريك على حدة.

يبيّن طلب المال خضوعاً، كما يُظهر إعطاء المال سلطة. تزيد الحاجة إلى المال القلق. الاقتصاد أو التبذير طريقتان للتصرف، تنمان عن مخاوف متوازية. تجني بريجيت كل المال الذي يُنفق على إعالة العائلة: لقد أُخطرت بذلك. كنت أعلم أنني سأقوم وحدي بكل شيء لحماية باسكال. كنت أظن أن الأمور ستصطلح. صمدت طوال عشر سنين. واليوم، لم أعد أحتمل. عبثاً أدركت أن ناقوس الخطر قد دُقّ، فأنا لا أستطيع أن أتجنب الإنفاق. لا أفهم لماذا عليّ وحدي أن أدهور صحتي، من دون أن أنتفع مما أجنيه. سئمت إلى درجة قررت الذهاب وحدي في رحلة.

لا يجب أبداً أن يزيد رابطنا المالي شعورنا بالذنب. ليس الثنائي بمؤسسة تهدف إلى الربح، بل هو جمعية بشرية. لكن من الغريب أن يسلك الشريك، في بعض الأحيان، عكس طريق الآخر. عندما يأبى أحدهما مواجهة الخطر، يؤدي الآخر دور المراقِب والمنتقِد. لم تكن ناتالي، خلال أعوام زواجها الأولى، تدقق في كشوفات الحساب. كانت تنفق بلا وعي فتجد نفسها دائماً في عجز. وفي كل مرة كان ميشال يتنبه إلى الأمر، تقع الكارثة. كان في النهاية يسدد العجز بعد «جلسة» من المؤاخذات. كان الوضع يتكرر بينهما، إلى حين غيّرت ناتالي سلوكها، فراحت تحسب ما تنفقه. حينها شعرت بالفخر كونها تقتصد. الشريك الذي يأبى مواجهة المخاطرة يكون أحياناً شخصاً قلقاً يجد منفعة سلبية في لعبة التخبئة هذه. لقد تغلبت على ناتالي «غريزة» الشراء، فأحست بالذنب، لكنها تجد «بعض اللذة» في خرق القانون، والاقتراب من خطر حجز البنك. تعيش الحاضر، ولا تصمد في وجه التجارب. بنظرها، يمثل زوجها القانون. هي تنتظر الخلاف وتسعى إليه لاشعورياً.

من خلال المال والجنس، يعبّر كل واحد عن توتراته. الإنفاق بسرعة أشبه بممارسة الحب بعجلة. بالمقابل، التقتّر أشبه بالتروّي جنسياً.

سلطة المال

غالباً ما نرى المسيطر يتولى أمور النفقات أيضاً. لكن ليس دائماً! تفسر أورتانس: نعيش بحسب رأس المال العائلي، أي بمستوى يفوق قدراتنا، كي نخدع الآخرين. الميراث لم يدفع إدوار إلى العمل. في هذا الثنائي، السلطة الحقيقية هي سلطة الوالدين. يكون الثنائي الشاب أحياناً مرتبطاً بالعائلة، لكن حين يطول الوضع يبقى تحت الوصاية.

حتى الآن، نجد العديد من النساء اللواتي يرتبطن مادياً بالشريك، فيشعرن بالدونية. قد نجد أيضاً حالات تجني فيها المرأة راتباً يزيد على راتب الزوج. هنا تنقلب الأدوار. على ميشال أن يطلب مصروفه من زوجته، وهي ترفض إعطاءه المال لتعاقبه عندما ينفق كثيراً. «كي تكون الحياة الجنسية سلسة، يجب أولاً أن تدور السيولة بحرية وتساوٍ أكبر بين الشريكين. قد يكون (المال) أيضاً تعويضاً عن غياب الجنس».

اللاتساوي في الموارد، والشعور بالخضوع الذي يرافقه، لا يؤديان بالضرورة إلى شغر أحد الشريكين مركز قوة في الثنائي. في الواقع، إن كان الاختلال المالي قائماً، يمكنْ لمن يجني مالاً أقل أن يعوض عنه من خلال تأديته دوراً قوياً في العلاقة، واتخاذ القرارات. كاتيا مثلاً، بالراتب الصغير الذي تتقاضاه، تساهم قليلاً في الميزانية العائلية، لكنها تنظم الرابط بين موريس والأولاد وتصدر القرارات في المنزل، وتوفّق بين الأمور، وتلطّف الجو... وما إن يتم الاتفاق، حتى يبدأ الثنائي بالعيش بتجانس. تعمل فيرجيني في شركة تأمين، أما ليون فكاتب. ثمار أعماله أقل مما تجنيه، بيد أنها معجبة به.

المال يطمئن ويعوّض

اللأمان المادي يولّد التوتر، ويضع مدة «صلاحية» الثنائي في خطر. هل الأزواج المعمّرون محظوظون؟ أظن: نعم. هم يقلقون أقل، ويستفيدون من الحسنات المادية التي تسهّل بشكل ملحوظ حياتهم اليومية، وبالتالي تجعل التفاهم بينهم أكثر ليونة ومرونة. قد يدخل خضوع أحد الشريكين المادي في الحساب عند مرور الثنائي في مصاعب عاطفية. تبقى المرأة أحياناً مع الشريك لتشعر بالأمان المادي. كما يسهل عليها ترك المنزل عندما تكون مستقلة. لا يجلب المال السعادة للثنائي، لكنه يعوّض، حتى إنه يسمح بشراء العاطفة والشكر والسكون. باختصار، هو يحدّ من الخلافات. يجد الأشخاص المقتدرون أحياناً لذة في إعطاء شيءٍ من مالهم. هذه طريقتهم في التعبير عن عاطفة يعجزون عن تفجيرها بشكل مختلف. من جهة أخرى، لا يُشبع المال أبداً الحاجات العاطفيةَ. الكثير من المال لا يسهّل الحياة الحميمة بين الشريكين: هما ينفقان، ولا يمارسان الحب. تؤول خسارة الثروة أو انقلاب الدهر أو البطالة أحياناً إلى رحيل أحد الشريكين، ما ينمّ عن خساسة الحب الذي جمع الثنائي.

جنس ومال خلسةً

النفقات المخفية تشبه فسحاتنا الخاصة. فهي إن لم ترتبط بالحياة الجنسية دائماً، توفر المتعة. ينفق بول الكثير للصيد من دون علم فابيان. تخضع أوليفيا لعلاج نفسي مرتين في الأسبوع... النفقات التي نخفيها وتلك التي تعطينا إحساساً بالحرية، تشبه ما نسكت عنه في حياتنا الثنائية. نجد حالات، حيث يمكننا التلذذ سراً، خصوصاً عندما لا يتطلب ما نشتريه مكاناً واسعاً. للطوابعيّون أو عالمي المسكوكات والميداليات، رغبات مكلِفة مملّة بعض الشيء. وفضلاً عن ذلك، الولع بالألعاب يسوق بالثنائي إلى الهاوية. فالبورصة وسباق الخيل واللوتو، كلها ألعاب تشدّ المراهن بطريقة يتعذر كبتها. هو يتمتع «بالوكالة»، ويأمل أن يعلو أكثر عندما يربح أكثر، ويطمح إلى أن يرغب الآخرون فيه أكثر. وفي نهاية المطاف، المدمن على الألعاب غالباً ما يجد نفسه وحيداً غارقاً في الديون.

قد تعبّر المشتريات الإكراهية عن انتقام بعد رفض للعلاقات الجنسية. المال الذي يعطيه فرانسوا لعشيقته، يسمح له بأن يدفع لزوجته نقص الرغبة في داخلها. تمرّ تصرفاتنا اللاشعورية أحياناً بالمال. يريد فريديريك لاشعورياً أن تعلم زوجته بالحقيقة. نسي في جيبه بطاقة اعتماد قد دُوّن عليها اسم الفندق الذي نزل فيه مع عشيقته. إنفاق المال خلسة هو مجابهة لأمر ممنوع، مصدره العائلة أحياناً. كانت والدة ماريان بخيلة كالجاحظ، فاضطرت إلى صرف المال خفية. قد يستمر ذلك حياة بأكملها. ونأخذ أيضاً مثل أديلاييد التي علمت أن زوجها، بعد وفاته، قد ترك ثروته لعشيقته وابنه اللقيط.

نعلم الآن أن صلتنا بالمال تكشف عن مخاوفنا العميقة، وعلاقتنا الجنسية، ومفهومنا للحياة. لا شك في أنه، ضمن حدود الثنائي، من الأفضل تسوية الخلافات، وفسح المجال أمام كل شريك ليعبّر عن قلقه قبل أن يجد هذا الأخير - من خلال المال - وسيلة أخرى ليظهر فيفاقم المشاكل في العلاقة. المال لا يسدد ما لم يتم تسويته. بالتالي، ليس غريباً أن نجد الأزواج الواقعين في هموم مالية، في صدد مواجهة مشاكل في العلاقة أيضاً. النقص والعجز دلالتان على طريقة عيشنا وصلتنا بالمال. من المجدي لنا الموازاة بين فن إدارة الميزانية وفن عيش الحياة الثنائية. حينها، قد نتفاجأ لرؤية أن خسارة الطاقة هي عينها في كلتا الحالتين. علينا توقع حالات العجز المحتملة، سواء أكانت عاطفية أم مادية. للأزواج المعمّرين مخبأ يفيض بالعاطفة والحنان والثقة، أكثر من امتلائه بالأسهم والسيولة. فالمال المشترك في موضع آخر.

الفصل الثالث عشر

تغيير الاتجاه، افتراق الطرق

مع مرور الأعوام، يحدث أن يتحوّل خطر السقوط إلى اشتهاء الهاوية، إلى نشوة السقوط، إلى نزعة إلى فسخ العقد. لكن، قبل تدمير كل شيء، لنأخذ وقتاً للتفكير كي لا نشعر بالندم لاحقاً. هل نقطع العلاقة أم لا؟ بعضهم يتخطى الأزمات أفضل من الآخرين. يؤدي رهن إنجاح العلاقة على المشاعر الغراميّة إلى تقليل فرص دوامها. في وقتنا الحالي، يقطع الناس علاقاتهم بسرعة كبيرة من دون أخذ الوقت للتفكير. بيد أنّ العلاقة لا تستطيع أن تخلَّد إلا بقبول مجازفة الغيريّة. لذا، يجب اعتبار أخطاء الغير كطاقة أولية، وممارسة النقد الذاتي كمصدر نمو شخصي. وكما ينصح ألون غراتش: «تعني تغذية النرجسية الذاتية تعلّم كيفية العيش للذات، وتتجنب التركيز الكليّ على شريك لا يمكنه المساعدة كثيراً من هذه الناحية»[280]. يشعر المعالجون بأن النساء غالباً ما يبذلن قصارى جهودهن لإنجاح العلاقة، ويقمن بالمبادرات لعدم وقوع أي اصطدام. كيف يمكن تفادي اتخاذ قرار على عجلة؟ حتى بعد مرور عدة سنين على طلاق إيزابيل، لا يمكنها تخطي الوحدة والصعوبات الماديّة وعبء تعليم أولادها. هي لا تزال تبحث عن رجل مستقر يسندها مقرّة: حين أرى أزواجاً دامت علاقاتهم على الرغم من مرور الأعوام، واستعادوا ثقتهم ويستمتعون بأولادهم ويعيشون حياة سهلة، أتساءل إذا ما اقترفت خطأً في طلاقي من بول منذ عشرين عاماً.

تجربة فسخ العقد: كيف وصلنا إلى هذه المرحلة؟

من بين الأسباب التي تحثّ على الطلاق، طيش الشباب أكثر فأكثر. فالثنائي الذي ينتقل للعيش معاً بسرعة كبيرة، والذي يكون حبّه متهوّراً، يميل إلى قطع العلاقة بقرار متهوّر. فلا يتطابق الاندفاع مع الدوام. بُعيْد زواجه، أدرك سيرج أنّه اقترف خطأً. كان قد عاش عاماً مع لور، لكنه امتلأ خوفاً فجأة من فكرة قضاء بقية حياته معها. بيد أنّه رضخ للضغط العائلي مدركاً أنّه يقترف خطأً.

أحياناً، يتم اتخاذ القرار تحت تأثيرات عدّة، منها التحليل النفساني. باميلا وكفين متزوجان منذ ستة أعوام، ولديهما ولدان. كفين رجل أعمال طائش يخون باميلا مع نساء أصغر سناً، وقد علمت باميلا بالأمر. في بداية العلاج بالتحليل النفساني، ثار غضبها وأعلنت قرارها لكفين. فرضت عليه في بادئ الأمر إنذاراً أخيراً، وباتت عاجزة عن الرجوع عن كلامها. استأجر كفين شقة صغيرة مع صديقته. وتحوّلت نزوته إلى قصة حب. في داخلها، لا تزال باميلا تحبه، وتأمل أن يعود إليها. لكن فات الأوان! فهي تعتقد أنّها تملك كل القوة، ومتأكدة من قدرتها على الإغواء، لكن كبريائها المجروحة تدفعها إلى التضحية بحبها بدلاً من مسامحته. معظم الأزواج الذين يعيشون معاً لإرضاء انجذاب مشترك فقط، لا يخلطون بين الرغبة والحب فحسب، بل يعرضون علاقتهم للفناء والانهيار بالسرعة نفسها التي اجتمعوا فيها.

في الثنائي حيث يغيب التواصل، وحيث التبادل يستغرق في الإكراه، يمسي العيش معاً إشكالية يسهل التخلص منها. ولو أنّ الضغينة المكتومة والحقد والخلافات تتراكم، فكل شيء بات مُعَداً لانفجار العلاقة. وقد يحدث أيضاً ألا يدرك أحدهما الوضع في ظلّ الراحة الوهميّة التي تقدمها الرتابة: فيكون السقوط من ارتفاع أعلى. يجب توخي الحذر من الأخطار الداخليّة قبل أن تضرب الكارثة من الخارج. فلا يكون العشيق أو العشيقة في بادئ الأمر إلا بوادر. لنتخيّل رجلاً شرهاً. فإذا استطاع أن يسد جوعه في منزله بمأكولات شهية متنوّعة، فمن المؤكد أنّه لن يبحث عن لحم بارد خارج منزله. بالتالي، يجب معرفة الشريك عن كثب لإدراك المخاطر التي نتعرض لها. فالشقّ الصغير في أول الطريق قد يتحوّل إلى صداع هائل. ماريز متزوجة منذ ثمانية وعشرين عاماً من برنار. انتقل أولادهما من المنزل وهي لا تعمل. في إحدى الأمسيات، وبينما كانت تعد العشاء: كريات غنوتشي وسلطة.... خرج برنار لشراء السجائر ولم يعد. في اليوم التالي، اتصل بها: عشيقة، وطلاق!

من بين أسباب الانفصال الأخرى، يركز علماء الاجتماع على الفرديّة، وتأثير المهن المزدوجة، والتمدن، والتنقل، فضلاً عن تحرر القوانين المتعلقة بالطلاق، ونقص المثال، وغياب المراجع المشتركة: «كما هي حال الأشخاص الذين ينتمون إلى بيئات ثقافية واجتماعية ودينية ومتباينة»[281]. إذا يبدو أنّه لا مفرّ من الطلاق في بعض الحالات، فهو يخلف طعماً مرّاً، هو عدم التأثير في شخص... خسارة حقيقية!

أخذ الوقت للتفكير

لقد رأينا أنّ فرص دوام العلاقة تكبر حين تنشأ مجموعة من الروابط الوثيقة بين الشريكين، وحين يكونان هما بنفسيهما بعيدين إلى أقصى حدّ من الأمثلة العائليّة، وحين يتضامنان ويتشاركان في مشاعرهما وشكوكهما. معظم الأزواج المطلقين لم يعرفوا كيفية بناء هذه الثقة المتبادلة، ولا كيفية الحفاظ عليها. فهم يتساكنون ويستهلكون وينتظرون أن يُسعدهم الآخر، ويتفاعلون منفردين، ونادراً كثنائي.

حين يلوح الطلاق، يجب محاولة إنقاذ التقدير المتبادل والحنان. فيعيش الثنائي بطريقة أخرى، فترة خيبة أمل يصعب تحملها لهؤلاء الذين يرفعون المقاييس عالياً جداً، فيجيبون بأنه «لم يعد هناك حبّ، بل صداقة». أجل، لكن الصداقة لا يستهان بها، حتى أنّها قد تكفي ضمن حدود التوافق. فإذا كنا لا نزال نتشارك في لحظات مرح، ونقدر بعضنا البعض، ونتمتع بأوقات مشاركة، فلنتفادَ اتخاذ أي قرار طائش. يجب تقدير عواقب خيارنا. سبق ورأينا أنّ العادة لا تؤدي إلى نتائج سلبيّة فقط، وأنّ مجرد العيش كثنائي يحدد حياتنا اليوميّة، وردود فعلنا، ونظرتنا إلى الغير. لنتصوّر للحظة حياة هذا الشريك التي أصبحت فجأة خاصة حتى لو لم يعد يلبي كافة توقعاتنا، وحتى لو تغيّر. فلنحول العلاقة الحالية إكراماً إلى ما كانت عليه. وقبل كل شيء، لنطرح على أنفسنا الأسئلة اللازمة:

- هل سأتحمل حقاً الوحدة؟ منذ متى لم أعش وحدي؟

- كيف سأتدبر أموري الماديّة؟

- ألا يضمن وضعي الزوجي نوعاً من الحريّة؟

- ما هو دوري في انهيار القصة التأسيسية؟

هل المرء أسعد وحيداً، أو مع حب جديد؟

جميع أصدقائنا المتزوجين يطلّقون من حولنا، ما قد يؤثر فينا في نهاية المطاف. تأثرت إميلي بصديقتها الحميمة، وقالت في نفسها إنها تعيش رتابة: لقد خفّ الشغف بينها وبين ناتان، فلماذا لا تترك صديقتها تقنعها، وخاصة أنها تبدو فرحة كثيراً ومنتشية؟ تشهد كليمانس طلاق زملائها الواحد تلو الآخر. فلوريان يخبرها مغامراته وينصحها بالاستقلالية وبـ «الاكتفاء الذاتي»... الاكتفاء الذاتي، الكلمة الجوهريّة! أن نتحكم في حياتنا؛ أن «ندير» حياتنا؛ عدم الخضوع لكافة القيود التي تفرضها الحياة الزوجيّة! هل هذه خدعة، هل هذا وهم؟ هل نكون أكثر سعادة حين نكون وحيدين؟ ماذا سيتبدل عند تغيير الشريك؟ نتصوّر أنّ حياتنا سوف تصبح رائعة مع شريك خارج نطاق الزواج... لقد انتظرناه وحلمنا به؛ وأخيراً يتخذ قراره. يترك كل شيء من أجلنا. لسوء الحظ أنّ رجل أحلامنا أو امرأة أحلامنا، ليس أو ليست مَن كنا نعتقد. فكيف نواجه خيبة أمل الزواج الثاني: غيرة الأزواج السابقين والعادات الجديدة؟

وقد يحدث أن نجازف في الطلاق... من دون أن يحذو العشيق أو العشيقة حذونا. بعض النساء ينتظرن طوال سنوات قراراً لا يُتّخذ. عندئذ، نكتشف مدى صعوبة العيش وحيدين: فقدان نقاط الإرشاد والبحث عن آفاق جديدة وخيبة الأمل والحنين إلى الماضي... فالطلاق يجرنا إلى فترة حداد. وعلى الرغم من التوتر السائد، نحن نخسر شريكاً، لكن نخسر أيضاً الانتماء الظاهر إلى «مجموعة اجتماعية» يركز روبير نوبرغر على أهميتها. نضطر إلى التخلي عن الأصدقاء المشتركين والعائلة وعائلة الزوج أو الزوجة، وبالتالي نُحرَم من الأمان، فنتعرض لخطر التقليل من قيمتنا والدخول في انهيار عصبي. يشرح روبير نوبرغر أنّ هذا الانهيار في الجهاز العصبي يشكل محاولة يائسة لاسترعاء اهتمام الآخر.

انتقل داميان للعيش في شقة صغيرة. فهو يخرج مع الأصدقاء كثيراً، ويغوي الفتيات ويلهو بطيش، لكن سرعان ما يقطع علاقاته حين تسعى صديقاته إلى العيش معه: ليس مستعداً، ولم يعد يرغب في الارتباط. وقد قطع وعداً على نفسه بعدم تكرار ذلك، لكنه يتحسر في أعماق قلبه على الفترة التي كان يعيش فيها مع بياتريس. كانت نزواته ذات مذاق محرّم، لكن ليس الآن. قررت فيرجيني أن تطلق: لم يكن بول يكسب مالاً كافياً، وكانا في حالة شجار دائم. أرادت أن تستغني عنه ونجحت في ذلك، لكنها لا تنفك تلتقي برجال يعتمدون عليها مادياً. طلقت شارلوت بعد خمسة عشر عاماً من زواجها. أما الآن، فهي محبطة مع ثلاثة أولاد ومن دون عمل. بلغت التاسعة والأربعين من عمرها، وهي لم تلتقِ بعد بالرجل الذي تحلم بأنه سوف يقدّم إليها حياة جيدة.

ماذا نخسر بالطلاق، وماذا نكسب منه؟ «تبديل الشريك لا يعني تغييراً بالضرورة، بل قد يعني بكل بساطة تكرار كبوات قصتنا في مكان آخر. [...] أما استقرار الإطار... فيسمح بالتطوّر. حين يجازف الأفراد في تحويل علاقة ما، تملك هذه العلاقة بدورها القدرة على تحويلهم... نحو الأفضل»[282]. صحيح أنّ القيود تشكّل حافزاً وأنّها قد تلين. ولا يجب أن ننسى البعد الاقتصادي: فثنائي مع أولاد مكلِف، لكن العيش وحدنا مع نفقة يكلّف أكثر بكثير.

الخوف من السعادة

غالباً ما نكوّن فكرة خاطئة عن سعادة الثنائي. فنتصوّر نعيماً دائماً واتفاقاً كاملاً في وقت أن الحياة تتألف من لحظات يجب انتهازها. بعض الناس يرى السعادة في نار الشغف والرومانسية والنشوة والمرح والسفر... بيد أنّها غالباً ما يمكن العثور عليها في أبسط الأمور: الاستماع إلى الموسيقى، وتقبيل الشريك وبينما يغسل الأطباق، والإصغاء إليه وهو يخبر عن نهاره. عمَّ كان يبحث الخيماويون في تحويلهم الذهب إلى رصاص؟ الثراء والقوة والسعادة؟ يعتقد أحد المعلقين على نيكولا فلاميل، أنّ السرّ الكامن في هذا البحث الطويل وهذا التلقين وهذه المسيرة المحوّلة للعناصر، هو بسيط للغاية: فذهب الوقت قد يكون بكل بساطة، السعادة التي تأتي من تشارك حياة ثنائية. ومن الشعور بالسلام، ومن تذوّق عجة بيض بالفطر! ما من تشبيه أفضل لتحديد سرّ الأزواج الذين يعمّرون. لا نخطئنّ في سعينا: فحياة الثنائي ليست بفرسان يبحثون عن الكأس المقدسة، بل رجل وامرأة يسرهما أن يسيرا معاً في درب الحياة. المقصود هو عزل عناصر رمزيّة في حالات تخلو منها ظاهريّاً، كالحبّ الشهواني مثلاً. لا يجب الخوف من الأفراح البسيطة، بل الأولى أنه يجب الاحتراس من تأمل سعادة لا يمكننا الوصول إليها. فنحن نعقّد حياتنا بشكل مبالغ فيه على الدوام، ونخاف الألفة، إن كانت جسديّة أم روحيّة، كما نخاف الضياع، ونخاف أن تُسلب أحلامنا منا بالاستسلام إلى الحبّ اليومي. لا نعطي من ذواتنا لأننا نعتقد أننا نعرف شريكنا حقّ المعرفة. نتصوّر غياب المفاجآت، أو أقله السارة منها. فالفكرة التي نكوّنها عن حبّ مستديم، لا تتطابق مع الواقع. نستوهم كل الأمور، لكن لنحترس من عدم مزجها: فالشاب الذي يتصفح بإعجاب المجلات النسائية التي تعرض مخلوقات فاتنة، سوف يندهش كثيراً بعدم التمكن من التكلم معهنّ. بالفعل، فالعالم الحديث مجتاح بأيقونات اصطناعية ومزيّفة لا تمت إلى الحقيقة بصلة. شرحت مُعالِجة خلال تدريب شاركت فيه، أنّه يجب العثور على رجلنا أو امرأتنا المثالية في داخلنا.

العلاج

قبل الانفصال، لمَ لا يخضع الثنائي لعلاج ما؟ وفق روبير نوبرغر: قد يسمح الخضوع لعلاج بالانفصال بطريقة لبقة. أنا لا أساعد على الانفصال ولا على بذل جهود حثيثة، بل يكمن دوري في تأمين إطار يكفيهم لتكوين فكرة عمّا يرغبون فيه. بالإجمال، هذا الوضع إيجابي إلا في حال الأزواج الذين يأتون إليّ حين يقرر أحدهما قطع العلاقة، باعتقاده أنّ هذا العلاج سيسهل تقبل الوضع. لا أعرف أبداً ما يتوقّعه الأزواج، إذ إن معالجتنا شخصية نكيّفها وفق متطلبات كل ثنائي. نحاول معرفة ما الذي أوصلهم إلى هذه المرحلة، وإن كانت تتوفّر إمكانيات للتغيير. لا أنصح بالخضوع لعلاج ثنائي وعلاج فرديّ في الوقت عينه، إذ يصبح الوضع خطراً للغاية. فمعالج الفرد يدفع نحو الاستقلالية، في وقت يحاول فيه معالج الثنائي إيجاد حلول للعيش معاً. هذا العمل يدوم حوالى خمسة أشهر، أي طوال عشر جلسات. ويوضح روبير نوبرغر: «ما من دور إدانة أو وعظ؛ ما من تدخل غير مطلوب في خصوصية الثنائي ولا في القرارات التي تعود إليه»[283]. ويصرّ على دوره كوسيط يسمح للثنائي بإيجاد حلوله الخاصة.

أخذ الوقت لتقييم الثنائي

يُقترح تقييم الثنائي كل ثلاث سنين من أجل البقاء على اطلاع على تغييرات كل من الشريكين. يُشرح أنّ العلاج يساعد قبل الوصول إلى قرار الانفصال الذي غالباً ما يُتخذ في أوضاع غير مؤاتية، ويؤدي إلى خلافات وغضب وكبت وانهيار عصبيّ وميل إلى أخذ الأولاد رهينة النزاع الأهلي. كما يتوّجه إلى الأزواج ذوي «الظاهر الخدّاع»، أي أولئك الذين لا يريدون مواجهة المشاكل، والذين يشعرون بالعزلة ويغضون النظر عن الأمر. فهنا يدعو العلاج إلى التفكير أكثر من طرحه الأسئلة الفعليّة.

من جهتي، أنصح الأزواج ببذل قصارى جهودهم لاستباق انفصال محتمل. في حالات عديدة، يكون أولئك الذين يتساءلون: «كيف وصلنا إلى هنا؟»، قد بدأوا يواجهون الأمر المحتّم. الأمر شبيه بعض الشيء، بالتوقّف عن التدخين قبل الإصابة بسرطان الرئتين. بدلاً من تعداد ما نقدره أو لا عند شريكنا، لنقيّم أسراره وخفاياه. فمهما فعلنا، يبقَ الآخر مجهولاً. بالفعل، لا يعني علمنا بعيوبه وعاداته السيئة والجيدة أننا على علم بمكنونات قلبه. ألا يمكن أن يكون ذلك بالتحديد ما قد أُعجبنا فيه أم فيها أصلاً؟ هذا الشيء الذي لا يملكه الغير، والذي لم نتمكن أبداً من تحديده. فلنسأل أنفسنا ما الذي أغوانا في الشريك، وسوف نتوصّل بلا ريب إلى تحديد جانب من مظهره أو شخصيته، بيد أنّ هناك المزيد، دائماً المزيد. فالمرأة ليست فقط جذابة وجميلة ومتساهلة: ما يلفتنا هو أبعد من ذلك: أمر تصعب علينا تسميته. فنحب في الآخر ما لا نستطيع تحديده، ضعفه، أو ربما نبرة صوته أو حركاته التي أصبحت جزءاً من ذاتنا.

إذاً، بعد استنفاد كافة الوسائل، قدرنا أنّ الحياة مع الآخر أمست مستحيلة، أو مذلة ومُحطّة، فلننفصل عنه. لإنجاح الطلاق، يجب أولاً أن نشعر بسلام تجاه أنفسنا والماضي. يكتب ويلي باسيني

«من المهم عيش الانفصال بطاقة وعزم وليس بانهيار عصبيّ»[284]، محللاً «استراتيجيات الانفصال» التي تخضع أكثر فأكثر لخيار يحدده البقاء: الخوف من الوداع، ومن الوحدة، ومن الهجر، ومن التجاذب الوجداني، ومن الفناء، ومن الوهن.... يقترح إدخال تقاليد اجتماعيّة تقلّل من الحزن الناجم عن الانفصال. بالإضافة إلى ذلك، لا يُستهان بثمن الانفصال: فالـ «الامرأة العازبة من جديد» تجد نفسها مع مصادر مالية أقل وفرة. «التجدد ليس ممكناً في كل الحالات»[285]. بيد أنّ ويلي باسيني يدرك أنها تستجيب بطريقة أفضل و«تتفادى انخفاض الاحترام الذاتي والانعزال العاطفي»[286].

نصيحة: احترسوا من المحامين الذين يدفعونكم إلى الطلاق، فأنتم مصدر رزقهم!

شهادة حياة: ماري - روز تندم على طلاقها: تزوجت في سنّ الحادية والعشرين من فرانسوا الذي كان يبلغ الرابعة والعشرين. كنا ثنائيّاً غير ناضج. بعد إنجاب ثلاثة أولاد، مررنا في أزمة. كنت ألوم فرانسوا على غيابه وخياناته ودخوله في عالم القمار. التقيت بباتريك، وهو رجل رائع ومثقف أذهلني وأدهشني. كانت علاقتنا كالعاصفة، مليئة بالشغف. قرر أن يهجر زوجته وقررت أن أطلق في التاسعة والثلاثين من عمري. لكن ما إن انتقلنا للعيش معاً، حتى اكتشفت أن باتريك مجنون وهجرته. اقترح زوجي السابق أن أنتقل للعيش معه مجدداً، لكنني كنت حاملاً بشهري الثاني والنصف. اعترف باتريك بأبوّته، لكنه لا يرى ابنه على الإطلاق. أنا نادمة كثيراً على طلاقي: فلا أزال أحب زوجي السابق وأولادي يلومونني لأنني هجرتهم. كنت ضعيفة وغير مسلحة ضدّ الغيرة. خنت زوجي من شدّة يأسي. كنت أملك كل شيء، حياة جيدة، وها قد خسرت كل شيء. كان عليّ أن أخضع لعلاج. أما الآن، فأنا أقيم علاقات... خادعة. باختصار، أنا أعيش حياة ثانية.

إنجاح الطلاق

فكرنا مليّاً في الأمر، وأدركنا أننا لا نستطيع الاستمرار في العيش مع شريكنا. «مات الثنائي حين توقّف قلبه عن النبض [...] فهو عاجز عن الحفاظ على اختلافه وعلى حياته الخاصة وعلى رابط معيّن مع العالم الخارجي...[287] بات كل من الشريكين يركز على مكان آخر: الأصدقاء، عشيق ما، السياسة، المهنة... قد يموت الثنائي لكثرة انطوائه على ذاته. وقد يحدث أن يهرب أحد الشريكين من الثنائي، لأنه لم يعد يجد أي رضا، في وقت يحاول الآخر إبقاءه بشتى الطرائق، لكن من دون جدوى. بيد أنّنا نبقى والدين مهما تكن الأسباب.

المحافظة على علاقة جيدة

من دون الغوص في الإجراءات، أود أن أشدد على احترام الماضي. أحببنا بعضنا البعض وأنجبنا أولاداً معاً. حين يتم اتخاذ القرار، لا يجب «الانتقام» لمجرد الانتقام. «قد ينطوي عمر قصة

جميلة جداً، لكنها سوف تبقى دائماً قصة جميلة جداً»[288].

الأشخاص الذين يمددون الخلاف

«الطلاق تدبير اجتماعي ملطّف، هدفه تحضير الثنائي المنفصل لمحاولة جديدة. يسيء بعضهم الفهم حين يعتقدون أن الطلاق يحل مشاكل الثنائي. [...] فبالنسبة إلى بعض الأزواج، يشكّل الطلاق طريقة لتمديد الخلاف عن طريق إدخال شركاء آخرين: قضاة، محامين، خبراء. حين يتم الحصول على الطلاق، قد يدوم الخلاف لعدّة أعوام من خلال الأولاد الذين سوف يدفعون الثمن. كما لو كانت الكراهية رباطاً أكثر متانة من الحبّ»[289]. يؤدي التلاعب ولعبة القوة إلى أضرار جسيمة. لذا يجب تخطي الحقد والكراهية والإحباط والمرارة للتفكير بعقلانية والتسامح والتفاوض. لنتذكر أنّنا غالباً ما نتصرف كـ «الطفل المغلوب على أمره والغاضب والمستاء»، بدلاً من تأدية دور «الراشد الرزين والمعتدل والمترفع». كاترين تتحرر في بداية إصابتها بسرطان الثدي. دانييل لا يسندها كثيراً. بعد طلاقهما، تنتقم منه عن طريق مضايقته ورفض منحه حضانة الأولاد، وإبعادهم عنه، وفرض خياراتها في ما يتعلق بمدارسهم والمطالبة بتعويضات مالية لا يستهان بها. يخضع دانييل للوضع، ويمسي المسيطر هو الضحية.

يجب المحافظة على مسافة من دون قطع الاتصال. فلنخض الطلاق بصفاء وباعتدال. نحن نطلق لمتابعة حيواتنا وليس للتوّرط في وضع شاق والعودة إلى عاداتنا القديمة.

والدان قبل كل شيء

حتى بعد الطلاق، نبقى والدين. فإذا تمكنا من اختيار الشريك، نختار أيضاً أن نكون والدين (وهذا أكثر مما يمكن أن نتمناه!). هذان الالتزامان مختلفان بطبيعتيهما. وإذا لم يعد الأول يتمتع بميزته اللاانفساخيّة، فلا يجوز التصرّف بالآخر. فعند الانفصال عن والد أو والدة أولادنا، يجب الإقرار، احتراماً لما حاولنا بناءه والذي فشل، بأننا نجحنا في أمر: فأولادنا خير دليل على الحب الذي كان موجوداً. هم يذكروننا بذلك باستمرار. بدلاً من تدمير كل شيء، وتبديد الرابط الزوجي والرابط البنوي، فلنحاول تحويل فشل الزواج إلى توازن وانسجام كي لا يعاني أولادنا كثيراً بسبب خيارنا.

ما من شك في أنّه تصعب رؤية حب يتحول إلى صداقة، لكنه تحدّ تحسن مواجهته. لا يتعلق الأمر بالحفاظ على المظاهر - إذ إنّ الأولاد سوف يكتشفون الأمر عاجلاً أو آجلاً -، بل ببناء شيء آخر: أن نكون قدوة لهم عن علاقة تطورت وتغلّب فيها ضمير الوالدين على الخلافات.

تقبل أن يعيد الآخر بناء حياته

تُعلّمنا تجربة الحبّ أن الآخر ليس ملكاً لنا، وأننا لا نتمتع بأي سلطة على الإطلاق عليه. وفق كافكا، «كل حبّ عنيف». فلنجهد لأن نجعله في بعض الأحيان «عنيفاً بلطفه». هنا تظهر مشكلة حريّة الآخر. فإلى أي حدّ نستطيع أن نصل، ليس لتحملها بل لاحترامها؟ في حال انفصال إرادي أو مفروض، نواجه قراراً لا يكون صادراً عنا بالضرورة. ما العمل غير ذلك، ضمن نطاق المعقول، سوى بذل الجهود كي نستمر في حبنا؟ في كل الأحوال، يجب أن نحب حريّة الآخر في وقت نحافظ فيه على علاقات صداقة مع زوجنا السابق. هنا نلامس أحد حدود الحب الزوجي: لطالما حلمنا بحب مثالي، وبالتالي غير واقعي، وفجأة تفاجئنا الحقيقة، وتسبب لنا خيبة أمل رهيبة. إرغامنا على الانفصال عن الذي نحبه، هو إحدى أصعب التجارب التي قد نمر بها في حياتنا. لكن لا يجب أن ندع فكرة تمكنه من إعادة بناء حياته مع غريبة تدمر ما قد عشناه معاً. هنا، تكمن كل الصعوبة. في معظم الأوقات، نفهم تغيير توجه الآخر كازدراء وإنكار؛ فننطوي على كبريائنا، ولنشعر بالذنب والألم من دون أن نجد القوة لمتابعة احترام شريكنا وخياره. وحده العلاج كفيل بالسماح لنا بتقبل هذا الحداد على أمل أن نستعيد طعم الحياة. لا يجب إنكار الألم الذي نشعر به خلال هذه الفترة، بل يجب تخطيه.

الفصل الرابع عشر

حان وقت الحنان

«لا ينضج المرء بل يشيخ أولاده

يملكون الوقت كي يشيخوا قبل وفاته

وهو يُضحك أولادَ أولاده

أنتِ أولاً وأخيراً لم تشيخي

ولتنيري حبي وحياتي

تحافظين على قلب امرأة جميلة وعارية».

بول إلويار،

A celle qui répète ce que je dis.

نحصد في مرحلة من حياتنا ثمار حياة مشتركة، حيث يهدأ كل شيء. لم نتوقّع وصول سنّ التقاعد بهذه السرعة. نحن مرتاحان معاً، نخطط للسفر إلى البلاد التي طالما حلمنا بها. خرجنا من السباق، لكننا حققنا ما نريده. بيد أنّ هذه اللحظة التي طال انتظارها تقلقنا: فأحياناً تنقصنا الموارد المالية، وتبدو الأيام فارغة. ما هي الأفخاخ التي يجب تجنبها في هذه الحياة الثانية؟ ما هي التجارب المتربصة بكبار السنّ؟ كيف يمكننا الوصول إلى آخر الطريق يداً بيد؟

الأزواج الذين يصمدون «يعرفون كيف يغذون على مرور السنين حواراً يتخطى الرتابة [...]، إلا إذا كمن السرّ في «الدبلوماسيّة العاطفيّة». [...] جهود لامتناهية للتسوية وللبحث عن المسافة الملائمة»[290]. كما أنّهم يصمدون لأنهم قد مروا في تجارب عاطفيّة لم تفلح، وفي فشل

مرير، فيخافون خسارة الآخر. يجب الاستعداد للشيخوخة: «إذا اعتدتم على الاهتمام بالشريك وبأنفسكم، فهناك ما يدعو إلى الاعتقاد أنّ ردحاً ينتظركم، وأنكم سوف تتذوقون فرح التقدّم في السنّ معاً في مكان موثوق به. لربما يعود هذا النجاح إلى بروز حكمة في داخلكم في ما يتعلق بالحب، علامة على نضجكم العميق. [...] فدائماً تجدون الوقت للحبيب. [...] وهو أهم من كل شيء»[291]. وما من شكّ في أنّ العثور على السلام الكامن في الشغف، ومن ثم المشاركة، هما أجمل انتصار على الإطلاق. فهذا السلام ينتشر، ويضفي طاقة لا يمكن إغفالها. إلويار لا يتكلم على أي شيء آخر حين يحتفل بما هو أساسي عن طريق الابتهاج بحضور الآخر.

أفخاخ الثنائي الناضج: النزعة إلى الشبابيّة

إن الرغبة في الاهتمام بالجسم وبالمظهر، أمر مشروع. فالكبار سنّاً يمارسون الرياضة، والنساء بينهم يبذلن جهوداً حثيثة للمحافظة على رشاقتهن والبقاء جذابات، وصولاً إلى انجرار بعضهن وراء الجراحة التجميلية التي تعرضهنّ لخطر تحويل أوجههن إلى جوسلين ويلدنستاين، المرأة النمر. بيد أننا نواجه تناقضاً مرتبطاً بالتقّدم في السنّ، إذ إنّ النساء «يتخلّين عن جنسيّتهن من ناحية، ويثبتن أنوثتهنّ عن طريق عمليات شدّ الجلد والحميات المنحفة من ناحية أخرى»[292]. بعد نزوات منتصف العمر، يستهوي «الشباب» الرجال أحياناً، وعدد متزايد من النساء أيضاً! من البديهي أن هذه النزعة مرتبطة بالخوف من الشيخوخة والحاجة إلى الإثبات لأنفسنا أننا لا نزال قادرين على الإغراء. من المؤسف خسارة علاقة بأكملها جراء نزوة عابرة تهدف فقط إلى طمأنة ذواتنا وقدرتنا على الإغراء.

الأزمة المرتبطة برحيل الأولاد

من دون الأولاد، يجد الأزواج الكهول أنفسهم وحيدين وجهاً لوجه، فتمسي الوجبات حزينة والأمسيات طويلة. وقد يحدث أن أحد الشريكين لا يعود يحتمل هذه الحالة، فينطوي على ذاته، أو يهرب من الواقع. وفي انتظار زيارة الأولاد، يسعى كل من الشريكين إلى ملء هذا الغياب والفراغ العاطفي. فقد ركّز الثنائي كثيراً على الأولاد إلى درجة أنّه أهمل نفسه. بيد أنّ الوقت قد حان لتقبل عمرنا، وللاعتراف بالنجاح الذي حققناه في حياتنا، ولعدم انتظار الكثير من الإشارات العاطفية من أولادنا. فلا شيء أسوأ من اللوم حين لا تظهر هذه الإشارات! لنعش أخيراً لأنفسنا. فكم يثير إعجابنا الأشخاص الكبار السن الذين تملأهم الحيوية وحب الاطلاع!

حين تتدهور الصورة

الموضوع شبه محرّم، لكن كيف يسعنا تقبل الشيخوخة؟ «يصعب تحمل رؤية الآخر يشيخ، إذ إنّه يعكس تقدمنا في السنّ. فيُعتبر تدهور صورة الغير وواقعه كخيانة واعتداء في الوقت

عينه: خيانة لأنه لم يعد الشخص الذي أحببناه؛ واعتداء إذ إنّه خير دليل على أنّ الزمن يقوم بواجبه والأمر يعنينا مباشرة...»[293] يعيش الأزواج الذين عبروا مسافات طويلة تجربة ضياع الذات. لكن القلب يبقى شاباً، حتى ولو تغيّرت الصورة. أولئك الذين تعلموا كيف يصمدون في وجه الزمن غالباً ما يحافظون في أعينهم على شرارة أولى لحظات الحبّ، وبالتالي فالروح تقاوم كافة التجاعيد!

طلاق الأشخاص الكبار في السنّ

لا تنفك ظاهرة جديدة تنتشر: طلاق الأشخاص الكهول. والأسباب؟ «يعتقد الرجال والنساء أنّهم قادرون على عيش أكثر من حياة واحدة...»[294]. وحتى لو تمكنوا من البقاء على الصراط الصحيح، ينتابهم شعور بأنّ حقبة من حياتهم على وشك الانتهاء. يحدث كل شيء كأنه وجب انتظار زواج الأولاد لاتخاذ قرار كان مستحيلاً حتى هذه اللحظة. لربما لاك الشريك لجامه طوال أعوام منتظراً اللحظة الملائمة لهجر الآخر. وها هو يعبر عن قراره: في الواقع، كان هذا القرار متخذاً منذ وقت طويل، لكنه لم يكن الوقت أبداً ملائماً لوضعه موضع التنفيذ. ويستغرب الأولاد: يعتبرون أنهم المخطئون، إذ كانوا يدركون الوضع لو أولوا والديهم اهتماماً أكبر.

الانغلاق والمرض

غالباً ما يتبدّل الشريكان في وجه التغييرات، ويشعران بالوهن والعزلة، ويخف اعتبارهما الاجتماعي، فيختبئان في منزلهما، ولا يخرجان منه كثيراً، ولا يتغذيان كما يجب. في هذا الإطار المنغلق، تنفجر الخلافات وتكثر المشاجرات لأي سبب تافه. قد تعبّر المشاكل الصحيّة عن انزعاج: زكام، شتاء، صداع، كلّه يهيئ للانفصال.

حين يرحل الشريك

العيش مع الآخر، العيش للآخر، طيلة العمر، يعني التسوية وأيضاً التضحيات. كثيرون هم الأزواج الصامدون الذين واجهوا ألم خسارة الآخر. الملازمة ليست واجباً، بل أمر طبيعي بالنسبة إلى شريكين أحبا بعضهما البعض. فلا ترد حتى فكرة ترك الآخر وحده. فهما يرغبان في العيش معاً حتى نهاية الطريق. أحد أجمل أدلة الحبّ التي يمكننا تقديمها إلى شخص، تركه يرحل وإيجاد القوة في ذواتنا للبقاء. فمهما بلغ عمرنا، فلن نكون أبداً مستعدين لتجربة خسارة الشريك. يغض عصرنا النظر عن الموت، كأن هذا الاحتمال لم يعد يشكل جزءاً من حياتنا. في الهند، كانت الأرامل ينتحرن في السابق، كنا نلبس ثياب الحداد. أما اليوم، فنخجل من الموت. لا يمكننا تحمل فكرته. حين يرحل حب حياتنا، نشعر بضياع ووحدة وعزلة عن العالم. فكيف نتابع حياتنا على الرغم من ذلك؟

إنهاء الحداد

«نتعلم الفوز، لكننا لا نتعلم الخسارة. بيد أنّ الحياة سلسلة من التغييرات والخسائر»[295].
في عصرنا الحالي، كل شيء يدفعنا إلى إنهاء الحداد بأسرع وقت ممكن، لكننا بحاجة إلى عيشه مليّاً كي نتمكن من النهوض مجدداً. كل شيء يذكرنا بوجود المتوفى. فنحن نعيش بين أغراضه. فرشاة أسنانه لا تزال هنا، كأنه سوف يعود في المساء. نتوه في المنزل، ونواجه المُبهم. لا يمكننا الاعتراف بفقدان شخص كان أقرب من ذاتنا إلينا. ننتظر أي إشارة منه، لكننا لا نجد تعزية إلا بالأحلام والتأمل وتشجيع الأصدقاء. لكن لنتأكد من أمر واحد: الشخص الذي يفارقنا يريدنا سعداء.

الزواج من جديد؟

الأشخاص المتزوجون منذ فترة طويلة يتهيئون للمحتّم. بول وجانين يأملان أن يلفظا أنفاسهما معاً. أما الذين يُفرض عليهم الموت في دروب الحياة من دون أن يتهيأوا له، فيعيشون هذه التجربة بصعوبة قصوى. في كافة الأحوال، تظهر مشكلة الترمّل والزواج من جديد. في بعض الحالات المحددة، يمتد الحداد طوال حياة تتحوّل إلى عبادة ذكرى المحبوب. فيصبح الشريك فجأة مثالياً، ونكافئه بكافة السمات التي لم يكن يملكها في حياته. أما بالنسبة إلى آخرين، فيكمن المخرج الوحيد من الرزوح في إعادة بناء حيواتهم.

غالباً ما تستند قدرتنا على الانطلاق من جديد، إلى توازننا الداخلي واستقلاليتنا. لا يمكننا أبداً إعادة بناء حياتنا كما نودّ. فغالباً ما يصعب على الأشخاص المحطمين تخطي رحيل شخص عزيز على قلوبهم. عاش بول وكاترين أربعة وستين عاماً من الحياة الزوجيّة الرائعة، ورُزقا بأربعة أولاد. تخبر ابنتهما ماريز: كان والدي متسلطاً كثيراً، لكن أمي كانت تتقبله. كان زواجهما مدبراً، لكنه تحوّل إلى قصة حبّ... حبّ خالد. ثنائي وثيق. كان أبي معجباً بسمات أمي الفكرية. كان قاضياً، لكنه يعلم تدبر الأمور في المنزل. أُصيبت أمي بمرض باركنسون: كان الأمر رهيباً، خصوصاً أنّها كانت عازفة بيانو بارعة. فانطوت أصابعها نحو كفها. كان والدي يعشقها، فيقبّلها ويقول لها أجمل كلمات الحب. بعد وفاتها، كان يناديها كل ليلة. أراد اللحاق بها. توفي بعد فترة قصيرة.

في معظم الأحيان، يكون ردّ فعل النساء أفضل. فعند وفاة والدي، انتقلت والدتي من ألزاس للعيش في باريس. عاودت الاتصال بأصدقاء طفولتها، وتسجلت في جمعية قدامى كليّة المهندسين حيث تابع والدي دراساته وأخذت تذهب معهم في نزهات. بعد وقت قصير، تعرفت إلى زوجها المستقبلي وأُغرمت من جديد، وانتقلت للعيش معه. غالباً ما يسهل على النساء السعيدات في علاقاتهنّ الوقوع في غرام جديد أكثر من العازبات المتصلبات، إذ إنهن قد عشن تجربة حياة الثنائي، في وقت أن العازبات يجدن صعوبة في التأقلم. تفكر أرامل كثيرات في الزواج من جديد، غير أنهنّ يخشين أن يجرحن مشاعر أولادهن فيضحين من أجلهم. تنتظر لورا أولادها على الغداء في كل نهاية أسبوع. فتقول: إنهم عزائي الوحيد.

في حال فصل الموت بيننا فلنتعلم كيف نبقى على قيد الحياة، ونحبها، ونستفيد منها، وننفتح ونقوم بمشاريع. لمَ لا نتابع رحلتنا في الحياة مع شخص آخر؟

فنّ التقدّم في السنّ معاً: حب الاطلاع

لقد فهم الإعلانيون الوضع تماماً، إذ ضاعفوا الإعلانات الموجّهة إلى المتقاعدين. قد تكون هذه الحقبة الجديدة فرصة لتطوير اهتمام وُضع جانباً لفترة طويلة: صف عن تاريخ الفن أو ورش عمل للرسم أو التلاوة أو الكتابة أو العلوم أو علم الأنساب أو الخطاطة أو علم الفلك أو اللاهوت أو الموسيقى أو الرياضة أو اكتشاف الحضارات... فلمَ نحرم أنفسنا؟ يبقى كبار السنّ الذين يغيّرون أسلوبهم نشيطين ورياضيين ومغامرين، وساعين دائماً إلى أهداف جديدة. كما أنّ العلاقات الخارجية تهم كثيراً: العائلة فضلاً عن الأصدقاء وجامعة الكهول والسفر مع مجموعات والقيام بنزهات واكتشاف بلدان غريبة. يكمن المفتاح في تغيير الموقع، وتفضيل اليمن على بيت جبلي في كروز! حان الوقت للعيش بحريّة، كما فعلت والدتي في الستين من عمرها، حين ذهبت تمشي في قمم الأطلس، واستفادت من كافة ملذات الحياة: نبيذ طيّب وأطباق شهية وثمار من الحديقة وأزهار وضحك الأولاد... قبل أن يتغلب عليها مرض السرطان[296].

ممارسة الحب والتلذذ بالحياة

من المؤكد أنّه يمكننا الحفاظ على حياة جنسية نشيطة لفترة طويلة... فالفياغرا والعلاجات الأخرى تحمل مفاجآت سارة! وقد تطوّرت العقليات كثيراً في هذا الشأن. فلم تكن النساء من جيلي يتخيلن أمهاتهن ولا جداتهن بهذا النشاط! لم يسمح تقدّم الطب والعلم بتمديد الحياة فحسب بل بتمديد النشاط الجنسي أيضاً. فليس على الأزواج المعمّرين الرضوخ للخيار المأساوي الملازم للسنّ المتقدّمة، ولا رفع الرايات البيضاء أمام التعفف التام والاستسلام. في عصرنا الحالي، تم تطوير حلول طبيّة مكيّفة وفق كل حالة على حدة. ويخبر عدد متزايد من الأزواج أنّهم يمارسون الحبّ من سنّ الستين وصولاً إلى... التسعين كما كانوا يفعلون في شبابهم! اطمأن هوبير كثيراً، بعد أن خضع لجراحة تجسير قلبي ثلاثي، حين بُلّغ بوضوح أنّ العلاقات الجنسيّة ليست ممنوعة عليه! وفق ويلي باسيني، يستطيع الرجال الذين يقيمون علاقات جنسيّة في سنّ متقدمة، أن يعيشوا نوعاً من «التحرر»، كما أنّ ممارسة الحب مفيدة للصحة الجسدية والمعنويّة! وبالإضافة إلى ذلك، فهو يؤكد أنّ الأزواج الذين يتمتعون بالاستقرار يشعرون بحالة نشطة أكثر من غيرهم. بيد أن أفضلية الأزواج المعمرين هي أنّهم تعلموا أيضاً كيفية تحويل علاقاتهم الزوجيّة إلى شراكة تفيض حناناً. لا نخافنّ من معانقة الآخر ووضع رؤوسنا على كتفه وتقبيله وتدليكه. فهو يتشوق إلى هذه الحركات، فضلاً عن أن الحنان غالباً ما يوقظ الرغبة.

لنعرف كيف نشكر الآخر ونعبّر له عن تقديرنا لاهتماماته الصغيرة. لنستمر بنعته بأسماء رقيقة تعجبنا. فالفسحة التي تخلق في علاقتنا لا تعني بالضرورة تحوّل هذه العلاقة إلى مجرد صداقة. بعد عشرات السنين من الحياة المشتركة، نتعجب حين نرى الثنائي لا يزال يشكّل كياناً واحداً. فما من حاجة إلى شرح المقصد للتفاهم، إذ إنّ الآخر يعرف عادات شريكه الصغيرة وأشياءه المفضلة وذوقه في الأكل بسهولة. بل على العكس، يستفيد من الوضع ليستبق رغبات شريكه ويسهّل عليه حياته. حتى الملاحظات لم تعد مكدرة. فكل من الشريكين يعرف الموقف الذي عليه اتخاذه:

فهو تارة يصبر، وطوراً يسوّف. يبدو جيرار وماريان، المتزوجان منذ أربعين عاماً، كأنهما يتشاجران في معظم الأوقات. لكن جيرار يوضح: الأمر شبيه بعض الشيء بلعبة ورق بانيول: نتشاجر لأننا نعرف بعضنا البعض، لكن من دون عواقب. أحب أن تحسنني. أما أوديت وجاك، المتزوجان منذ واحد وخمسين عاماً، فيخبران خياناتهما بضحكة! ما يبرهن أنّ العلاقة التي تصمد في وجه الصعوبات يُكتب لها الصمود. تبوح أوديت: آخذ حذري من النساء اللواتي يشبهن رومي شنايدر، إذ إن جيرار لا يمكنه مقاومتهن.

من المهم أن نشعر بأننا مرغوبون مهما بلغت أعمارنا، فجسم الآخر يسمح لنا بعدم إضاعة ذاتيتنا، وبالبقاء على اتصال مباشر بالواقع وبالإحساس.

«معاً فقط، نقطة على السطر»

بعد القمم المثلجة والصحاري والأزمات والتجارب، ها نحن معاً، نعيش بطمأنينة وسعادة في وجه كل شيء. لم تتغلب علينا المحن ولا الشدّة. وقد ساعدنا وجود شريكنا إلى جانبنا على التحلي بالليونة. فحين تعرفنا إليه كان نافد الصبر، أما الآن فهو يأخذ وقته. كان عصبيّاً، أما الآن فهو يتصرف بهدوء. باختصار، لقد زاد حناناً ولان وصُقل. نقيس المسافات التي اجتزناها بشعور من الإنجاز يريحنا ويبهجنا. نفتخر بتخطي كافة الأزمات وبقدرتنا على الصبر، وبتطورنا. وشريكنا خير شاهد على مراحل حياتنا. هو حياتنا الشخصيّة. الأزواج المعمّرون يملّون الآخرين، أو يُضحكونهم، إذ يميلون كثيراً إلى رواية قصصهم وذكر مراحل حياتهم التي أثرت فيهم. هم يشكلون مثالاً من دون علمهم.

ماري - كلير ودونيس، المتزوجان منذ ستة وخمسين عاماً، لا يزالان يعيشان قصة حبهما. حين يمشيان يداً بيد يتفاجآن برؤية الابتسامات حولهما. كانت ماري - كلير في الثامنة عشرة من عمرها حين تزوجت بدونيس. بنيا حياتهما معاً. كلما نتجرد من أنفسنا، نتجرد بكل بساطة [ضحك]، كلما سعينا إلى اكتشاف الآخر، نبني علاقتنا أكثر فأكثر، حتى ولو لم يتعاون الآخر على الفور. هذا الحب المشترك، هذا السرّ يكبر بالتواصل. يجب تقبل الآخر بالصيرورة. لا يجب التقليل من شأنه أبداً، بل يجب رفعه عن طريق الإيمان به. هذا ما يفعله السيد المسيح معنا. لا مفر من اللحظات الصعبة، حتى بين ثنائي معمّر مثلنا. بيد أنّه يجب مواجهة الخلاف، وليس محوه بالصمت عن طريق التظاهر بأن كل شيء على ما يرام. فالصمت يعني موت الحب الذي يربط الثنائي. نكرّس أوقاتاً نسميها «واجب الجلوس»، أي نخصص وقت مواعدة مساءً ندوّنه في مفكرتنا، فنهيئ جوّاً من الإصغاء تحت أنظار الرب. في هذه الأثناء، لا نتشاجر. لا نتكلم تحت تأثير الغضب أو نفاد الصبر. نتكلم بصراحة ونحاول التحليل. يمكنني أن أقول لدونيس: «لقد شعرت بأنك قللت من احترامي حين قلت لي كذا، أو علمت أنك قلت كذا بشأني، قلته لأحدهم وجرحت مشاعري...». نتكلم بهدوء تام ونشرح آراءنا. ليس من الضروري أن تكون المرأة هي من يحث على الحوار. فنحن نفعل ما نشاء برجالنا! نعطي قبلة كبيرة، ونقدم ذواتنا بشكل كامل في الفراش! الأمر على ما يرام من هذه الناحية بيننا! أقول ذلك بصراحة. إنها علاقة حب وحنان. وحركات الجسد مهمة للغاية. فهي تجدد للعلاقة على الدوام! نحن بغاية النشاط. لا نزال مغرمين ببعضنا البعض! يلاحظ دونيس حين أبدل ثوبي ومتى تكون تسريحتي جيدة أم لا. نصلي كل يوم معاً ونتلو تسبيحة البتول. الحب العميق يدفعنا نحو

الآخر. نحن نشارك كثيراً في الأنشطة الاجتماعية، وأحياناً أشارك فيها وحدي حين لا تهم دونيس. أذهب أحياناً إلى الحج. كل منا يغني الثنائي على طريقته. المسيح يعيش في حبنا. لو لم نملك الإيمان، لكان صعُب علينا تخطي وفاة أولادنا الثلاثة: إنهم في كنف الله. قدمنا العزاء إلى بعضنا البعض. درست علم النفس وأنا عضو في جمعية «الأزواج والعائلة»، حيث يفتح أزواج كثيرون قلوبهم لي. الوحدة مدمّرة: يجب التكلم مع أحد وإخراج ما في دواخلنا. يجب بناء الجسور للتواصل. وكي يتمكن الآخر من إعطاء حبه، يجب أن نظهر أننا بحاجة إليه. والكلمات تساعدنا على التعبير: «أحتاج إليك؛ لو لم تكن هنا لما كنت ما أنا عليه». لا أفصح عن كل شيء إلى زوجي، بل أبقي في قلبي الأسرار التي يبوحها الناس لي. لقد كنت أعرف والديك يا إمانويل: كانت والدتك تذوب كالسكر حين ترى نظرة والدك! كما لو لم تكن موجودة إلا بنظرة الحب هذه. كان ذلك بالوجود وليس بالفعل.

عاشت مارت، المتزوجة منذ أربعين سنة، والأم لأربعة أولاد، فترات صعبة جداً مع زوجها. عندما أصبحت على شفير الطلاق، أدخلت زوجها في جمعية «رونوفو» (تجدد). هي مستشارة في المسائل الزوجيّة، وتعتقد أنّ عالمنا ينقصه شهود عن الحب المعمّر يقولون: «سلكت هذه الدرب، إنّه يستحق العناء». معظم الأزواج لا يميّزون بين مشاعر الحب والمشاعر الزوجية. يمكننا توفير وسائل، لكن هناك ماضياً طويلاً: كافة الجروحات. أنا أؤمن بالعلاج النفساني، لكنني أؤمن أيضاً بأن المسيح، الذي شفى أعداداً وأعداداً، يمكنه أن يخلصنا. فلقاء الله هو السعي الولهان إلى تعلم الحب. حين نكون قد واجهنا الخيانات ومشاعر الحداد، أين الملاذ؟ لقد خلصني إيماني! حين خسرت كل شيء بيني وبين زوجي، تضرعت إلى الله وقلت له: «لا يهمني إن خلقت العالم، إذا لا تستطيع أن تخلص زواجي!». واستجاب الله لصلاتي. شاركنا في رياضات روحيّة ومن ثم في جلسة Cana couples، وكانت التجربة بمثابة شفاء داخلي حقيقي. نظر إلي زوجي وأخذنا نتكلم. كنا قد خسرنا كل شيء: الفرح ومعنى حياتنا والحب. فساعدتنا المجموعات الربانية على إعادة بناء حياتنا. والآن، حين ألتقي بهؤلاء الشبان الذين ساعدتهم، يعترفون: «لقد كنت على حق حين نصحتنا بالصمود!».

سولانج (78 عاماً)، وجاك، (85 عاماً)، متزوجان منذ 57 سنة. التقيا في العام 1946 في الجبل في فندق عائلي. كانت سولانج تتعافى من معاناة أصابتها حديثاً بينما كان جاك قد خرج من خمس سنوات أسر. خطبا بعد خمسة عشر يوماً. تخبر سولانج: كان الأول والوحيد. الحب لا يمكن تفسيره: «أنتَ السبب، أنا السبب»! خلال الأعوام الأربعة عشر الأولى من زواجنا، لم أحمل. كنا نعيش في دوامة من خيبات الأمل. وبعد الخضوع لكافة أنواع العلاجات، وُلد ابننا كريستوف. بيد أنّ سيارة صدمته في سنّ السادسة. كنت قبل عام قد أنجبت ابنة مغلية، جيرالدين، أصبحت اليوم في الثامنة والثلاثين. لقد تخطينا كل هذه الصعوبات معاً. جيرالدين محبة للغاية وتملك حس فكاهة رائعاً. تعيش معنا وتشارك في نشاط تطوعي. أنا وجاك قمنا بكل شيء معاً طوال حياتنا: تعلم الصيد، وهو يشاركني في مجموعات قراءة ومسرح ولعبة البريدج. لطالما تأملنا إيماننا لنعيشه. أنا لدي ارتباطاتي الخيرية ولا أزال أمارس كرة المضرب! أما الآن وقد حلّت الشيخوخة، فقد بات زوجي يتعب وينسى أموراً كثيرة. أفقد صبري في بعض الأحيان. أمسى الوضع أقل انسجاماً مما كان عليه، لكننا عشنا حياة سعيدة للغاية! من الناحية الجسدية، لطالما كانت الأمور تسير على خير ما يرام. أما

في الستين، فتوقفنا عن ممارسة الحب: بيد أنّ الحنان لا يزال موجوداً. نتناقش بما هو أساسي، لكن جاك عقلاني ولا يغالي في التدقيق. حين نتخذ قراراً يحترمه. وجدت بالقرب من الأصدقاء تبادلاً أكثر حميماً، ولا سيما رجل حساس ورشيق وأنثوي بعض الشيء يعرف زوجي. كان التقاؤنا روحياً وفكرياً وأسعدني كثيراً. كانت صداقتنا مفاجئة: كان الناس يروننا معاً كثيراً! غير أنّ زوجي يثق بي ثقة تامة. فبيننا وفاء كامل: صمدت في وجه النزوات احتراماً له؛ احتراماً للعهد الذي قطعناه، ولأنه كان يستحق العناء! جميع أصدقائنا الحقيقيين يختفون. إذا رحل زوجي قبلي، فسوف أعيش في ذكراه من دون بكاء أو تحسر! اعتدت على عيش كل الأحداث بكرامة. أظن أنّ حيويتي وتفاؤلي ينبعان من الحب الذي حضنني به والدي الرائعان.

الأجداد الشباب

يجب ألّا ندع الشيخوخة تؤثر فينا. ثمة نساء عشن قبلنا، مضحكات جداً كما في الأفلام. لا يجب أن نفرض على أنفسنا التزامات عائلية. فإذا رغب الأولاد في رؤيتنا، نِعْمَ الأمر. وإلا فلنشغل أنفسنا إلى أقصى الحدود ولنستمتع بوقتنا. «الأجداد في يومنا الحالي يتمتعون بعلاقة أكثر لعبيّة مع أحفادهم... لسعادة هؤلاء الأخيرين الذين يسرهم أن يحفظ أجدادهم ذكرى طفولة أهلهم. فكل هذه الأجيال قبلهم تمنحهم ثقة كبيرة»[297]. لم تعد فكرة الجد أو الجدة متعلقة بالتقدم في السنّ، ما ينعكس بوضوح على التصرف الجنسي. فوجود الأحفاد يدل أكثر من ذي قبل على الحب النشيط وحيوية الأجيال وشاطئ الحياة الذي يبقى أن نسلكه، والذي لا ينفك يمتد اليوم.

كيف يتخيلون أنفسهم يتقدمون في السنّ

فرامبواز امرأة شقراء تبلغ من العمر خمسة وأربعين عاماً، ترى نفسها تتقدم في السنّ مع جان - ماري: أتخيلنا محاطين بأحفادنا. سيُضحكهم وسيكون قريباً جداً منهم. سنستمر في الوقوع في الهفوات نفسها. سنسافر أخيراً ونطوف العالم بأكمله! فمن الجميل أن نتخيّل أنفسنا جالسين بالقرب من المدفأة مع شريك حياتنا، لكن بعض الناس لا يتحمل هذه الفكرة ويفضل الحفاظ على صورة ثنائي مليء بالحياة. فرانشسكا تعيش مع ماركو منذ ثلاثين عاماً، كل منهما في شقته الخاصة، فتخبر: «تخيفني الشيخوخة. لا أرغب في أن أرى ماركو كما لو أصابه الخرف. لا أودّ أن نعبر السبعين إلى التسعين من عمرنا ونحن نحتسي شراباً ساخناً، وجهاً لوجه. أفضل أن نستمر في العيش كما نحن عليه الآن، كل في منزله. لا أحبذ أن أعيش حتى عمر متقدم كثيراً. أريد أن يفصلنا الموت قبل أن نصبح ثنائياً معمراً. لقد بقينا ثنائياً شاباً يتشاجر.

يرى ويلي باسيني منافع كثيرة لحياة الثنائي المعمر: «فعلاقة أحادية الزواج هي أكثر اقتصاداً من تعدد الأزواج [...]، والمشاعر الإيجابية تحسن الإدارة المالية إلى أبعد الحدود»[298]. بيد أنّ سر الذين يختارون البقاء معاً يعتمد على موقفهم تجاه التقدم في السن. باختصار، هي حكمة تكمن في التقدم في السن بشكل أفضل لأننا معاً، وفي النظر إلى هذا الخريف على أنه موسم ابتكار،

وإحدى أجمل لحظات الرحلة. وبدلاً من التذمر، يعرف بعضهم كيف يماثل الأوجاع الصغيرة، ويواجه، ويتعلم، ويبتكر، ويحب الشريك، ويفاجئه بعد كل هذه الأعوام، ويضمّه إلى صدره... في نهاية المطاف، سوف يتقبل الأزواج، معاً وبسلام، ما ينتظرهم. وكما كانت تقول لي ماري دي هانازيل: حين تقترب الساعة، يخاف أولئك الذين يؤمنون أحياناً. وحدهم الذين أحبوا كثيراً يتخلون عن الحياة بسهولة أكبر. هل الحب يندرج في إطار الأبدية؟ تخبر غلوريا التي تحب زوجها: أظن أنّ علاقتنا تتخطى الحياة على هذه الأرض. أما في Sublime Amour، فتكتب صوفي فونتانيل: «يفيد الزمن الحب، إذ إنّه يرسل بالاتجاه المعاكس كل ما اصطدم بجدار الموت، تماماً كأمواج صاخبة. أما الرغبة التي تموت مع الوقت، فتعود إلى عدم امتلاكنا سوى رغبة واحدة وعدم امتلاكنا رغبة الزمن»[299].

صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

سلسلة العلوم

د. كريستين نصّار

- اتجاهات معاصرة في العلاج النفسي
- التوحّد
- كيف تواجه الاكتئاب؟
- كيف تؤكد ذاتك؟
- واقع التّربية في المجتمع الشرقي المعاصر
- الوسواس

د. معين حداد

- إشكاليّة المكان
- التغيُّر المناخي
- الجغرافيا على المحكّ
- الجيوبوليتيكا
- الشرق الأوسط
- نقد الفكر الوطني

د. نزار الناصح

- حول نظرية النسبية
- القدرة العقلية: درجة الذكاء، حاصل الذكاء

د. إبراهيم يوسف العبدالله

- الإصلاحات التّربوية لمواجهة متطلبات العصر وتحديات المستقبل
- رفع الكفاءة الإنتاجية للمؤسسة المدرسية

د. اسماعيل الأمين

- التلفزة المعاصرة: سلطة رابعة أم سلطة مربّعة؟
- الكتابة للصورة
- كيف تكتب خبراً تلفزيونياً

د. عبد اللطيف معاليقي

- دراسة التصرفات عند الحيوان
- المراهقة: أزمة هوية أم أزمة حضارة؟

د. نخلة وهبة

- رُعب السؤال وأزمة الفكر التّربوي
- كي لا يتحول البحث التّربوي إلى مهزلة

د. علي زيعور

- حقول التحليل النفسي والصحةُ العقلية كما الروحيةُ والحضارية
- الفلسفة المَحْضة والفلسفات النفسيَّة والطبيعيَّة

غسان مراد

- الإنسانيات الرقمية
- دهاء شبكات التواصل الاجتماعي وخبايا الذكاء الاصطناعي
- مرايا التحوّلات الرقميّة



- أبناء الطوائف – علي خليفة
- الإتيكيت – صباح بوبا سولاقا
- أسرار دوام العلاقات – ايمانويل دي بويسون
- أفكر إذن: أنا كمبيوتر – عادل فاخوري
- البحث «العلمي» بنماذجه الأساسية – د. أحمد الصيداوي
- تأمّلات في ثقافات رديئة – د. يوسف الحسن
- التّربية والتنمية والنهضة – د. عبد العزيز محمد الحر
- تعريب التعليم وتعلُّم اللغات الأجنبية – د. نزار الزين
- التعليم من المهد – فتحية محمود صدّيق
- الجرائم المالية في الفضاء الإلكتروني – د. خضر درّة
- الجريمة باسم الشرف – رنا الحسيني
- الحوكمة والإدارة الرشيدة – د. عبدالله عبد الكريم عبدالله
- دمج ذوي الحاجات الخاصة وفئة الصعوبات التعلّمية – رانا بو عجرم
- الزواج المدني بين الإسلام والمسيحية – إعداد مركز الدّراسات والأبحاث الإسلاميّة –

المسيحيّة، إشراف الشيخ محمد علي الحاج العاملي

- **السمات الصوتيّة المميّزة في الخطاب الشعريّ** – أ.د. نوزاد حسن أحمد خوشناو
- **طرائق ومنهجية البحث في علم النفس** – د. فاروق مجذوب
- **العالم العربيّ: التحوّل الثقافي الاجتماعي** – بولس الخوري
- **علم النفس والعولمة** – د. مصطفى حجازي
- **فعاليّة المدرسة في التّربية المواطنية** – د. نمر فريحة
- **كيف نواجه الخوف** – م.ك. غوبت
- **كيف نجتنب كارثة مُناخيّة** – بيل غيتس
- **اللاتجانس الاجتماعي** – د. عدنان الأمين
- **مثلّث النهضة: التّربية والتنمية والحُكم الصالح** – نادين القرنجي
- **المرأة العاملة في لبنان** – د. جاك قبانجي – د. أسعد الأتات
- **الوضع السكاني في لبنان** – د. حلا نوفل رزق الله

Notes

[1←]

Psychologies، كانون الثاني/يناير 2005، إيزابيل يويل.

[2←]
جان كلود بولوني، Histoire du célibat، فايار، 2004.

[3←]

فلافيا مازلين سالفي، Vivre zen à deux. Harmonie et épanouissement dans le couple، براس دي شاتلي، 2005.

[4←]
طبيب نفساني، متخصص في مواضيع العائلة والثنائي.

[5←]
جان دجيونو، Fragments d’un paradis، غاليمار، 1974، ص190-191.

[6←]
فرانشسكو ألبيروني، Je t’aime، بوكيت، 2005.

[7←]

فيليب برونو، Inventer le couple، أوديل جاكوب، 2003.

[8←]
سيرج شوميه، L’amour fusionnel، فايار، 2004، ص47.

[9←]
أستاذ محاضر في جامعة باريس 8، ومخبر في صحيفة «لوفيغارو»، نظّم ندوة دكتوراه حول تاريخ العائلة المقارن.

[10←]

هيزيود، Théogonie, Les Belles Lettres، 1928، الشطر 592، ص5.

[11←]

Elle، 4 نيسان/أبريل 2005.

[12←]
سيرج إيفيز (طبيب ومحلّل نفساني، ومتخصص في معالجة مسائل العائلة والثنائي)، ودانيال لوفير، La danse du couple، هاشيت، ليتيراتور، 2002.

[13←]
باسكال براكنر وألان فينكيلكروت، Le nouveau désordre amoureux سوي، مجموعة «بوان»، 1977

[14←]

ويلي باسيني، Le couple amoureux، أوديل جاكوب، 2005.

[15←]

كوستانتين برونر، L’amour، غاليمار، مجموعة "Les essais"، 1968.

[16←]
هانري دي مونتيرلان، Sur les femmes، بوفير، 1958.

[17←]
جورج سيميل، Philosophie de l’amour، ريفاج، 1988.

[18←]
جان غيتون، L’amour humain، مونتاني، 1969.

[19←]

Elle، 28 آذار/مارس 2005؛ فريديريك بيغبيدير، L′égoïste romantique، غراسي، 2005.

[20←]
ويلي باسيني، Le couple amoureux، مرجع سابق.

[21←]
سيرج شوميه، L’amour fissionnel، مرجع سابق، ص 100.

[22←]
سيرج شومييه، L’amour fissionnel، مرجع سابق، ص100.

[23←]
المصدر نفسه.

[24←]
جان غيتون، L'amour humain، مونتاني، 1969.

[25←]
موريس دوماس، Le mariage amoureux، أرمان كولن، 2004.

[26←]
فرانشسكو ألبيروني، Le choc amoureux، بوكيت، 1979.

[27←]
المصدر نفسه.

[28←]
جان بول كوفمان، La femme seule et le prince charmant، ناتان، 1999.

[29←]
بياتريكس دي لولنوا وفيرونيك موغان، Marie-Claire، أيار/مايو 2005.

[30←]
باسكال بروكنر وألان فنكلكروت، Le nouveau désorde amoureux، مرجع سابق.

[31←]
المصدر نفسه.

[32←]
جان كيلير هالز، إريك ويدمر، رينيه ليفاي، Mesure et démesure du couple، بايو، 2004.

[33←]
المصدر نفسه.

[34←]

عمل جماعي، "Leurs yeux se rencontrèrent" Les plus belles premières rencontres de la littérature، غاليمار، مجموعة «فوليو»، 2003.

[35←]
فرانشسكو ألبيروني، Je t'aime، مرجع سابق.

[36←]
فيليب برونو، Inventer le couple، مرجع سابق.

[37←]
فرانشسكو ألبيروني، Je t'aime، مرجع سابق.

[38←]

صوفي فونتانيل، Sublime amour، روبير لافون، 2005، ص84.

[39←]

لوسي فانسان، Comment devient-on amoureux?، أوديل جاكوب، 2004.

[40←]
فيليب سولرز، Passion fixe، غاليمار، 2000.

[41←]
فيليب لابرو، L’etudiant etranger، غاليمار، 1985.

[42←]
فيليب لابرو، L’etudiant étranger، غاليمار، 1985.

[43←]
غوستاف فلوبير، L’Education sentimentale، غاليمار، مجموعة «فوليو كلاسيك»، 2005.

[44←]

جان كريستوف روفان، L’Abyssin، غاليمار، 1997.

[45←]
رولان بارت، Fragments d’un discours amoureux، سوي، 1977.

[46←]
ألان جيرار، Le choix du conjoint PUF، 1964.

[47←]
جان كيلير هالز، إريك ويدمر، رينيه ليفاي، Mesure et démesure du couple، مرجع سابق.

[48←]
مارابوت، 2001؛ 2005.

[49←]
باتريسيا دي لاهي، Etre la fille de sa mère et ne plus souffrir، مارابوت، 2002.

[50←]
فرانشسكو ألبيروني، Le choc amoureux، مرجع سابق.

[51←]
المصدر نفسه.

[52←]
رولان بارت، Fragments d’un discours amoureux، مرجع سابق، ص233.

[53←]

دونيس دي روجمون، L’amour et l’Occident، 10/ 18، 2004.

[54←]

دونيس دي روجمون، L’amour et l’Occident، 10/ 18، 2004.

[55←]
المصدر نفسه.

[56←]
المصدر نفسه.

[57←]

دونيس دي روجمون، L’amour et l’Occident، 10/ 18، 2004.

[58←]
المصدر نفسه.

[59←]
المصدر نفسه.

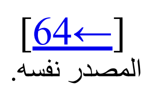
[60←]
المصدر نفسه.

[61←]

دونيس دي روجمون، L’amour et l’Occident، 10/ 18، 2004.

[62←]
المصدر نفسه.

[63←]
المصدر نفسه.



المصدر نفسه.

[65←]

دونيس دي روجمون، L’amour et l’Occident، 10/ 18، 2004.

[66←]
المصدر نفسه.

[67←]
المصدر نفسه.

[68←]

دونيس دي روجمون، L’amour et l’Occident، 10/ 18، 2004.

[69←]
المصدر نفسه.

[70←]
ويلي باسيني، Le couple amoureux، مرجع سابق.

[71←]

Psychologies، تموز/يوليو 2004.

[72←]
رولان بارت، Fragments d’un discours amoureux، راجع سابقاً، ص48.

[73←]
متخصص في معالجة المدمنين على المخدرات، ومدير المركز الطبي. مارموتان في باريس.

[74←]
مارك فايور، جان كلود ماتيسياك، Sexe passion et jeux vidéo، فلاماريون، 2003.

[75←]
روبن نونوود، Ces femmes qui aiment trop، جي لو، 2003.

[76←]
دانيال بييترو، La dépendence affective، كيبيكور، 2004.

[77←]
آني إيرنو، Passion simple، غاليمار، 1992.

[78←]

Psychologies، تموز/يوليو 2004.

[79←]
رولان بارت، Fragments d’un discours amoureux، مرجع سابق، ص168.

[80←]

شهادة حصلت عليها كورين غولدبرغر، Marie-Claire، 2003.

[81←]

Psychologies، تموز/يوليو 2004.

[82←]
فلافيا مازلين سالفي، Vivre zen à deux، بريس دي شاتليه، 2005.

[83←]
كارولين ن. بوشونغ، Etre heureux à deux، آن كاربير، 1997.

[84←]
فلافيا مازلين فلافي، Vivre zen à deux، مرجع سابق.

[85←]
المصدر نفسه.

[86←]
باتريسيا دي لاهي، Psychologies، تموز/يوليو 2004.

[87←]
ويلي باسيني، A quoi sert le couple?، أوديل جاكوب، 2000.

[88←]
ويلي باسيني، Le couple amoureux، مرجع سابق.

[89←]
فرانشسكو ألبيروني، Je t'aime، مرجع سابق.

[90←]
إيزابيل يويل، Nos déclarations d’amour، لا مارتينيير، 2005.

[91←]
فرانشسكو ألبيروني، Je t'aime، مرجع سابق.

[92←]
روبير نوبرغر، Nouveaux couples، أوديل جاكوب، 2004.

[93←]

Psychologies, "Vivre en couple"، عدد استثنائي، 2004.

[94←]
باسكال سانك، Psychologies، آذار/مارس 2005.

[95←]
سالومون ناسييلسكي، Psychologies، آذار/مارس 2005.

[96←]
روبير نوبرغر، Nouveaux couples، مرجع سابق.

[97←]
فرانشسكو ألبيروني، Je t'aime، مرجع سابق.

[98←]

روبير نوبرغر، Nouveaux couples، مرجع سابق.

[99←]
جان كيلير هالز، إريك ويدمر، رينيه ليفاي، Mesure et démesure du couple، مرجع سابق.

[100←]
Psychologies، آذار/مارس 2005.

[101←]
جيرار لولو، La fidélité et le couple، جي لو، 2004.

[102←]
سيرج إيفيز، La danse du couple، مرجع سابق.

[103←]
فلافيا مازلين سالفي، Vivre zen à deux، مرجع سابق.

[104←]
سالومون ناسييلسكي، Psychologies، آذار/مارس 2005.

[105←]
سيرج إيفيز، La danse du couple، مرجع سابق.

[106←]
جان كيلير هالز، إريك ويدمر، رينيه ليفاي، Mesure et démesure du couple، مرجع سابق.

[107←]

كلود دي ميلفيل، Le couple, une espèce en voie d'apparition، مرجع سابق.

[108←]
فرانشسكو ألبيروني، Le choc amoureux، مرجع سابق.

[109←]
فرانشسكو ألبيروني، Le choc amoureux، مرجع سابق.

[110←]
سيرج إيفيز، La danse du couple، مرجع سابق.

[111←]
فيليب برونو، Inventer le couple، مرجع سابق.

[112←]
كارولين ن. بوشنغ، Etre heureux à deux، آن كاريير، 2000.

[113←]

كارولين ن. بوشنغ، Etre heureux à deux، آن كاريير، 2000.

[114←]
كارولين ن. بوشنغ، Etre heureux à deux، آن كاريير، 2000.

[115←]
كارولين ن. بوشنغ، Etre heureux à deux، آن كاريير، 2000.

[116←]
روبير نوبرغر، ?On arête. On continue، بايو، 2004، ص124.

[117←]
فرانشسكو ألبيروني، Je t'aime، مرجع سابق.

[118←]
روبير نوبرغر، Nouveaux couples، مرجع سابق.

[119←]
سيرج شوميه، L'amour fissionnel، مرجع سابق، ص233.

[120←]
Psychologies، آذار/مارس 2005.

[121←]
سيرج إيفيز، La danse du couple، مرجع سابق.

[122←]
بوريس سيرولنيك وكلود سيرون، La résilience, ou comment renaître de sa souffrance، فابير، 2004.

[123←]

جون غراي، Les hommes viennent de Mars, les femmes viennent de Vénus، جي لو، 1997.

[124←]
كريستين أوربان، Le silence des hommes، ألبين ميشال، 2003.

[125←]

Elle، 2 أيار/مايو 2005.

[126←]
مارتين تيلاك، J'ai mal à mon couple، فورست، 2004.

[127←]

Psychologies، آذار/مارس 2005.

[128←]
جون م. غوتمان، نان سيلفر، Les couples heureux ont leurs secrets، بوكيت، 2000.

[129←]

جون م. غوتمان، نان سيلفر، Les couples heureux ont leurs secrets، بوكيت، 2000.

[130←]
ج. كيلير هالز، أ. ويدمر، رينيه ليفاي، Mesure et démesure du couple، مرجع سابق.

[131←]
ج. كيلير هالز، أ. ويدمر، رينيه ليفاي، Mesure et démesure du couple، مرجع سابق.

[132←]
رولان بارت، Fragments d’un discours amoureux، مرجع سابق، ص247.

[133←]

Psychologies، تموز/يوليو 2004.

[134←]
باسكال براكنر وألان فينكيلكروت، Le nouveau désordre amoureux، راجع سابقاً، ص167.

[135←]

ألون غرانتش، Pourquoi ça casse alors que ça pourrait marcher، بايو، 2005.

[136←]

ألون غرانتش، Pourquoi ça casse alors que ça pourrait marcher، بايو، 2005.

[137←]
ألون غرانتش، Pourquoi ça casse alors que ça pourrait marcher، بايو، 2005.

[138←]

جون م. غوتمان، نان سيلفر، Les couples heureux ont leurs secrets، مرجع سابق.

[139←]

Psychologies، مرجع سابق.

[140←]
فلافيا مازلين سالفي، Vivre zen à deux، مرجع سابق.

[141←]
ويلي باسيني، Le couple amoureux، مرجع سابق.

[142←]
جيرار لولو، La fidélité dans le couple، مرجع سابق.

[143←]
جيرار لولو، La fidélité dans le couple، مرجع سابق.

[144←]
فلافيا مازلين فلافي، Vivre zen à deux، مرجع سابق.

[145←]
فلافيا مازلين فلافي، Vivre zen à deux، مرجع سابق.

[146←]
فرانشسكو ألبيروني، Je t'aime، مرجع سابق.

[147←]
فرانشسكو ألبيروني، Je t’aime، راجع سابقاً.

[148←]
جيرار لولو، La fidélité dans le couple، راجع سابقاً.

[149←]
ج. كيليرهالز، أ. ويدمر، ر. ليفاي، Mesure et démesure du couple، مرجع سابق.

[150←]
سيرج إيفيز، La danse du couple، مرجع سابق.

[151←]

سيرج إيفيز، La danse du couple، مرجع سابق.

[152←]
ج. كيليرهالز، أ. ويدمر، ر. ليفاي، Mesure et démesure du couple، مرجع سابق.

[153←]

ج. كيليرهالز، أ. ويدمر، ر. ليفاي، Mesure et démesure du couple، مرجع سابق. ومستوحاة من Figaro Madame، عدد 8 كانون الثاني/يناير 2005، مقالة غيوميت دي سارينييه.

[154←]
أنظر، ويلي باسيني، Le couple amoureux، مرجع سابق، ص140-14.

[155←]
ج. كيليرهالز، أ. ويدمر، ر. ليفاي، Mesure et démesure du couple، مرجع سابق.

[156←]

ويلي باسيني، Le couple amoureux، مرجع سابق.

[157←]
فيليب برونو، Inventer le couple، مرجع سابق.

[158←]

روبير نوبرغر، ?On arrête? on continue، مرجع سابق.

[159←]
روبير نوبرغر، Nouveaux couples، مرجع سابق.

[160←]
بوريس سيرولنيك، Les nourritures affectives، أوديل جاكوب، 1993.

[161←]
روبير نوبرغر، Les territoires de l’intime، أوديل جاكوب، 2000.

[162←]
مارتين تيلاك، J’ai mal à mon couple، مرجع سابق.

[163←]

جاك دي بوربون بوسي، Lettre à Laurence، غاليمار، مجموعة «فوليو»، 1989، ص41.

[164←]
ويلي باسيني، A quoi sert le couple?، مرجع سابق.

[165←]

Psychologies، مرجع سابق.

[166←]
فلافيا مازلين سالفي، Vivre zen à deux، مرجع سابق.

[167←]
المصدر نفسه.

[168←]
المصدر نفسه.

[169←]
روبير نوبرغر، On arrête?... on continue?، مرجع سابق.

[170←]
فيليب برونو، Inventer le couple، مرجع سابق.

[171←]
باتريسيا دي لاهي، Ces amours qui nous font mal، مرجع سابق.

[172←]
مارتين تيلاك، J’ai mal à mon couple، مرجع سابق.

[173←]
فلافيا مازلين سالفي، Vivre zen à deux، مرجع سابق.

[174←]
كيركيغار، Ou bien ou bien، مرجع سابق، ص441.

[175←]
المصدر نفسه.

[176←]
إيزابيل يويل، Nos dإclarations d›amour، مرجع سابق.

[177←]
جاك دي بوربون، Lettre à Laurence، مرجع سابق، ص41.

[178←]
المصدر نفسه.

[179←]
فيليب برونو، Inventer le couple، مرجع سابق.

[180←]
المصدر نفسه.

[181←]
أنابيس نين، Journal، بيبليو بوش، 1969.

[182←]
رينيه إتيامبل، L’érotisme et l’amour، أرليا، 1987، ص42 و94.

[183←]
سيرج إيفيز، La danse du couple، مرجع سابق.

[184←]
ويلي باسيني، Le couple amoureux، مرجع سابق.

[185←]

ماري وستانيسلاس، Bienvenue sous la coquette, Comment le libertinage a réveillè notre couple، بايو، 2005. راجع أيضاً مقالة فابريس غينيو، في Marie-Claire، حزيران/يونيو 2005.

[186←]

ويلي باسيني، Le couple amoureux، مرجع سابق.

[187←]
المصدر نفسه.

[188←]
Psychologies، عدد استثنائي، مرجع سابق.

[189←]

جيرار لولو، La caresse de Vénus ou les rêves du clitoris، لودوك، 2005.

[190←]
ويلي باسيني، Le couple amoureux، مرجع سابق.

[191←]
مارتين تيلاك، J’ai mal à mon couple، مرجع سابق.

[192←]
المصدر نفسه.

[193←]
إن ألان دانييلو، Shiva et Dionyos، فايار، 1979، ص198 - 199.

[194←]
سيرج شوميه، L’amour fissionnel، مرجع سابق، ص165.

[195←]
سيرج شوميه، L’amour fissionnel، مرجع سابق، ص165.

[196←]
باسكال بروكنر وألان فينكيلكروت، Le nouveau désordre amoureux، راجع سابقاً.

[197←]
باسكال بروكنر وألان فينكيلكروت، Le nouveau désordre amoureux، راجع سابقاً.


المصدر نفسه.

[199←]
فيليب برونو، Inventer le couple، مرجع سابق.

[200←]
فيليب برونو، Inventer le couple، مرجع سابق.

[201←]
ويلي باسيني، Le couple amoureux، مرجع سابق، ص202.

[202←]
بريجيت لاهي، L’amour et le couple، مرجع سابق.

[203←]
بريجيت لاهي، L’amour et le couple، مرجع سابق.

[204←]
المصدر نفسه.

[205←]
المصدر نفسه.

[206←]
ويلي باسيني، Le couple amoureux، مرجع سابق، ص188.

[207←]
بريجيت لاهي، L’amour et le couple، مرجع سابق.

[208←]

Psychologies، عدد استثنائي، فلافيا أكورسي ومونيك أيون، مرجع سابق.

[209←]
جيرار لولو، La fidélité et le couple، مرجع سابق.

[210←]

Marie-Claire 32، نيسان/أبريل 2005.

[211←]
ويلي باسيني، Le couple amoureux، مرجع سابق.

[212←]
ألان إتشيغويين، La force et la fidélité، آن كاريير، 2004.

[213←]
المصدر نفسه.

[214←]

Psychologies، عدد استثنائي، مرجع سابق.

[215←]
ألان إتشيغويين، La force et la fidélité، مرجع سابق.

[216←]
باتريسيا دي لاهي، ?Fidèle, pas fidèle، لودوك، 2004.

[217←]
ويلي باسيني، A quoi sert le couple?، مرجع سابق.

[218←]
باتريك بلاشير وصوفي روشون، Petites infidélités dans le couple، ألبان ميشال، 2005.

[219←]
ألان إتشيغوبين، La force et la fidélité، مرجع سابق.

[220←]
باتريسيا دي لاهي، Fidèle, pas fidèle?، مرجع سابق.

[221←]
سيرج إيفيز، La danse du couple، مرجع سابق.

[222←]
فيليب برونو، Inventer le couple، مرجع سابق.

[223←]
باتريسيا دي لاهي، ?Fidèle, pas fidèle، مرجع سابق.

[224←]
سيرج إيفيز، La danse du couple، مرجع سابق.

[225←]
باتريسيا دي لاهي، Fidèle, pas fidèle?، مرجع سابق.

[226←]
باتريسيا دي لاهي، Fidèle, pas fidèle?، مرجع سابق.

[227←]
جيرار لولو، La fidélité et le couple، مرجع سابق.

[228←]
ألان إنتشيغويين، La force et la fidélité، مرجع سابق.

[229←]
المصدر نفسه.

[230←]

مارتين تيلاك، J’ai du mal à mon couple، مرجع سابق.

[231←]
باتريسيا دي لاهي، Fidèle, pas fidèle?، مرجع سابق.

[232←]

جيرار لولو، La fidélité et le couple، مرجع سابق.

[233←]
ويلي باسيني، A quoi sert le couple?، مرجع سابق.

[234←]
سيرج إيفيز، La danse du couple، مرجع سابق.

[235←]
دانيال لاغاش، La jalousie amoureuse، بي أو أف، 1947.

[236←]
فرانشسكو ألبيروني، Le choc amoureux، مرجع سابق.

[237←]

رولان بارت، Fragments d’un discours amoureux، مرجع سابق.

[238←]
جيرار لولو، La fidélité et le couple، مرجع سابق.

[239←]
المصدر نفسه.

[240←]
أندريه كونت - سبونفيل، La fidélité، غير ذلك، مجموعة «مورال»، 1991.

[241←]
ألان إنتشيغويين، La force et la fidélité، مرجع سابق.

[242←]
ويلي باسيني، A quoi sert le couple?، مرجع سابق.

[243←]
جيرار لولو، La fidélité et le couple، مرجع سابق.

[244←]
باسكال بروكنر وألان فينكيلكروت، Le nouveau désordre amoureux، مرجع سابق.

[245←]
روبير نوبرغر، Nouveaux couples، مرجع سابق.

[246←]

سيرج إيفيز، La danse du couple، مرجع سابق.

[247←]
جان كيلير هالز، إريك ويدمر، رينيه ليفاي، Mesure et démesure du couple، مرجع سابق.

[248←]
جيرار لولو، La force et la fidélité، مرجع سابق.

[249←]
جيرار لولو، La force et la fidélité، مرجع سابق.

[250←]
ويلي باسيني، A quoi sert le couple?، مرجع سابق.

[251←]

فيليب برونو، Inventer le couple، مرجع سابق.

[252←]
باولو كويلو، Le Zahir، فلاماريون، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر 2005.

[253←]
ويلي باسيني، A quoi sert le couple?، مرجع سابق.

[254←]
سيرج إيفيز، La danse du couple، مرجع سابق.

[255←]

L'express، 10 لغاية 20 شباط/فبراير 2005.

[256←]
المصدر نفسه.

[257←]

L'express، 10 لغاية 20 شباط/فبراير 2005.

[258←]
L’express، 10 لغاية 20 شباط/فبراير 2005.

[259←]

ميشال رينو، L’amour est une drogue douce، روبير لافون، 2005، في L’express، مرجع سابق.

[260←]
في L'express، مرجع سابق.

[261←]
هانري هاغي وديلفين سوبابر، L'express، راجع سابقاً.

[262←]

تييري بايار، Le jour où j’ai sauté dans l’infini، بريس دي لا رونيسانس، 2004، في L’express، مرجع سابق.

[263←]
.N.d.E

[264←]

.Ibid

[265←]

برنار غيبيرويز وكوليت بارّو، Le baby-clash، ألبان ميشال، 2005.

[266←]
جان كيلير هالز، إريك ويدمر، رينيه ليفاي، Mesure et démesure du couple، مرجع سابق.

[267←]
فرانس 2، 2 آذار/مارس 2005.

[268←]
ج. كيليرهالز، أ. ويدمر، ر. ليفاي، Mesure et démesure du couple، مرجع سابق.

[269←]
بياتريكس دي لولنوا وفيرونيك موغان، Marie-Claire، أيار/مايو 2005.

[270←]
بياتريكس دي لولنوا وفيرونيك موغان، Marie-Claire، أيار/مايو 2005.

[271←]
المصدر نفسه.

[272←]

Paris-Match، 2 آذار/مارس 2005.

[273←]

Marie-Claire، نيسان/أبريل 2005.

[274←]

كريستوف باربييه، إريك ماندوني، جان - ماري بونتو، "Les secrets des Chirac", L’express، 14 - 20 شباط/ فبراير 2005.

[275←]

جان دانيال، Cet étranger qui me ressemble، غراسي، 2005.

[276←]
ج. كيلير هالز، أ. ويدمر، رينيه ليفاي، Mesure et démesure du couple، مرجع سابق.

[277←]
فيليب برونو، Inventer le couple، مرجع سابق.

[278←]
ويلي باسيني، Nouveaux couples، مرجع سابق.

[279←]

سيرج إيفيز، La danse du couple، مرجع سابق.

[280←]
ألون غرانتش، Elle.

[281←]
جان كيلير هالز، إريك ويدمر، رينيه ليفاي، Mesure et démesure du couple، مرجع سابق.

[282←]
سيرج إيفيز، La danse du couple، مرجع سابق.

[283←]
روبير نوبرغر، On arrête?...on continue?، مرجع سابق.

[284←]
ويلي باسيني، Le couple amoureux، مرجع سابق.

[285←]
المصدر نفسه.

[286←]
ويلي باسيني، Le couple amoureux، مرجع سابق.

[287←]
روبير نوبرغر، Nouveaux couples، مرجع سابق.

[288←]

روبير نوبرغر، ?On arrête?...on continue، مرجع سابق.

[289←]

روبير نوبرغر، On arrête?...on continue?، مرجع سابق.

[290←]
ويلي باسيني، Le couple amoureux، مرجع سابق، ص292.

[291←]
مارتين تيلاك، J’ai mal à mon couple، مرجع سابق.

[292←]

ويلي باسيني، Le couple amoureux، مرجع سابق.

[293←]
دنيز وبيار ستاغنارا، Amours fidèles، فايار، 1990.

[294←]
ألان إتشيغويين، La force de la fidélité، مرجع سابق.

[295←]

آن أنسيلن شوتزنبرغر وإيفلين بيسون - جوفري، Sortir du deuil, surmonter son chagrin et réapprendre à vivre، بايو، 2005.

[296←]

راجع إمانويل دي بويسون، Le secret de ma mère، بريس دي لا رونيسانس، 2004.

[297←]

مارتين سيغالان، أستاذة في علم الاجتماع في باريس 5 - نانتير، Elle، 4 نيسان/أبريل 2005.

[298←]
ويلي باسيني، Le couple amoureux، مرجع سابق.

[299←]
صوفي فونتانيل، Sublime amour، مرجع سابق، ص330.